26 ساعة
فارقة في حياة

هتلر

شريف سامي

دار دوّن

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

٢٦ ساعة
فارقة في حياة
هتلر

شريف سامي

عن الكتاب..

جلس «هتلر» يسترجع فترته العصيبة التي مرَّت، والتي بدأت منذ تعنيف أبيه له، ومعاملته الصارمة في شتى الأوقات.. ما استدعاه لأن يستبدل بحلمه الفني حلما آخر عسكريًّا!

يضع الكاتب بين أيدينا قائمة بحث غاية في الإثارة والتشويق ولا حصر لقدر أسرارها، بحث في عالم الحقيقة الراسخ منها والزائف الذي مازال يحتاج إلى إعمال العقل، وفي 26 ساعة من حياة الشخصية الأكثر جدلًا في صفحات التاريخ الحديث، يأخذنا في محاولة لإعادة النظر في كل فاصل تاريخي كان له شأن جلي في حياة هتلر خاصة، والبشرية عامة، والاحتكاك بكل جوانبه النفسية، الإنسانية، العسكرية، بداية من طفولته وحتى وافته المنية.. فنتعرف على حفنة من المعلومات التي لا غنى عنها في التناول الدراسي لهذه الحقبة الزمنية من تاريخ الأمم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداءٌ..

إلى قرن التقدم والحداثة والإنجازات..

إلى قرن تكنولوجيا زهق الأرواح..

إلى أكثر قرون التاريخ دموية..

إهداء خاص إلى القرن العشرين..

شريف سامي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة..

لا سيما أن القرن العشرين برمته يعتبر عصر التقدم التكنولوجي اللامتناهي، وما نعيشه الآن من تكنولوجيا وعلوم، الفضل فيه يرجع إلى النبتة التي زُرعت في المائة وخمسين عاماً الماضية، إنه عصر المنجزات الإعجازية، ففيه لم يتوقف الإنسان عند غزو الفضاء وأعماق البحار فحسب، بل أنشأ أكواناً إفتراضية بأنامله الخاصة كالشبكات الخوارزمية التي تُدير الحواسيب وشبكات الإنترنت، وأصبح العالم حرفياً قرية صغيرة، ولو أعددت لك قائمةً بإختراعات القرن المنصرم سوف أحتاج كتاباً منفصلاً، وهذا التقدم الإنساني الرائد جعل المؤرخون يُطلقون عليه «قرن الإعجاز العلمي»... كلُ هذه الأمور تُشعرني بالفخر لمجرد كوني من مواليد هذا القرن.

ولكن هناك أسئلة أخرى هامة...

هل أخضع الإنسان تلك التكنولوجيا المذهلة في سبيل نشر الحب والإخاء فقط؟... هل استثمر تقدمه وعلومه في الحفاظ على الكوكب الذي يؤوينا؟... حقاً إنه قرناً متناقضاً!، فبرغم التقدم الهائل للعقل البشري، نجد القرن العشرين هو أكثر القرون ظُلمة ووحشية وكراهية، فهناك وجهاً آخر أسوداً استثمر فيه الإنسان ذكائه وعقله، وخرج لنا بأسلحة دمار لم تشهد البشرية مثلها، بل ولم تكن تتخيلها من قبل، تلك الأسلحة جعلت من الجبناء والأنذال أسياداً، وفرضت على البشرية نظرية البقاء للأقوى، والقوة مع بداية القرن العشرين كانت قد تغيرت خصائصها، فالقوة قبل القرن العشرين كانت تتجلى في الفروسية والشجاعة، وكانت تتطلب خيلاً رهواناً وسيفاً ورمحاً وفأساً وقوساً وسهماً أو منجنيقاً وما إلى ذلك، كل هذه الأدوات كانت لا تطيع سوى الفارس الشجاع صاحب القوة العضلية والمستعد نفسياً للقتال، وبصرف النظر عن مشروعية هذه الأدوات أم لا، المحصلة في النهاية كانت لا تتعدى العشرات وربما المئات من القتلى... أما مع وصول القرن العشرين أصبحت القوة ملخصة في إبادة الخصوم وسحق بلادهم بمن فيها من نساء وشيوخ وأطفال بضغطة زرٍ واحدة... في القرن العشرين رأينا خططاً وأسلحةً حديثة، رأينا حروباً تُشن بدون مشاركة القائد فيها، يُصدر أمراً من كلمة واحدة وهو جالساً في مكتبه الفخم أو سريره الحريري لينقلب الكون رأساً على عقب... في القرن العشرين رأينا الطواغيت يقتلون ضحاياهم وهم على كرسيهم بإشارة واحدة دون أن يتلوث بصرهم بمشهد الدماء أو مشهد تطاير أشلاء الضحايا، وربما هذه كانت من أهم الأسباب التي قتلت ضمائرهم، فكيف سيتعكر صفو ضميرهم وهم لا يرون من الحرب سوى تقارير، الأمر الذي جعلهم يستمتعون بضرب منشآت العدو بمن فيها حتى وإن كانوا مدنيين...

والقرن العشرين لم تكن وصمة عاره في الحربين العالميتين وكفى، بل هناك قائمة مكتظة بالحروب القومية والدينية والعرقية والإيديولوجية والإبادات الاجتماعية التي وصلت إحصائياتها إلى ١٧٥ مليون ضحية، لتجعله بلا منازع أكثر حقب التاريخ همجية، فالحضارة الإنسانية في القرن العشرين كانت قد جلبت معها ويلات وخيبات، لتؤشر عن طبيعة النفس البشرية التي إن امتلكت كل شيء ستدمر كل شيء... ورثنا من القرن العشرين العلم والحضارة هذا أمر لا يمكن إنكاره، لكننا ورثنا منه الكثير من الأشياء سيئة السمعة التي نعاني منها الآن:

فلقد ورثنا منه استثمار نظم المعرفة والعلم في صناعة جيوش تملك قدرة تدميرية قد تصل لإبادة الجنس البشري بأكمله، على حساب التقدم الاقتصادي والعمراني.

وورثنا منه استثمار المعرفة والعلم في امتلاك وسائل للقتل الجماعي للبشر كالأسلحة الكيماوية مثلاً، على حساب إنقاذ البشرية من الأمراض التي لا يوجد لها علاج.

وورثنا منه استثمار المعرفة والعلم في امتلاك أسلحة يمكنها تدمير البيئة وعمل اختلال في التوازن الطبيعي للكرة الأرضية على حساب إنقاذ ضحايا المجاعات والمشردين في كل أنحاء البسيطة.

ورثنا منه استثمار المعرفة والعلم في خلق وسائل للاستعباد والقهر والذل على حساب نصرة المستضعفين في الأرض والدفاع عن حقوق الإنسان بشكلٍ فعلي لا إسمي.

وفي خضم هذه التناقضات العنيفة، أدعوا الله أن يكون قرننا هذا متمرداً على والده الذي خرج من كنفه وأن يكون قرن سلام، برغم أنني لست متفائلاً بذلك، ربما لأنني أرى أن القرن الحادي والعشرين سيكون قرناً عنيفاً عنوانه «الحروب الحضارية»، أدعوا الله أن يُخيب ظني، وأدعوا الله أن يهدي بنو آدم إلى الحق، وأن يتحسن حال الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تكوير، بعدما عمد هذا الإنسان إلى تشويه إبداع الخالق عبر أنواعٍ شتى من الوسائل والآليات، إبتكرها عقله الذي ميزه الله به دون كل المخلوقات، واستحدثها خصيصاً من أجل إهلاك بني جلدته، وتبخيس أخاه في الإنسانية قدره الذي ميزه الله به، وأصبح الناتج عن ذلك ما ظهر في زمننا الحالي من آفات، مثل انتشار المذاهب والطوائف، وطغيان العنصرية، وإقامة الحواجز المهولة، كل هذا تحت عنوان النزعة الفردية، التي أصابت ضمير العالم وجعلته في سباتٍ عميق، حيث صار من الطبيعي رؤية طائفة تمارس كل سبل الوحشية ضد طائفة أخرى والجميع يشاهد دون تدخل، وفي الحقيقة هذا أمر طبيعي في

النفس البشرية، فالإنصاف هو أمر فيه تكلفة ومجاهدة، أما الظلم فهو أمرٌ انسيابيٌ مزروعٌ في الطبيعة البشرية، فالإنسان من طباعه الدفينة الجور، أما العدل فهو تطبع وتأديب، ولذلك قال أرسطو: «الظلم من طباع النفوس وإنما يصدها عن ذلك أحد علتين: إما علة دينية لخوفِ مَعاد، أو علة سياسية لخوفِ سيف»... وعندما جاء القرن العشرين وامتلك الإنسان العلم والقوة رأينا كيف عبث بالملكوت، ولولا صبر الخالق على المخلوق لأخذه بذنبه بعدما اتضح أن السلطة المطلقة تُخرج أسوء ما في النفس البشرية.

ملخصاً: كل ما قد مر على الإنسان من تطوراتٍ وحشية، التي نتجت عن تمكينه من الأرض، لخصه قول الله تعالى ک ک ڪ ڪ گ گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ گ ڳ ڳ (العلق)، ويقول الطبري في تفسير تلك الآية: يقول تعالى ذكره: ما هكذا ينبغي أن يكون الإنسان أن ينعم عليه ربه بتسويته خلقه، وبتعليمه ما لم يكن يعلم، وإنعامه بما لا كفؤ له، ثم يكفر بربه الذي فعل به ذلك، ويطغى عليه أن رآه استغنى... ويقول القرطبي: «إن الإنسان ليتجاوز حده ويستكبر على ربه، فيكفر به، لأن رأى نفسه استغنت، والإنسان هنا: الكافر أو هو أبو جهل الذي نزلت فيه هذه الآيات أو هو جنس الإنسان عموماً، والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان»، اللهم إنا نسألك انصلاح الأحوال، والهدى والتقى، والعفاف والغنى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمهيد

هذا الكتاب هو رحلة في وقائع الحربين العالميتين، الثانية بالأخص، وفي حياة الشخصية الأشهر في القرن العشرين «أدولف هتلر»، والغرض من هذه الرحلة إلقاء الضوء على هذه الفترة المظلمة من أجل أخذ العبر والعظات، مع دراسة التحولات النفسية والسلوكية في نفس هتلر، الشخصية الأكثر جدلاً في التاريخ.

وأدولف هتلر ما هو إلا إنسان، له ما له وعليه ما عليه، وليس كما وصفه المفتونون به بأنه كان لا يُخطأ أبداً وأنه القائد العسكري العصامي والهمام واللماح والمقدام والمتكلم والذي انتفضت لكلماته كل أوروبا، ورفعت له الأيدي منتصبة لسنوات، وتغنى باسمه شعراء ومطربين ألمانيا، وحف نجوم السينما العالمية شواربهم إقتداءً به وبشاربه العجيب، وصفات أخرى لا تجتمع إلا في الملائكة.

وليس كما وصفه المنتصرين بأنه كان رجلاً لا يملك عقلاً وليس له أي إنجازات لشعبه ولا فائدة منه، وأنه سادي ووحشي وقاسي وديكتاتور وعميل وخائن ومخادع ومتسلق ووصولي، والكثير من الصفات السيئة التي تسابقت وسائل الإعلام في وصفه بها، والتي لا يمكن أصلاً أن تجتمع إلا في جنس الشياطين.

أما أنا فلست ألماني الأصل ولا شيوعي الهوى، ولم أنشر هذا الكتاب في دار نشرٍ أمريكية، لذلك قبل كل شيء أُعلن عدم الانحياز، وأقر أن كتابي هذا تم تجميعه من مصادر متنوعة، غير مأخوذ بحذافيره من كتب النازيين الجدد ولا من كتب المنتصرين، ولكنني بحثت في الصنفين على بعض المعلومات المتشابكة، وأخذت ما أقرته جميع المصادر، ولكن فقط ما استجاب إليه عقلي، وما خضع لأسس البحث، وما اجتمعت عليه المراجع، دون إقحام رؤيتي الشخصية إلا بعد البحث والتدقيق، فهذا العمل يحتوي على عُصارة المؤرخين جميعهم في تلك الحقبة، ولكن فقط ما تم ذكره دون انحياز.. داعياً الله أن أكون قد وُفقت في ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١)
ساعة التمرد

في ليلة باردةٍ غطى فيها المطرُ الأزقةَ والطرقات، في إحدى ضواحي مدينة «لينز» النمساوية، انقضَّ «ألويس» على غرفةِ ابنه المظلمة، التي لن تستطيع أن ترى ما بداخلها، سوى من الشعاع المنبعث من ضوء مصباح طرقة منزل «ألويس» المتواضع، رافعًا سوطه كالمعتاد الذي طالما عنَّفَ وعذَّب به الفتى الصغير، ثم جرَّه من فوق سريره إلى الأرض، فانتفض الفتى، وسقط فجأةً من شدة الدفعة، ثم هوى وانْحَطَّ بكل ثِقْله وحَجمه النحيف، وبشدة صوته المفزوع الضعيف، ثم تصدّع، وتَداعى، ووقَع منكبًا على وجهه.. جثا الفتى الصغير على ركبتيه ووجهه للأرض؛ ليلتقي بمصيره المعهود، وبدأ والده بالضرب المبرح، ولكن على غير العادة لم يبكِ الفتى أو يصرخ، لم يستغِث، لم يصِح، برغم أن خارت قواه، وبرغم تخليه عن أي دِفاعٍ أو مُقاومة.. ثم علا صوت ضربات السوط والفتى ما زال صامتًا ويكأنه لا يشعر.. زاد الأب عنفًا، واستشاط غضبًا مُسدِّدًا ضَرباتٍ متتالية والابن لا يبالي، فهدوء الصبي قد يوحي للوهلة الأولى بأنه مشغولٌ بإحصاء عدد الضربات التي كانت تنهال على مؤخرته في صمتٍ وتركيزٍ تام.. تعجب الأب من سلوك ابنه هذه المرة، فدائمًا ما كان يصرخ أو يصيح أو يستعطفه.. نظر الابن إلى الأرض في انهيارٍ تام، ثم رفع رأسه قليلًا عندما سمع صوت بكاءٍ مكتوم، يخرج من جوفٍ منهزمٍ وضعيف، وكأنه من شخصٍ يُؤنِّب نفسه؛ بسبب عجزه عن إغاثته، ثم رفع الفتى رأسه رويدًا رويدًا، ونَظر نحو طُرقة المنزل ليرى أمه المهزومة متخفية في الضوء الخافت، لا يظهر إلا نصفها الأيمن، تنظر بعينٍ واحدة من خلف الباب الموارب، ودموعها تمطر في شعاع الضوء كقطرات غزيرة.. نظر الطفل إلى أمه بشجنٍ وحب، وكأنه يتوسل إليها ألا تتدخل، فطالما كان مصيرها مثل مصيره في كل مرةٍ حاولت فيها إغاثته.. تبادل الابن مع أمه الحديث بالنظرات التي خرجت من عينيهما الحزينتين، والأب لم يتوقف، فكلُّ مرةٍ كان يعنفه فيها ربما يكون السبب تافهًا، وبرغم أن ابنه كان طالبًا متفوقًا في مدرسته الابتدائية كان يُعاقب على أقل الأسباب، ودائمًا كان العقاب أكبر من الخطأ، فما بال هذه المرة التي أخطأ فيها ابنه بالفعل خطأً جسيمًا، فهذا الفتى قد رسب، رسب في الصف السادس للمرة الثانية على التوالي، وهي سنته الأولى في المدرسة الثانوية بعد انتقالهم إلى «لينز»، كان عليه أن يعيد هذه السنة الدراسية للمرة الثانية، أما معلموه فكانوا غاضبين، وقالوا عنه إنه «لا يرغب في العمل».

نظر الابن مجددًا إلى الأرض ليسترجع سنواته القليلة الماضية، وطفولته المحرومة المضطربة، منذ أن نزلت رأسه للحياة الدنيا في «بورنو» بالإمبراطورية النمساوية المجرية (وقتها كانتا متحدتين في إمبراطورية واحدة)، في مساء يوم ٢٠ إبريل من عام ١٨٨٩..

حينها التقط الطفـل الرضيع أنفاسه الأولى كابن رابع من أصل ستة أبناء بعدما وضعته والدته الرقيقة المنكسرة «كلارا هتلر» الزوجة الثالثة لوالده.. تذكر الفتى طفولته البائسة التي لم يرَ فيها حنان الأب ولو لمرة واحدة، فكان أبوه قاسيًا يُدعى «ألويس هتلر»، كان رجلًا باردًا ومسنًّا يضربه بشكلٍ مستمر، مما جعل الابن يحتقره بغلظة، كان الأب رجلًا عاديًا قليل الطموح، يعمل موظفًا في مصلحة الجمارك، وهو أيضًا عاش طفولةً بائسة، منذ قدومه للحياة كمولود غير شرعي، فقد عاش السنوات التسع والثلاثين الأولى من عمره في عذابٍ تام؛ بسبب جهل نسبه، كان خلالهما يحمل الأب «ألويس» لقب عائلة والدته وهو «تشيكلجروبر»، وبعد شقاءٍ مزمنٍ وطويلٍ حمل «ألويس» لقب زوج والدته «يوهان جورج هتلر» أو «هتلر» بعد الاختصار، وعلى الأرجح والد «ألويس» الفعلي ربما يكون واحدًا من الأخوين «يوهان جورج هيدلر» أو «يوهان نيبوموك هيدلر».. ورث «أدولف» الفتى الصغير معاناة أبيه في جهل نسبه، فالشائع أن أدولف هتلر كان ينتسب إلى اليهود عن طريق واحد من أجداده، وهذا بسبب أن جدته «ماريا تشيكلجروبر» قد حملت أباه «ألويس» كطفل غير شرعي، عندما كانت تعمل خادمةً في بيت أحد النبلاء اليهود.

كانت تلك العدوانية الواضحة في سلوك الأب ألويس مع أسرته، سببها اضطرابه وجرحه القديم، وعدم معرفته لهويته، وهذا النسب المجهول كان قد طارده حتى عندما أراد الزواج من أم «أدولف»، فوقتها كان من المستحيل تحديد العلاقة البيولوجية الحقيقية التي كانت تربط بينه وبين «كلارا»، حيث كانت تناديه بالعم، وهو الأمر الذي استدعى حصولهما على إعفاءٍ من «البابا» نفسه لإتمام زواجهما، إنها حقًا عائلة غير عادية تمامًا.. عاشت هذه الأسرة المكونة من الأب والأم والأبناء الستة لفترةٍ ليست كبيرة، ليتوفى بعد ذلك أربعة أبناء، ويعيش فقط «أدولف» وشقيقته «باولا» التي كانت أصغر منه بسبع سنوات، وكان له أخ وأخت آخران من أبيه فقط قد أنجبهما من زوجته الثانية، الأخ اسمه «ألويس هتلر الابن» والأخت اسمها «أنجيلا»، كان هذا سببًا لعشق أمه له، فكثرة الوفيات بين صبيان «كلارا»، جعلها تحب الناجي الوحيد من بين ذكورها حبًّا جمًّا.

مرت أكثر من نصف ساعة والفتى «أدولف» صامدٌ لا يبكي، والأب لم يملَّ من الضرب المبرح، بل زاده الأمر شدة، فبدأت صرخات الأم «كلارا»

بالإجهاش، ثم عزمت وأخذت قرارها في الجري نحو طفلها لتفديه، فالتقطت أنفاسها واستعدت، وكأنها ستقوم بالمشي حافيةً على جمرٍ ملتهب، ثم رفعت رأسها لأعلى وصدرها يعلو وينخفض من تسارع الأنفاس، وكتمت بكاءها فجأة، ثم جرت نحو صغيرها لتضمه معرضةً ظهرها لقصف السوط، فاستشاط الأب «ألويس» غضبًا، فقرر أن يضربها بشكلٍ أعنف، فطالما أمرها ألا تتدخل في كل مرةٍ يُعنّف فيها الصبي، ثم قفز «أدولف» من تحتها ليفديها هو ويتحمل السوط عنها، ثم تفاجئه هي بدفعه لتتحمل هي السوط عنه، وأخذا يتبادلان التضحية والفداء، والأب لم يتوقف، ولسانه لم يكفَّ عن السُّباب، حتى احتضن «أدولف» أمه محاولًا حمايتها، لتنزل دموعه في أحضانها بعد ما كبتها طيلة نصف ساعة، لتختلط دموعهما ويولد بينهما ارتباط عاطفي عميق؛ بسبب قهرهما المشترك، ليزيد عشقه لها، في الوقت الذي كان يشعر فيه بالاستياء الشديد من والده، فلقد تحملت «كلارا» وأبناؤها عناء زوجها وقسوته، علاوةً على المعيشة الضيقة والمحدودة، وكثرة تنقلهم بسبب عمله، حيث انتقلت هي وأبناؤها معه من «برونو آم إن» إلى أماكن شتى، فلقد عاشوا في مدينة «باسساو»، ثم مدينة «لامباتش»، ثم مدينة «ليوندينج» بالقرب من مدينة «لينز»، أما «أدولف» الصغير فقد تحمَّل العذاب والقسوة على مرِّ سنواته القليلة؛ بسبب عناده لوالده، وهذا كان سببًا كفيلًا لتعنيفه الدائم، فهذا العناد كان نابعًا من تمرده على أبيه الذي أراده أن يحذو حذوه، ويكون موظفًا بالجمارك، بينما الولد كان مشغوفًا بالفنون والشهرة، وأن يكون شخصًا غير تقليدي.. كان كره «أدولف هتلر» لوالده «ألويس» قد زاد يومًا بعد يوم، وبالأخص بعدما منعه «ألويس» من دراسة الفن في لينز، فلقد أرسله عنوةً إلى مدرسةٍ مختصةٍ بالرياضيات والعلوم، كرهها «هتلر» وأصبح طالبًا فاشلًا، لم يحبّ فيها سوى مادةً واحدةً كانت تثير فضوله، وهي مادة التاريخ، فلقد انتبه من خلالها إلى أشهر قصص الأبطال الذين خلدهم التاريخ الألماني.

كان «هتلر» لا يشبه أباه كليًا، فأفكار المراهق الصغير عكس أفكاره تمامًا، فوالده كانت تنطبق أفكاره مع الإمبراطورية والمشروع الإمبراطوري، بينما «هتلر» كان ينجذب إلى الأفكار القومية الألمانية.. في عنادٍ واضحٍ رسب الفتى، وتأخر عن زملاء صفه لعامين كاملين، والدليل على ذلك أن «لودفيج فيتجنشتاين» الذي يعتبر واحدًا من أكثر الفلاسفة تأثيرًا في القرن العشرين، كان زميل صف لـ«هتلر»، وكانا في نفس العمر تقريبًا وفي مدرسةٍ واحدة، لكن «فيتجنشتاين» سبق «هتلر» بصفّين دراسيين، وبرغم ذلك لم يتعارفا، ولم يتحدثا سويًا على الإطلاق.

بعد مرور ما يعادل ستين دقيقة من الضرب العنيف، انهارت الأم الضعيفة ووقعت على الأرض، ثم نزل «أدولف» الصامد إليها واحتضنها، بعدما أوقف

والده الضرب؛ بسبب إجهاده الشديد، وبعدما تلفّظ ببعض الألفاظ الشنيعة تركهما وانصرف، ليحاول الفتى الصغير مسح دموع والدته وتقبيل رأسها، لتكون تلك الساعة هي أول الأوقات تحولًا في حياة شخصٍ لا يتوقف عن فعل أي شيء مقابل تنفيذ طموحه والصعود لأعلى، لتبدأ قصةً أكثر رجال التاريخ جدلًا.. عاش «أدولف» الصغير هذه الساعة في عذابٍ وألم، فما بالنا عن سنواته المبكرة التي كانت مختلفة تمامًا.. كانت هذه الساعة هي ساعة تمرُّده الأولي، حينما قرر فيها ألا يبكي وألا يستسلم، وقرر فيها أنه لن يفعل بعد ذلك فعلًا إلا ما قد يُمليه عليه رأسه.. حتمًا هذه الساعة كانت من ضمن أهم الساعات التي قد أسهمت في صناعةِ رجلٍ استثنائي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢)
ساعة التحول

يجلس «هتلر» الآن أمام مبنى التعبئة والتجنيد بميونيخ في تمام الساعة الثامنة صباحًا في انتظار رسالة مصيرية، بعدما قرر هذا الشاب الطموح الالتحاق بالخدمة العسكرية فور وصوله إلى ميونيخ للمرة الثانية، حيث كان قد هرب من أداء الخدمة العسكرية في إمبراطورية النمسا والمجر.. يُظهر لك هذا الأمر للوهلة الأولى مدى التناقض الذي يعشش في داخل «أدولف»، لكن في الحقيقة «أدولف» لم يعترض على مبدأ التجنيد في الجيش من حيث الفكرة، ولكن اعتراضه بدا واضحًا على التجنيد في الجيش النمساوي المجري بالذات.. يجلس الآن بجوار شباك التعبئة والتجنيد في الصباح الباكر ينتظر رسالةً مهمة، رغم أن ساعة عمل الموظفين لم تبدأ بعد، جاءهم بنفسه الآن، أما الشهر الماضي فكان يتهرب من كل من يرتدي زيًا عسكريًا، وكانت شرطة ميونيخ قد طاردته، وتمكنت من القبض عليه بالتعاون مع السلطات النمساوية؛ بسبب تهربه من التجنيد واختبائه هنا لمدة ثمانية أشهر من الفرار، وبعد تسليمه للنمسا مَثُل أمام المحكمة العسكرية، واستخدم حيلة الندم والاستعطاف، وبرر أنه ما كان سيفعل ذلك لولا مصارعته للفقر من أجل سد احتياجات أسرته الفقيرة، ثم تقدم باعتذارٍ والتماسٍ كتابي يوحي بأنه قد ندم على هروبه، فتعاطف معه القاضي بعد استعراض موهبته الخطابية التي سيطورها بقية حياته، ثم ابتسم له القدر بعدما تم فحصه جسديًّا ليتقرر أنه غير لائق لأداء الخدمة العسكرية؛ بسبب أنه كان هزيلًا جدًا وقتها، وتم السماح له بالعودة إلى ميونيخ مجددًا، ليجلس هكذا في انتظار الرسالة المنشودة، إنها رسالة ردٍّ على التماس قد قدمه هنا لملك بافاريا «لودفيج الثالث»؛ للسماح له بالخدمة في الجيش، وبرغم رفضه هناك؛ بسبب أنه غير لائق، قاده طموحه للتقديم هنا، فربما يتم قبوله.

جلس «هتلر» يسترجع فترته العصيبة التي مرَّت، والتي بدأت منذ تعنيف أبيه له، ومعاملته الصارمة في شتى الأوقات، مسترجعًا كل ما جرى حتى هذه اللحظة، فلقد مرت أحداث عديدة لم يرَ فيها الراحة للحظة واحدة بعدما كثرت انتكاساته، مما استدعاه لإبدال حلمه الفني بحلم آخر عسكري، حيث كان يرى في نفسه أنه شخص غير عادي، ورغم فشله الدراسي كان مؤمنًا بذكائه وفطنته، فبعد أن توفي فجأة الوالد «ألويس هتلر» في الثالث من شهر يناير في عام ١٩٠٣، أصبح «أدولف» رجل المنزل، برغم أن عمره كان بالكاد قد وصل لثلاثة عشر عامًا فقط، وبعد مرور ثلاث سنوات لم يتحسن مستوى

«هتلر» الدراسي على الإطلاق، ليقرر ترك المدرسة الثانوية، وعدم إكمال دراسته دون الحصول على شهادة في سن السادسة عشرة.

عندما بلغ عمره ثمانية عشرة، قرر ترك أمه المُحبة، والسفر للعاصمة النمساوية؛ بسبب أمله في دخول المدرسة الفنية، والتي كان قد منعه أبوه عنها، فالآن «ألويس» قد مات، فما المانع إذًا؟ بالفعل انتقل «هتلر» للعيش في العاصمة «فيينا» الجميلة، كانت حياة هتلر في الحضر حياة بوهيمية، والبوهيمية هي ممارسة نمط حياة غير تقليدي، تتسم بعدد قليل من العلاقات طويلة الأمد التي تنطوي على النشاطات الموسيقية، أو الفنية، أو الأدبية، وفي هذه الحالة يمكن أن يكون البوهيمي متسكعًا، أو مغامرًا، أو حتى متشردًا، و«هتلر» عاش كل هذه الحالات، فبالفعل كان «هتلر» فنانًا بارعًا في الرسم، استدعاه فنه للعيش في تلك الحياة غير التقليدية، فكان يتأمل الحياة البرجوازية الجديدة التي لم يرَ مثلها طيلة صباه، ويتسكع في الطرقات، على دخل محدود من خلال منحة حكومية لإعانة الأيتام، ودعم مالي كانت والدته «كلارا» تقدمه له.. انبهر «هتلر» بزينة الحضر، وأمضى لياليه على المقاهي والنوادي والحانات، وخلال تسكعه انجذب شغفه هناك نحو الأوبرا، فأصبح يتردد عليها باستمرار، خصوصًا أوبرا «فانجر» التي كانت تمثل نسخة عن الماضي الجرماني الأسطوري (الجرمانية هي كل المناطق التي تنطق الألمانية)، فأفكار هذه الأوبرا كانت تروق لأفكار «هتلر» الأسطورية، حيث إنها كانت تحكي قصة بطلٍ أخذ على عاتقه إنقاذ قومه والنجاة بهم.

كان «هتلر» قد انتقل إلى فيينا منساقًا خلف طموحه الكبير، فكان يريد أن يكون رسامًا مشهورًا، تُباع لوحاته في المعارض الراقية.. بالفعل جهَّز نفسه للأمل المنشود، وهو التقديم في أكاديمية الفنون الجميلة في فيينا عاصمة النمسا وعاصمة السحر والجمال، قبل أن يأتي إلى ميونيخ ويتمرد على العيش فيها.. بالفعل علم بموعد التقديم، وسجل اسمه، وخضع للاختبارات عام ١٩٠٧، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد صُعق صاحب العينين الحالمتين عندما علم بخبر رفضه، كان هذا ليس تقليلًا من فنه، بل كان موهوبًا حقًا، لكنهم رفضوه؛ بسبب أن موهبته ينقصها رسم الأشخاص، فقد كان بارعًا فقط في رسم البنايات، ثم أخبروه أنه من الأفضل له توجيه قدراته إلى مجال الهندسة المعمارية.. رأيهم هذا كان سديدًا، فبالفعل «أدولف هتلر» كان قد سافر للحياة الحضرية لشغفه بالانفتاح الفني، ودراسة اللوحات الموجودة في صالة العرض في المتحف الذي كان يطلق عليه «Court Museum»، ومن ثم تقديم أعماله للجماهير، ولكن عندما وصل إليه، نادرًا ما كان يلتفت إلى أي شيء آخر سوى المتحف نفسه، فمنذ الصباح وحتى وقت متأخر من الليل، كان يتنقل بين المعروضات التي تجذب بعض انتباهه، ولكن الحقيقة الواضحة أن المباني كانت دائمًا هي التي تستولي على كامل انتباهه.

انصاع ذلك الشاب الطموح لنصيحة المختصين، واقتنع بالفعل أنه سيبدع في مجال الهندسة المعمارية، وخصوصًا أنه انبهر بها، اختار أن يسلك ذاك الطريق، ولكن بعد قليل اصطدم بواقعٍ أليم، وهو أنه ينقصه الإعداد الأكاديمي المناسب للالتحاق بمدرسة العمارة؛ وذلك لأن إهماله في إتمام دراسته في المدرسة الثانوية قد ألحق ضررًا واضحًا، فلا يمكن أن يلتحق بالمدرسة المعمارية التابعة للأكاديمية، دون أن يكون قد التحق قبلها بمدرسة البناء الخاصة بالدراسة الفنية، حيث كان الالتحاق بها يستلزم الحصول على شهادة المدرسة الثانوية، وفي هذه اللحظة بدا له أن تحقيق حلمه في دنيا الفن بات مستحيلًا بالفعل.

واستمرارًا للأحداث العصيبة انهار ذلك الشاب بعد سماع خبرٍ سيئٍ جديد، لعله الأسوأ على مدار حياته السابقة، ففي صباح يوم جديد وهو يوم ٢١ ديسمبر من عام ١٩٠٧، توجب عليه النزول فجأة إلى لينز، بعدما جاءه خبر مؤسف بتدهور حالة أمه الصحية، فهرول إلى بيته فزعًا، ووقف أمام سرير «كلارا» المسكينة مريضة سرطان الثدي.. كانت مشاعره تتألم، وهو يراها مستلقيةً تُنازع الوجع في بداية الاحتضار، إنها الأم الحبيبة التي أودعت بداخله رابطًا عاطفيًا عميقًا، فـ«هتلر» لم يكن قد وقف هكذا ليشاهد أمه وهي تموت فقط، بل كان يرى قلبه وهو يتقطع.. نظر إليه طبيب العائلة الدكتور «إدوارد بروخ» نظرةً يائسةً تعنى أنه ليس هناك أمل، فغرقت عينى «أدولف» بالدموع.. قال الدكتور «إدوارد» لاحقًا إنه لم يرَ شخصًا غارقًا في الحزن طيلة حياته كـ«هتلر» في هذه اللحظة.. ماتت «كلارا» وعشش الحزن في قلب الفتى، رحلت عن عمر يناهز سبعة وأربعين عامًا.. حزن «أدولف» حزنًا شديدًا على فراقها، وغُطّت حياته بالسواد دون أن يُترك له ثُقب للنور يداعبه منه الأمل، فلقد مات رمز الحب عند «هتلر»، فبالكاد لم يحب «هتلر» شخصًا في حياته أكثر من أمه، كان هذا سببًا شكّل في نفس «هتلر» عدم التصالح مع النكسات عندما يواجه الخسارة.

بأمرٍ من إحدى المحاكم في «لينز»، أعطى «هتلر» نصيبه من الإعانة التي تمنحها الحكومة للأيتام لشقيقته «باولا»، فزاد الأمر تعقيدًا.. وعلى استحياء بدأ يبتسم له الحظ فيما بعد عندما بلغ الحادية والعشرين من عمره، حين وصله خبر جيد مفاده أنه ورث أموالًا عن واحدة من عماته، وبالمال تجدد حلمه من جديد، ليحاول إثبات نفسه كفنانٍ مرةً أخرى، مانحًا نفسه فرصةً جديدةً في التجربة، وبدأ يُدخل على رسمه أسلوبًا جديدًا لم يعهده من قبل، حيث بدأ في نسخ المناظر الطبيعية الموجودة على البطاقات البريدية، وبيع لوحاته للتجار والسائحين في فيينا، وبعدما تدفق المعجبون على أعماله تجدد بداخله الأمل، وبدأ في الكفاح من جديد، ثم ساقه طموحه مجددًا إلى التقديم في أكاديمية الفنون مرةً أخرى عام ١٩٠٩، ولكن للأسف تم رفضه للمرة

الثانية، في هذه اللحظة كانت صدمته صدمتين، الأولى أنه فشل في التقديم، والثانية أن ماله كله قد نفد، لتتحول حياة الفنان من سوءٍ إلى أسوأ، فلم يكن معه مال ليأكل أو ليسكن، وأصبح مشردًا في الشارع، ليعيش «هتلر» بعد ذلك في مأوى للمشردين.. مرّ عام أو أقل على هذا الوضع المتدني، فلقد عاش الشاب حياة المساكين، ثم ارتقى به الوضع قليلًا حينما استقر في منزلٍ يسكن فيه مجموعة من العمال الفقراء.

اندمج هتلر في المجتمع الفييني بكل طبقاته، وكانت أكبر طبقة لفتت انتباهه هي الجالية اليهودية الكبيرة، التي تشتمل على اليهود الأرثوذكس الذين فروا من المذابح المنظمة والبشعة التي نكّلت بهم في الإمبراطورية الروسية، كان «هتلر» دائمًا ما يشمئزّ من رؤيتهم، فطالما تبادل أطراف الحديث مع صديقه «أوجست كوبزيك» عندما كانا طفلين يلعبان حول مسكنهما في لينز عن مدى كرههم لليهود، والآن ترك «هتلر» لينز، وجاء هنا، فوجدهم بكثرة، كان هذا يُغضبه دائمًا، فهم موجودون بكثافة عالية في كل مكان، في الشارع، في المقهى، في المتجر، في السوق.. لم يكن اليهود حينها غير مرغوبٍ بهم من قبل «هتلر» وحسب، بل من فئة أخرى كبيرة في فيينا، فكانت فيينا منصةً غير منضبطة لانتشار روح التحيز الديني، والعنصرية المفرطة التي ظهرت في القرن التاسع عشر في عموم القارة العجوز.

كان «هتلر» وقتها رغم عدم حصوله على شهادة علمية مواظبًا على القراءة، وكان متجولًا في كتابات «لانز فون» واضع النظريات الحادة للعداء مع الجنس السامي، والسامية باختصار هي نظرية ابتدعها بعض المتطرفين من اليهود، تُعظِّم وتُمجِّد من هم من نسل سلالة «سام بن نوح» عليه السلام فقط، وفي معتقدهم المحرَّف قسموا الأجناس البشرية إلى ثلاثة أقسام؛ وهم: الجنس السامي أحفاد «سام بن نوح» بلونهم المتوسط لا أبيض ولا أسود، ويُقصد بهم الشعوب التي تقيم في شبه الجزيرة العربية وفي بلاد النهرين وسوريا ولبنان وفلسطين، والجنس الحامي أحفاد «حام بن نوح» بلونهم الأسود، ويسكنون القارة الإفريقية، والجنس اليافثي أحفاد «يافث بن نوح» باللونين الأبيض والأصفر، وهم أصل الشعوب الهندوأوروبية الساكنة في منطقتي الشرق الأقصى وأجزاء من الشرق الأدنى القديم وآسيا الصغرى والشعوب الأوروبية.. بعدما أخرج اليهود شعوب كنعان من أسرة الساميين، وضمُّوهم إلى الحاميين كنوع من الانتقام منهم، قصروا لفظ الجنس السامي على أنفسهم فقط، رغم أن سام نفسه له أحفاد متفرقون في كل أنحاء المنطقة، فلماذا لم يُصنِّفوا كل أحفاد سام على أنهم ساميون؟! بالنسبة لهم لا ساميَّ إلا إن كان يهوديًّا، في تزويرٍ واضحٍ للحقائق.

لم يقرأ «هتلر» في معاداة السامية فحسب، بل توسع فكره ليصل إلى عالم السياسة، وانبهر بشخصية عمدة فيينا وقتها «كارل لويجر» ذاك اليميني الذي أسس الحزب الاشتراكي المسيحي، وكانت آراؤه هي الأهم بالنسبة لـ«هتلر»، حيث انبهر هتلر بطريقة قراءته وتحليله للأشخاص، كذلك اهتم الشاب بآراء الفنانين مثل الموسيقار «ريتشارد فاجنر» الذي انبهر بأعماله الأوبرالية التي ذكرناها، والفنان «جورج ريتر فون» أحد زعماء حركة القومية الألمانية التي عُرِفت باسم «بعيدًا عن روما»، فكانت أفكار «جورج» تروق لـ«هتلر»؛ بسبب إيمانه بمبادئ تلك الحركة، والتي تدعو لتوحيد كل الناطقين باللغة الألمانية في دولةٍ واحدة.. تأثر «هتلر» بمعاداة السامية بشكلٍ كبير، ولكن هناك تناقض واضح في شخصيته، فبرغم معاداته التي نشأت منذ الصغر على حد زعمه، كان له أصدقاء يهود، وكان غالبًا ما يحل ضيفًا على العشاء في منزل أحد النبلاء اليهود! كما أنه كان على مقدرة هائلة من التفاعل والتعامل مع زبائنه اليهود الذين توافدوا على لوحاته أكثر من غيرهم.. كان يعاملهم في كل مكانٍ برغم قراءته لكتابات الراهب الألماني وأستاذ اللاهوت «مارتن لوثر»، والتي كان عنوانها «عن اليهود وأكاذيبهم»، كان يرى في «مارتن لوثر» المحارب الهمام والمصلح العظيم، مثله مثل «فاجنر» و«فريدريك الكبير» بالنسبة له.

أصبح لهذا الشاب رأي سياسي خاص به، وأصبح له نظرة تحليلية للأوضاع، والآن أكثر ما يُراود فكره هو أن اليهود هم ألد أعداء الجنس الآري، والآريون باختصار هم شعوب شرق أوروبا الأصليون، وهم أصحاب البشرة البيضاء، وقد عُرِفوا قديمًا بـ «النوريكيين» و«التيتوتيكيين».. أصبح عنده قناعةً تامةً بأن اليهود هم سبب الأزمة الاقتصادية والسياسية التي حلت على النمسا، وبعد تحليله الخاص للصورة الجديدة التي تزعمتها الحركات الاشتراكية والبلشفية وجد أن من تزعم هذه الاحتجاجات قادة يهود، فاعتبرها نوعًا من أنواع الحركات اليهودية، وأنتج لنفسه فكرًا جديدًا يدمج بين معاداة السامية وبين معاداة الماركسية.. وكان لـ«هتلر» نظرة خاصة للشارع السياسي النمساوي، عنوانها عدم صلاحية البرلمان، فلم يعجبه آنذاك أن النظام البرلماني الديمقراطي مكون من جنسياتٍ متعددة، وأنه هش ورخو وغير مصلح، رغم أن بعض نوابه شخصيات رأى «هتلر» فيهم القدوة السياسية.

قرر «هتلر» ترك فيينا، بل وترك النمسا كلها، وبعدما تسلّم الجزء الأخير من ممتلكات والده في مايو من عام ١٩١٣ جاء إلى ميونيخ، حيث كان يحلم دائمًا بالحياة في مدينة ألمانية حقيقية، وبعدما تمنى الهروب من الخدمة العسكرية في النمسا التي لم تقنعه سياسيًا، تمكن من الوصول إلى هنا، ولكن تم القبض عليه وترحيله إلى النمسا مجددًا، وهناك برزت التماساته للقاضي الذي عفا عنه، ثم خضع للكشف الطبي، وجاء تقرير الجهة العسكرية بعدم قبوله، فألقوا صراحه، وسمحوا له بالقدوم إلى هنا مجددًا، ثم ظهر له هدفٌ جديد،

وهو التطوع في الخدمة العسكرية هنا، فكتب التماسًا بذلك للملك «لودفيج الثالث» نفسه، وهو الآن في انتظار الرد.

وبعد ساعة من الانتظار، فتح الموظف شباك الخدمة، ثم رتّب أوراقه، وراجع الخطابات العسكرية الجديدة، وبعدما وجد اسم «أدولف ألويس هتلر»، ناداه وأخبره بأنه مقبولٌ للتطوع، ووجب عليه تسليم نفسه.. فقد قبله الملك رغم نحافة جسمه؛ بسبب حاجة الجيش للجنود، فلقد بدأت بشائر الحرب العالمية الأولى، لتشكّل هذه الساعة تغييرًا جذريًا في حياة «هتلر» القادمة، والتي كانت هي ساعة التحول من الحياة الفنية إلى الحياة العسكرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٣)
ساعة العمى

تدقُّ عقارب الساعة لتشير إلى العاشرة من صباح يوم ١١ نوفمبر ١٩١٨، حيث يرقد «هتلر» الآن في مستشفى «بازواك» بألمانيا، ولا ترى عيناه غير السواد القاتم، فلقد فقد بصره.. نعم أصابه العمى.. كان هذا بعدما أصيب منذ سبعة وعشرين يومًا أي يوم ١٥ أكتوبر من عام ١٩١٨ للمرة الثانية في أحداث الحرب العالمية الأولى إثر هجوم بريطاني بغاز الخردل، وغاز الخردل كان غازًا سامًّا يُعتبر من الأسلحة المروعة في ميدان الحرب العالمية الأولى.. إصابة «هتلر» بالعمى قد تكون نتيجةً اضطرابٍ تحولي أو كما شخَّصوه في ذلك الوقت باسم «هيستريا»، وأعراضها العمى المؤقت والارتعاش الدائم الذي يوحي لك بأن المصاب يرقص رقصةً صاخبةً وسريعةً جدًا بجميع أعضاء جسده، مما يجعلك لا تتحمل المشهد وترفضه، ولكن الآن يجلس «هتلر» هادئًا نوعًا ما بعد مُضي قرابة شهر تلقى خلاله العلاج بالمستشفى، في هذه اللحظة العصيبة قرر «هتلر» عدم رغبته في السياسة، فالآن هو يتمنى الشفاء والإبصار فقط، فلقد نجا بأعجوبة من الموت في المعركة هناك، ومن المرض في المستشفى هنا، فحين أوصلوه إلى المستشفى كانت حالته خطيرة جدًا، وشخَّص بعض الأطباء حالته بأنه مصاب بالجنون، والبعض الآخر قال إن دماغه قد تعرض لإصابةٍ سببت له العمى المؤقت والمرض العقلي.

جلس «هتلر» موجوعًا هذه المرة، رغم أنها لم تكن المرة الأولى لإصابته، فلقد أصيب من قبل في فخذه في عام ١٩١٦ أثناء «معركة السوم»، ثم تم علاجه، وعاد للجبهة مرةً أخرى في مارس من عام ١٩١٧، وتسلم شارة الجرحى في وقت لاحق من نفس العام.. كان «هتلر» يُقاتل ببسالة كأنه على رغبةٍ تامةٍ لفهم الحياة العسكرية، وأن الحرب هي أكبر باب للخبرة السياسية.. أصبح واضحًا على رشاقته سيطرة إعجابه وحبه لألمانيا خلال هذه الفترة أكثر من الماضي، وبسبب الحرب أصبح وطنيًّا متحمسًا أشد الحماس للدفاع عن ألمانيا، بالرغم من أنه لم يصبح مواطنًا ألمانيًّا حتى ذلك الوقت، وبعد هذه النجاحات التي حققها هذا المقاتل انتهى به الحال بهذا الشكل الآن بعدما فقد بصره.

انتهى به الحال هكذا بعد هذه السنوات الأربعة العصيبة، إنها سنوات الحرب، الحرب العالمية الأولى العظمى، والتي بدأت في أوروبا منذ يوم ٢٨ يوليو ١٩١٤ حتى هذا اليوم الذي يجلس فيه الآن، ١١ نوفمبر ١٩١٨.. جلس «هتلر» مستعيدًا ذكرياته في تلك الحرب المميتة، والتي جمعت أكثر من سبعين مليون عسكري، قُتل منهم ما بين تسعة وعشرة ملايين مقاتل، أما المدنيون

العاديون فقُتل منهم أكثر من سبعة ملايين من الأبرياء، بالإضافة إلى مليونين على الأقل ماتوا بسبب الأمراض، وستة ملايين في عداد المفقودين.. إنها الحرب القذرة التي غطتها رائحة جرائم الإبادة الجماعية والإنفلونزا الإسبانية، واللتان تسببا في مقتل ما بين ٥٠ و١٠٠ مليون شخص في جميع أنحاء العالم.. إنها أعنف الصراعات في التاريخ، والتي جمعت جميع القوى العظمى الاقتصادية في العالم في تحالفين متعارضين ومتعادِيَيْن، الفريق الأول كان قوات الحلفاء أو الوفاق الثلاثي (المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا - والجمهورية الفرنسية الثالثة - والإمبراطورية الروسية) ضد الفريق الثاني دول المركز (الإمبراطورية الألمانية - والإمبراطورية النمساوية المجرية - والدولة العثمانية - ومملكة بلغاريا).. كان هؤلاء هم دول الصراع الأساسي، ولكن عند الاشتباك الفعلي تم إعادة تنظيم هذه التحالفات وتوسيعها بدخول المزيد من الدول للحرب، مثل إيطاليا واليابان والولايات المتحدة الذين انضموا إلى الحلفاء بعد انضمام الدولة العثمانية ومملكة بلغاريا لدول المركز مباشرةً.

كانت دوافع وأسباب تلك الحرب ظهرت في رعونة حكام أوروبا المستهترين من قبل ميلاد «هتلر» نفسه، بل منذ عام ١٨١٥، حينما ظهرت التحالفات السرية بين هؤلاء الحكام على حساب بعضهم الآخر؛ لفرض النفوذ الاستعماري على المستعمرات الاستراتيجية، لعل أشهرهم «التحالف المقدس» بين (بروسيا - وروسيا - والنمسا)، وبعد إتمامه بسنوات، وبحلول أكتوبر من عام ١٨٧٣ قام المستشار الألماني «أوتو فون بسمارك» بالتفاوض مع (الإمبراطورية النمساوية المجرية والإمبراطورية الروسية)، ولكن سرعان ما فشل هذا الاتفاق؛ بسبب خلاف الإمبراطورية النمساوية المجرية والإمبراطورية الروسية؛ بسبب اصطدام أحلامهما التوسعية كقوى عظمى، والخلاف حول سياسة البلقان التي طمع كلٌّ منهما في ضمِّها، حيث كانت مسرحًا لاستعراض كل إمبراطورية منهم لقوتها؛ بسبب ضعف سلطة الدولة العثمانية وقتها، مما أدى إلى خصامهما وتحالف (الإمبراطورية النمساوية المجرية – والألمانية) معًا دون الروسية عام ١٨٧٩ في تحالفٍ جديد أطلقوا عليه «التحالف المزدوج»، من أجل ردع الزحف والنفوذ الروسي وقتها في منطقة البلقان.. ثم في عام ١٨٨٢ انضمت إليهما إيطاليا، وأصبح بذلك تحالفًا ثلاثيًا.. كان «بسمارك» وقتها يحاول كسب روسيا التي تحدُّه من الشرق؛ لأن العداء مع فرنسا التي تحده من الغرب بدا محتملًا، فكان يود أن يتقي شر القتال في الشرق والغرب معًا، ولكنه فشل في ذلك؛ بسبب تقاعده، وعندما تُوّج القيصر «فيلهلم الثاني» على عرش ألمانيا لم ينتبه لهذا الأمر، وازداد الأمر سوءًا عندما أخفق في تجديد معاهدة إعادة التأمين مع روسيا في عام ١٨٩٠، وبسبب عدم ارتباط روسيا بأي معاهدات سلام أو تأمين مع ألمانيا، بعد

سنتين فقط انضمت لجبهة التحالف الفرنسي ضد ألمانيا، وفي عام ١٩٠٤ وقعت بريطانيا عدة اتفاقيات من بينها «الحلف الودي» مع فرنسا، وفي عام ١٩٠٧ وقعت بريطانيا وروسيا «الحلف الأنجلو الروسي»، وأصبح يُعرف بالوفاق الثلاثي، لتصبح روسيًا رسميًا عدوًا لألمانيا بدلًا من أن تكون حليفًا.

والجدير بالذكر أن من أهم أسباب التنافس الاستعماري، ظهور «الثورة الصناعية الكبرى» في أوروبا في القرن التاسع عشر، وبسبب هذه الثورة زاد طموح السياسيين في السيطرة على الدول التي يمكنها شراء منتجاتهم الصناعية بالإجبار، برغم نهبهم المواد الخام والمواد الأولية من تلك الدول من الأصل! على كل حال هذا كان تفكيرهم التنافسي. قبل الحرب ظهر ما يُعرف بسباق التسلح، حيث نظرت كل قوى منهم إلى أسطولها البحري في محاولة واضحة للتطوير الملحوظ، وبدأت المنافسة بين البحرية الألمانية وبين البحرية الملكية البريطانية في سيادة ركوب البحر، ثم ترتب على ذلك سعي غالبية دول أوروبا إلى بناء السفن الرئيسية، وبعد وقتٍ قليل توسعت الإمبراطورية البريطانية؛ بسبب تميزها على منافستها الألمانية، ثم على هذا النهج توسع سباق التسلح بجميع أنحاء أوروبا، وشُيدت أول قاعدة صناعية لإنتاج المعدات والأسلحة اللازمة لصراع عموم أوروبا، وبدأت تجارة السلاح تشهد انتعاشًا ملحوظًا بين أعوام ١٩٠٨ و١٩١٣، وتهافتت عليه القوى الأوروبية، ليصل الإنفاق العسكري وقتها لنسبة ٥٠٪ من إجمالي دخل كل دولة عظمى.

كانت الحرب بينهم وشيكة، الكل متأهبٌ على قدمٍ وساق، كلهم يريدونها حربًا، ولكنهم في انتظار من يبادر، في انتظار الشرارة.. وانطلقت الشرارة في يوم ٢٨ يونيو ١٩١٤، حينما قام القومي الصربي-بوسني اليوغسلافي «غافريلو برينسيب» باغتيال ولي عهد النمسا (الدولة العظمى صاحبة الثقل، والتي كانت تنافس روسيا على التوسع كما ذكرنا) الأرشيدوق «فرانز فرديناند» مع زوجته في «سراييفو» بصربيا، لتظهر أزمة سياسية على الساحة الأوروبية سُميت بـ«أزمة يوليو»، وبعدها مباشرة أصدرت إمبراطورية النمسا والمجر إنذارًا نهائيًّا إلى صربيا؛ بسبب نيَّتها في القصاص، ليدخل كل طرفٍ في هذه المناوشات محاولًا الدفاع عن حلفائه ومستعمراته، وانتشرت حالة الاستنفار القصوى بعدما أصدرت الحكومة الروسية في ٢٥ يوليو أوامر لـ«فترة التحضير للحرب»، واشتعل الأمر أكثر حينما بادرت النمسا بقصف العاصمة الصربية «بلغراد» يوم ٢٨ يوليو كعقاب لها على الحادث، وانتقامًا لدماء ولي عهدهم، فجاء الرد من حليف صربيا، وهي الإمبراطورية الروسية بإعلانها عن التعبئة العسكرية العامة مساء ٣٠ يوليو دفاعًا عن جارتها صربيا، ثم في اليوم التالي قامت ألمانيا بإعلان التعبئة العامة دفاعًا عن حليفتها النمسا من الوحش الروسي، ثم أرسلت إنذارًا نهائيًّا لروسيا بالتوقف في

غضون ١٢ ساعة عن تعبئتها، ولكن لم تمتثل روسيا للإنذار، فأعلنت ألمانيا الحرب في ١ أغسطس، وانضمت إليها النمسا بإعلانٍ رسمي، ثم تفاعلت فرنسا، وأمرت بالتعبئة الكاملة لدعم روسيا في ٢ أغسطس، وكان سبب ذلك ليس التحالف مع روسيا فحسب، ولكن الغرض استعادة مقاطعتي «الألزاس» و«اللورين» اللتين تنازلت عنهما بعد الحرب «الفرنسية – البروسية» ١٨٧٠-١٨٧١، والقلق من قوة ألمانيا المتزايدة.

كان «هتلر» ورفاقه في الجيش الألماني ملتزمون بتعليمات قاداتهم التي تلخصت في الحرب على الجبهتين، الغربية حيث ضرب فرنسا، ثم الشرقية حيث ضرب روسيا ونصّت التعليمات على تركيز الجزء الأكبر من الجيش في الغرب؛ للقضاء على فرنسا ودكها في غضون أربعة أسابيع فقط، وبعد الانتصار يتم توجيه الدفة ناحية الشرق لتتوجه القوات نحو ضرب روسيا؛ قبل أن تتمكن من تعبئة جيشها بالكامل؛ والتي عُرفت لاحقًا بخطة «شليفن»، وتنفيذًا لتلك الخطة التي تبدو متهورة كان يتطلب من ألمانيا المرور الحر عبر بلجيكا، حيث لا يوجد حل آخر دون ذلك؛ بسبب ضيق الوقت وتحقيق انتصار سريع على فرنسا، وفي ٢ أغسطس طلبت ألمانيا من بلجيكا السماح بالمرور عبر أراضيها، ولكن تم رفض الطلب، وفي اليوم التالي ٣ أغسطس لم تهتم ألمانيا برفض بلجيكا، ودخلت القوات الألمانية داخل النفوذ البلجيكي في وقتٍ مبكرٍ من الصباح، وأعلنت الحرب على فرنسا في نفس اليوم من هناك، فاستنجدت الحكومة البلجيكية ببريطانيا بموجب «معاهدة لندن» ١٨٣٩، فاستجابت بريطانيا وقررت التزامها بالمعاهدة، وأعلنت الحرب على ألمانيا في اليوم التالي ٤ أغسطس؛ دفاعًا عن حليفتها بلجيكا، وبعد أسبوع وفي يوم ١٢ أغسطس أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على النمسا حليفة ألمانيا، وزادت الأحداث تعقيدًا بعد مرور عشرة أيام، وفي يوم ٢٣ أغسطس، بعدما انضمت الإمبراطورية اليابانية إلى قوات الحلفاء بقيادة روسيا وفرنسا، كفكرة شيطانية منها لمحاولة توسيع نفوذها والاستيلاء على الممتلكات الألمانية في الصين ومنطقة المحيط الهادئ، أما صربيا فقد حققت انتصارًا ملحوظًا على النمسا في معركة «سير» يوم ٢٤ أغسطس، لتميل كفة الألمان ورفاقهم ناحية الانحدار، خصوصًا بعد الأداء الألماني السيئ، وتوقف تقدمهم إلى فرنسا في معركة «مارن»، وبحلول نهاية عام ١٩١٤ استقرت الجبهة الغربية ناحية فرنسا على معركة استنزاف، ومستقبلًا عُرفت فيها سياسة حفر الخنادق، ليُطلق عليها فيما بعد «حرب الخنادق» عام ١٩١٧.

أما الجبهة الشرقية التي تشهد القتال مع روسيا، والتي ظنّ الألمان أنها ستستغرق زمنًا طويلًا في التعبئة، كانت قد بادرت بالهجوم للدفاع عن حليفتها فرنسا، فقد دخل جيشان روسيان شرق بروسيا حيث النفوذ الألماني في يوم

١٧ أغسطس، لتنفيذ اتفاقهم مع فرنسا الذي تم عام ١٩١٢، والذي قضى بمهاجمة ألمانيا خلال ١٥ يومًا من التعبئة.. أربك هذا التدخل الألمان كثيرًا، مما جعل خطة «شليفن» في طريقها للهاوية، فبالفعل تم إجبار الألمان على تحويل قواتهم من الغرب إلى الشرق وصد محاولة الغزو الروسي.. استطاع الألمان تحويل القوات بسرعة في مشهدٍ شبه إعجازي، وبقوة وصلابة نجح الألمان في صد هذا الغزو بانتصارات في «تانينبرغ» وبحيرات «ماسوريان»، ولكن بالرغم من ذلك لم يستطع الألمان نجدة مقاطعة «غاليسيا الشرقية» في النمسا والمجر، لتقع تحت الغزو الروسي.. ازداد الأمر عنفًا في نوفمبر من عام ١٩١٤ بعد إعلان الإمبراطورية العثمانية انضمامها للحرب بجوار حلفائها دول المركز، لتمتد الحرب في أماكن أخرى من أركان المعمورة، وفتحت جبهات في القوقاز وبلاد الرافدين وشبه جزيرة سيناء، ثم بحلول عام ١٩١٥ زادت الأحداث تصاعدًا بعدما انضمَّت إيطاليا إلى دول الحلفاء، وانضمَّت بلغاريا إلى دول المركز، ثم بعد شهور انضمَّت رومانيا إلى قوات الحلفاء.

مالت كفة النصر ناحية الألمان الذين يقاتلون ببسالة، بعدما أصبحت المقاومة العسكرية الروسية على حافة الانهيار، والألمان متقدمون بشكلٍ مستميت.. بعد إخفاقات الحلفاء التي بدت واضحة، وكمحاولة واضحة لقطع أذرع الدعم الألماني، فكرت بريطانيا في فكرة خبيثة، الغرض منها إضعاف العثمانيين الذين انضمُّوا للعدو، حيث بادرت بمساعدة الثورة العربية الكبرى ضد الحكم العثماني؛ تمهيدًا لخيانة الثوار، ووضع اتفاقية سرية عُرفت بـ«سايكس بيكو»، والتي تنص على تقسيم الدول العربية المتمردة على الحكم العثماني، وضمِّها سرًا تحت سيطرتها وسيطرة حلفائها، فيما سيُعرف لاحقًا بالانتداب، وليس هذا كل شيء، بل قدَّمت «وعد بلفور» الذي وعد اليهود بإقامة دولتهم المزعومة في فلسطين.. كانت هذه القشة التي قصمت ظهر العثمانيين، ومن ثم الألمان الذين فقدوا أهم حلفائهم.

ضعف موقف الألمان ورفاقهم بعد خسارة الحليف العثماني، واتفقوا على تغيير استراتيجيتهم وتوجههم لامتلاك البحر، فانتقلت ساحة المعركة من البر للبحر، وكانت الأوضاع في البحر ملتهبة، وأي سفينة تمر تُدمَّر بشكل جنوني من قبل الألمان حتى وإن كانت محايدة، فربما تكون محملة بإمدادات لبريطانيا في السر، مما ألحق الضرر بسبع سفن تجارية أمريكية بواسطة غواصات ألمانية يُقال إنهم كانوا يمرون صدفة، وتم الإعلان عن أن ضربهم لم يكن مقصودًا، ولكن لم تصغِ أمريكا لهذا التقرير بعدما كشفت عن أن الألمان كانوا يحاولون تحريض المكسيك على شنِّ حربٍ عليهم، فأعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا في ٦ إبريل ١٩١٧.. وفي هذه الأثناء وقبل التدخل الأمريكي سيطر الألمان على الجبهة الشرقية الروسية؛ بسبب انشغال روسيا بأحداثها الداخلية، ولعل أهمها «الثورة البلشفية» ١٩١٧ ضد القيصر «نيكولاس

الثاني» بقيادة الشيوعي «لينين»، فقررت الانسحاب من الجبهة.. ثم في إبريل ١٩١٨ وقّعت روسيا على معاهدة «برست ليتوفسك» مع القوى المركزية لتخرج من الحرب، مما سمح للألمان بنقل أعدادٍ كبيرة من قواتهم في الشرق إلى الجبهة الغربية، في محاولة لترتيب الصف قبل الضرب الأمريكي.. كان الألمان في تقدمٍ ونصرٍ ملحوظ حتى حلول مارس ١٩١٨، ولكن الحلفاء بعدها احتشدوا بمساعدة أمريكا الوافد الجديد، ودفعوهم مرةً أخرى إلى التراجع في هجوم المائة يوم، وبعدما عجز الجيش الألماني على الصمود، وطلبت قادته الهدنة في ٢٨ سبتمبر، وفي ٤ نوفمبر ١٩١٨ وافقت الإمبراطورية النمساوية المجرية على هدنة «فيلا غوستي» وانسحبت، فانهار الجيش الألماني، ثم انهار الشارع الألماني نفسه بعد حدوث ثورة في الداخل، ليتنحى القيصر «فيلهلم» عن العرش الألماني في ٩ نوفمبر، ثم زاد الوضع اضطرابًا بعدما وصلت أخبار مفادها أن ألمانيا ستوقع على هدنة الاستسلام اليوم ١١ نوفمبر ١٩١٨، في تمام الساعة الحادية عشرة، والتي بدأت مراسمها الآن.

لم يكن «هتلر» قد تألم بسبب مرضه في هذه الساعة فقط، لكنه يتألم لقرابة شهر.. ولكن ألم هذه الساعة لا يشبه ألم كل الساعات الماضية، فمع دقات الساعة الحادية عشرة وصلته أخبار باستسلام الجيش وتوقيعه اتفاقية استسلامٍ مُهينة.. كان هذا سبب بكائه الشديد ودخوله حالة تشبه الكآبة، بعدما أصابته صدمة كبرى عند تلقيه الخبر، إنها ساعة مؤلمة عليه وعلى كل الألمان، سيصبح هذا التاريخ في ذاكرته من الآن، فـ«هتلر» لم يعتبر أن ساعة العمى هي ساعة فقدانه لبصره، ولكنها هي ساعة الاستسلام، ليتراجع الآن عن قراره بعدم الخوض في السياسية، ويقرر أن يستمر، بعدما اقتنع في هذه الساعة بأن سبب وجوده في الحياة هو «إنقاذ ألمانيا»، لتُشكّل هذه الساعة نسبة تحول كبير في حياته القادمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٤)
ساعة الذل

اليوم هو ١٠ يناير ١٩٢٠، وقد مرَّ أكثر من سنة على الهزيمة والاستسلام، والجنود الألمان الناجون عيونهم في الأرض، مثلهم مثل «أدولف» الذي يجلس الآن في عنبره العسكري في تمام الساعة العاشرة صباحًا في طقسٍ من طقوس انتكاسةٍ جديدة، فكلما أراد أن يتأقلم مع معاناة ظهرت له معاناةً جديدة، فاليوم ظهر شيء جديد محبِط، حيث لم تتوقف الإحباطات منذ توقيع الاستسلام، فبالفعل عاد إليه بصره بعد العمى المؤقت، لكن لم يرتدّ لألمانيا هي الأخرى بصرها، ففي هذه الساعة سيتم تعديل وإدخال بند مهين على المعاهدة الأكثر خزيًا في نظره ونظر الألمان، إنها «معاهدة فرساي» التي تمت منذ قرابة ستة أشهر في يوم ٢٨ يونيو ١٩١٩، والتي سُميت بذلك؛ لأنها تمت في قصر فرساي الفرنسي.. لقد اتضح للمنتصرين أن هناك أمرًا مذلًّا جديد للألمان يجب إدخاله على معاهدة فرساي، ليقوموا بتعديلها اليوم وفي هذه الساعة.

جلس يتذكر ما مضى منذ اكتمال شفائه وعودته للخدمة في ميونيخ، جلس ونفسه منكسرة ومحبطة، يشعر بمرارة وذل الهزيمة، فهذا لم يكن في تصوره منذ التحاقه بالجيش قبل خمس سنوات، ومنذ أن خدم في فرنسا وبلجيكا مع الفوج البافاري الاحتياطي السادس عشر؛ حينما شعر هناك بتقدمه وتطوره، فبراعته وبسالته كانت سببًا في تقلده رتبة «جيفريتر» وهي تناظر رتبة مساعد عريف في الجيش البريطاني، وجندي من الدرجة الأولى في الجيش الأمريكي.. كان خلال سنوات الحرب العالمية أسند إلى «هتلر» مهمة خطرة جدًا، فقد كان بمثابة رسول بين فرق وجيوش ألمانيا على الجبهة الغربية التي تقاتل فرنسا، كان ينقل الرسائل من وإلى الوحدات خلف الخطوط الأمامية، وبرغم صعوبة هذا العمل وتهوره والتعرض الدائم لنيران العدو عند عبوره الخنادق والممرات أحبه «هتلر»، ولكن طالما عانى من نظرات بعض زملائه المتعصبين، الذين رأوا أن هذا العمل وظيفة سخيفة للخنازير التي لا تتحمل المسئولية على الجبهة مثلهم.. شارك «هتلر» في معركة «يبريس الأولى» والتي وقعت في أكتوبر من عام ١٩١٤، والتي شهدت مقتل حوالي أربعين ألف جندي خلال عشرين يوما فقط، وهذا الرقم المفزع كان يمثل ما يقرب من نصف الجيش المشارك فيها.. نجا «هتلر» منها، وكذلك نجا من معارك أخرى كمعركة «السوم» ومعركة «آراس» ومعركة «باسكيندايلي»، وبسبب فقدان «هتلر» لعدد كبير من زملاء كتيبته، حيث

وصل عددها إلى اثنين وأربعين جنديًا، بعدما كانت مائتين وخمسين، اتجه إلى الانعزال خلال السنوات الباقية للحرب.

مرَّ عام وأربعون يومًا على هذه الذكريات حتى الآن، ولم تتحسن حالة «هتلر» النفسية منذ خروجه من المشفى، كان عامًا أسود، تجرع فيه مرارة الهزيمة مثله مثل زملائه، لم يهدأ الشارع من يومها، مظاهرات واضطرابات، فلقد خرج من حرب على الجبهة ليشاهد حرب في الداخل، فالولايات الألمانية في طريقها للخراب الذي حلت روائحه.. أما حياة «هتلر» نفسه فليس فيها جديد يسعده، فلقد عاد للجيش؛ لكي يتمسك بحلمه الجديد، أضف على ذلك سببًا آخر، وهو عدم حصوله على مأوى، خصوصًا في ظل هذه الأوضاع السيئة.. جلس «هتلر» ببزته العسكرية يتذكر كل ما دار في سنوات القتال، لقد غُطت حياته بالسواد مجددًا، ففي الماضي القريب كان يعتقد أن الحظ قد ابتسم له، فكانت قدماه قد وجدتا أرضًا صلبة بعدما كانت حياته كلها دون معنى، فلقد تزينت الحياة في عينيه بعدما تقلد وسام الصليب الحديدي من الدرجة الثانية في عام ١٩١٤، ولقد تقلد أيضًا وسام الصليب الحديدي من الدرجة الأولى في ١٩١٨ أي عند نهاية الحرب تقريبًا؛ بسبب إرساله رسالة مهمة تحت النار غيّرت مصير الاشتباك، ليشعر وقتها بأنه صنع شيئًا مهما.

نظر «هتلر» الآن إلى هذا الوسام الحديدي الذي سيرتديه بفخر لطيلة حياته، وتذكر كيف كان فخورًا به؛ لأن هذا التكريم نادرًا ما يحصل عليه عسكري من رتبة جيفريتر، لقد أجلى صدره بعدما كان مستاءً؛ بسبب عدم ترقيته لرتبة «أونتيروفيزير» وهي رتبة العريف، برر له بعض زملاء وحدته العسكرية عدم ترقيته بسبب كونه يفتقر إلى المهارات القيادية، ولكن اعتقد «هتلر» والبعض الآخر أن هذا بسبب عدم كونه ألمانيًّا.. على كل حال خدم «هتلر» مع الجيش بضراوة، وبرغم أن تكليفاته العسكرية دائمًا ما كانت خطرة، وجعلته قاب قوسين من الموت، إلا أنها خدمت شغفه الفني، حيث سمحت له بمتابعة إنتاج أعماله الفنية خلال سنوات الحرب، وعلى إثر ذلك قام برسم الصور الكاريكاتيرية والرسومات التعليمية لإحدى الصحف التابعة للجيش وقتها، في دعاية حكومية لدعم المقاتلين.

الآن مرّ أكثر من عام على الاستسلام، ولم يزد الوضع غير سوء، كان الوضع كله منذ بدايته لا يعجب «هتلر»، كان يتمنى ألا يستسلم الجيش من الأساس، تمنى لو بيده زمام الأمور، فلقد رأى أن الاستسلام عملٌ مُخزٍ، ودائمًا ما كان يصرخ في المستشفى قائلًا: كيف هذا والجيش الألماني كانَ مسيطرًا على أراضٍ للعدو؟ وفي الأيام الأخيرة من علاجه كان يحاول «هتلر» تأكيد فكرة أن القواتَ البريطانية تعمَّدت ضربه بالغاز، لكن الأطباء اعتبروا هذا الكلام مجرد هراء من مريض مضطرب نفسيًا.. كان وقتها يتفوه بكلماتٍ مفادها الإيمان

بـ«أسطورة الطعنة في الظهر»، وأن الجيش الذي لم تتم هزيمته في ساحة المعركة قد تعرض لطعنة في الظهر من قادة مدنيين وماركسيين على الجبهة الداخلية، ليعزز فكرة أن لهذه الحرب خونة، وأطلق عليهم اسم «مجرمي نوفمبر».. اليوم وبعد رؤية كل هذه الإخفاقات، راودته فكرة كانت دفينة في أعماقه لتطفو على سطح ذهنه مجددًا، لقد كبرت برأسه فكرة أن الخونة معظمهم يهود، فزاد الحقد بداخله نحوهم، والآن هو على وشك الاكتئاب الذي اجتاحته أعراضه منذ دخوله المستشفى حتى هذه اللحظة، الآن يتمنى «أدولف» أن يكون بمقدرته إبادة يهود أوروبا، لا يعلم طريقة قتلهم، لكنه يتمنى، فلقد اتهمهم بأنهم المتسببون في هزيمة الجيش الألماني أثناء الحرب؛ بسبب ثورات عام ١٩١٨ التي دعموها لتخريب البلاد، كما رأى أنهم السبب في ضياع أهداف ألمانيا الاستعمارية، وهم سبب الأزمة الاقتصادية التي يمر بها الاقتصاد الآن.

أثبت «أدولف» لنفسه أن يهود أوروبا مجموعة من المنتفعين على تلال الخراب، فالعالم كله قد خسر بسبب هذه الكارثة إلا هم على حد زعمه، فلقد انشغلت الدول بمصائب الحرب، وتخلت عن اضطهادها لليهود؛ ليمارسوا أعمالهم الشيطانية بحرية، قد نسفت الحرب وفككت إمبراطورياتٍ عظامًا، كالروسية والألمانية والنمساوية المجرية، أضف إلى ذلك الإمبراطورية العثمانية التي أصبحت على وشك التفكك، وتغيرت الخريطة، وأُبدلوا بدول جديدة قائمة على القوميات، واليهود مستحوذون على المال، بل ازدادوا رخاءً، كان متعجب؛ لأنه علم جيدًا أنه لم توجد حرب سابقة في التاريخ بهذه البشاعة، فهي أول حرب يُضرب فيها المدنيون من السماء، بل وضُربوا لأول مرة في التاريخ بأسلحة كيماوية لم تظهر من قبل، والتي اصطادتهم داخل بيوتهم، كما شهدت السباق التسلحي الكبير الذي أدخل فيه البريطانيون الدبابة في الحرب لأول مرة في التاريخ، كان كل ذلك قد تضرر منه الجميع إلا اليهود من وجهة نظره، فلقد رأى أن المنتصرين أنفسهم لحق بهم الضرر، حيث تضررت بلجيكا وصربيا وفرنسا (المنتصرون) بشكلٍ كبير جدًّا، فعدد ضحاياهم من الجنود وصل إلى ١.٤ مليون جندي، دون حسبان أي خسائر مادية أخرى، فلقد قال الفرنسيون إن فرنسيًّا واحدًا كان يُقتل في كل دقيقة خلال الفترة الواقعة بين نشوب الحرب في أغسطس ١٩١٤ إلى فبراير، فما بالك بالخسارة الروسية أو حتى الألمانية، واليهود هم المستفيدون على حد زعمه، لقد مات الرجال واختل التوازن الاجتماعي بين الذكور والإناث، لقد مات غالبية ذكور مواليد الربع الأخير من القرن التاسع عشر وشباب اليهود باقون.

غالبية القتلى كانوا شبابًا، وغالبية الشباب كانوا متعلمين ومن طبقة راقية، ماتوا بسبب عدم تدريبهم وتأهيلهم على القتال من قبل، فلقد ساقهم القادة

من المدارس والجامعات إلى الحرب مباشرة، وأكبر مثال على هذا، الشبان اللذين جاءوا من نخبة الجامعات البريطانية مثل جامعة «أوكسفورد» وجامعة «كمبريدج» الذين سُحقوا جميعًا، بل وقد فقد الطلبة ٣١٪ من أعضاء هيئة التدريس الذين التحقوا حديثًا بجامعة أوكسفورد في عام ١٩١٣، كلهم ماتوا، وكذلك الحال بالنسبة لإحدى المدارس الثانوية الفرنسية والتي فقدت ٢٦ من أصل ٢٧ من طلبتها، الذين كانوا على وشك التخرج في عام ١٩١٤ أي ببداية الحرب مباشرة، والعضو الوحيد الذي بقي حيًّا من هؤلاء كان معافىً من الجيش أصلًا ولم يذهب للحرب.. كان «هتلر» يرى أن هذا الضرر قد لحق بالمنتصر، فما بالك بالمهزوم، ثم أبدى تعجُّبه مجددًا من أن اليهود دائمًا رابحون من الخراب، فالآن تجارتهم لم تتأثر، بل بدأوا في التحكم بسعر منتجاتهم، واستغلوا حاجة الناس.

لقد جنت هذه الحرب روح ٨ ملايين و٥٣٨ ألفًا و٣١٥ قتيلًا، وقدمت ٢١ مليون جريح، و٧ ملايين بين أسير ومفقود، تصدرت روسيا قائمة الخسائر، ثم تلتها ألمانيا، والنمسا، وفرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا، والولايات المتحدة الأمريكية، ناهيك عن الخسائر المادية التي وقعت في الأراضي التي دارت فيها المعارك من تلف ساحق للمحاصيل الزراعية، وموت آلاف المواشي، ودمار مئات الآلاف من المنازل والمصانع، والبنى التحتية والسكك الحديدية، ومستودعات الطاقة ومناجم الفحم.. بسبب كل هذا ظهر شرط مهم في معاهدة «فرساي» للصلح، والتي تم توقيعها منذ شهورٍ قليلة، هو إلزام الدول المتحاربة بإعادة بناء ما دمرته الحرب، وتحويل الصناعات الحربية إلى صناعات مدنية، ولكن ما دام هناك مهزوم فيجب عليه تحمُّل الفاتورة وحده، هذا ما نصَّت عليه معاهدة «فرساي» التي كتبها المنتصر في موضع قوة، كإسدالٍ نهائي للستار بصورة رسمية على وقائع الحرب العالمية الأولى، وهذه المعاهدة تم تجهيزها لمدة ستة أشهر بعد توقيع ألمانيا على هدنة الاستسلام، وبعد مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩.

كان قد وقَّع المنتصرون على معاهدة «فرساي» من خلال اتفاقياتٍ منفصلة، ثم بعد ذلك وقَّعت الأطراف الخاسرة في يوم ٢٨ يونيو ١٩١٩، وهم الإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية النمساوية المجرية والدولة العثمانية وبلغاريا، والآن يتم تعديل المعاهدة في هذه الساعة من يوم ١٠ يناير ١٩٢٠، بعدما اكتملت المؤامرة من وجهة نظر «أدولف»، فاليوم هو ميعاد توقيع ألمانيا على التجديد الذي تم إدخاله على هذه المعاهدة، ليزيد الألمان ذلًّا من بعد ذل، والذي ينص على الاعتراف الألماني بمسؤولية الحرب كلها، وبموجب ذلك يجب على ألمانيا تعويض الأطراف المتضررة ماليًا.

ارتضى الجميع منذ أشهرٍ بتحمُّل ألمانيا الخسائر، وقاموا بتأسيس ما يسمى بـ«عصبة الأمم» (وهو أشبه بالأمم المتحدة الآن)، خصيصًا للحيلولة دون وقوع صراعٍ مسلحٍ جديد أو حربٍ عالمية ثانية، ونزع فتيل الصراعات الدولية، والاتفاق على عدم تجديد هذا الهراء مجددًا.. لم تُحمِّل معاهدة «فرساي» ألمانيا تكاليف الخسائر والأضرار المادية وحسب، بل أرغمت ألمانيا على خسارةبعض أراضيها ومستعمراتها لصالح أطراف أخرى، ليس هذا كل شيء بل تم تقييد ألمانيا عسكريًا بشكلٍ مهيب فقد نصَّت هذه الاتفاقية في شكلها الأول على التجريد العسكري للجيش الألماني بشكلٍ واضح ومذلّ، بعدما تحكمت في عدد الجنود الألمان الذين يخدمون في الجيش، ليصبحوا ١٠٠ ألف جندي فقط، كما نصَّت على إلغاء نظام التجنيد الإجباري الذي يُعمل به في ألمانيا، كما أنها نصَّت على أنه لا يحق للجنود البقاء في الجيش أكثر من ١٢ عامًا، أما الضباط المؤهلون فقد قيدتهم أيضًا بألا يخدموا في الجيش أكثر من ٢٥ عامًا، ثم يذهبون للتقاعد المبكر، ليترتب على ذلك خلوُّ الجيش الألماني من الكفاءات العسكرية المدربة ذات الخبرة القتالية.. علاوة على تجميد نشاط التسلح العسكري الجوي، أما النشاط العسكري البحري فتم تقييده حتى لا يحتوي على أكثر من ١٥ ألف جندي فقط، وعدم السماح للألمان بامتلاك غواصات، وسُمح لهم فقط بامتلاك القليل جدًا من السفن الحربية.. أما النقطة الأبرز والأصعب هي الفقرة الجديدة والتي أُدخلت على المعاهدة في تعديل اليوم، والتي نصَّت على تحمُّل ألمانيا مسؤولية الحرب كلها، ومن ثَم تقديم التعويضات للأطراف المتضررة، وبحسابات معقدة تم تحديد مبلغ التعويضات ليصل إلى ٢٦٩ مليار مارك ألماني، وبعد الكثير من التظلمات تم تخفيض المبلغ ليصبح ١٣٢ مليار مارك، في وضوحٍ تام للمبالغة في الأرقام، لتظهر بشائر السنوات القادمة والتي تبدو قاحلة، والتي تُبشر بسقوط ألمانيا وتفكيكها بعد إثقالها بالديون.

جلس «هتلر» متألمًا من كل ذلك، فمن أضرار معاهدة فرساي أيضًا تقلص مساحة ألمانيا، فقد أجبرتهم المعاهدة على التنازل عن مقاطعة «شاندونغ» الصينية التي آلت إلى اليابان المنتصرة، والتنازل للدنمارك عن شمال «لزفيج»، والتنازل لبلجيكا عن مدينة «يوبين»، ومدينة «مالميدي»، ومن ثَم التنازل عن «الألزاس» و«اللورين» لفرنسا، كما ساهمت غصبًا في قيام بولندا الجديدة بعدما تنازلت لها عن منطقة كبيرة تتمثل في بروسيا الغربية وبوزن، بل وتنازلت لها عن ممر بحري يفصل ما بين بروسيا الشرقية وألمانيا، ويعتبر إعادة المعاهدة للوجود الجديد لدولة بولندا بمثابة إهانة واضحة للألمان حتى المعتدلين منهم.. تنازلت ألمانيا أيضًا عن الجزء الأكبر من «سيليزيا العليا»، تلك المنطقة الغنية جدًا بالثروات المعدنية المهمة.. ليس هذا كل شيء، بل قيَّدت الاتفاقية ألمانيا وحظرتها من عمل أي تحالف أو اتحاد

سياسي بينها وبين حليفتها النمسا دون موافقة عصبة الأمم.. كما فرضت عليها أيضًا نزع السلاح في المنطقة الواقعة شرق الراين على طول خمسين كيلو متر، وانسحاب الجنود وإخلاء الحصون الواقعة في منطقة «رينانيا» غرب الراين.

حمَّلت المعاهدة ألمانيا مسؤولية كل فظائع الحرب، أما ألمانيا فقد رأت أن المعاهدة وخاصة البند رقم ٢٣١ منها، وبالتحديد الفقرة التي تتحدث عن تحمُّل ألمانيا وحدها مسؤولية أضرار الحرب، نوع من أنواع الخزي والذل.. كان هذا شعور الجنود والسياسيين، أما المواطن نفسه فبدا متخبطًا، وفي حالة يُرثى بها، أما «هتلر» فقد زاد ألمه لتشكِّل هذه الساعة، وهذه المعاهدة ظروفًا اجتماعية وسياسية جديدة في نفسه، لتتجدد عنده فكرة أن من وقَّعوا على اتفاقية الاستسلام الأولى في نوفمبر ما هم إلا خونة ومجرمون، وبرر لنفسه من جديد مصطلح «مجرمي نوفمبر»، لتعزز هذه الساعة فكرة دخول «هتلر» لعالم السياسة بكل اقتناع، وتتولد في داخله قناعة تامة بأن سبب وجوده في الحياة هو «إنقاذ ألمانيا»، والتخلص من ذل هذه الساعة وساعات الخزي التي حلت عليهم منذ خسارة الحرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٥)
ساعة الطموح

اليوم هو ٢٩ يوليو ١٩٢١، تشير عقارب الساعة نحو التاسعة واثنتي عشرة دقيقة من مساء هذا اليوم الطويل، نحن هنا في اجتماعٍ مهم لحزب العمال الألماني الوطني الاشتراكي (النازي بالألمانية)، كل الأعضاء حاضرون بمن فيهم «أدولف» نفسه، والذي جلس ورأسه يدور، متمنيًا ألا تكون هذه الساعة ساعة انتكاسة جديدة كسابقيها، فاليوم قد تم التصويت على أمرٍ مهم بشأن هذا الحزب، بل أكثر أهمية بالنسبة لـ«هتلر» الطَّموح، والآن لجنة المراجعة تفرز الأصوات التي صوتت تمهيدًا لحصرها وإعلان النتيجة.. كان هذا الاستفتاء قد تم؛ بسبب التصويت على مطالب «هتلر»، نعم «هتلر»، فلقد تقدم الشاب وتطور، وأصبحت حياته ذات معنى بعدما أفنى طفولته وشبابه في الانزلاقات، والتي بدأت منذ طفولته وصباه، وصولًا إلى الحرب ثم الاستسلام، ففور التوقيع على معاهدة «فرساي» حتى اليوم قد تطور به الحال كثيرًا، وبالفعل قد تقدم شأنه، لكن هذا لم يكن يسيرًا، بل بالعكس لم تكفَّ حياته عن الصراع، ففي هذه الفترة القريبة تطورت أفكار ذلك الشاب مع الوقت، لتصبح أكبر مما كانت عليه.

كانت قد تبلورت مبادئه، وازداد كرهه لليهود والماركسيين والشيوعيين، بعدما تجول في العمق السياسي طيلة الفترة الماضية، كان قارئًا جيدًا للأجواء، كان له مبدأه ورأيه الخاص حول الأحداث المتصاعدة، وكان مترددًا على دورات «الفكر القومي»، تلك الفعاليات التي نظمها قسم التعليم والدعاية التابع للجماعة البافارية أو كما يُطلق عليهم «رايخسفير»، فلقد كانت تتوافق مع أفكاره، حيث إنهم يتبنّون نفس فكرته في أن كل المصائب التي حلَّت على الشارع الألماني سببها الشعب اليهودي المنتشر في كل مكان بأوروبا، وعلى أتباعهم من الشيوعيين، وأشباههم من رجال السياسة في كل الانتماءات الحزبية، وكانت الاتهامات كثيرًا ما تُضرب في وجه «تحالف جمهورية فايمار الائتلافي» بالأخص، و«جمهورية فايمار» باختصار كانت هي الجمهورية التي نشأت في ألمانيا في عام ١٩١٩، بعد خسارة الحرب وتفكك الإمبراطورية، وكان مقرها وسط ألمانيا، والتي قامت على دستورٍ جديد في حد ذاته لم يكن سيئًا، لكنها كانت جمهورية ضعيفة، وضعفها كان سببه أنها وُلِدت مظلومة، حيث نشأت في ظل السياسات العدائية والعقوبات التي فُرضت على ألمانيا من قبل حكومات الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى، كما اهتزت كثيرًا بسبب ظهور أحزاب وحركات متطرفة متعددة، أضف إلى ذلك

المشكلات الاقتصادية، وارتفاع معدلات البطالة، ونسبة التضخم التي أصبحت كارثية.

اندمج «هتلر» كثيرًا داخل «الرايخسفير» (قوات الدفاع الوطنية) أثناء خدمته في الجيش، وبعد وقت اختارته «قيادة الاستخبارات» للانضمام إليها، فبالرغم من أن القوات قد تم حلها، ظل «هتلر» على جدول رواتب الجيش، وتم اختياره لدورة دعائية خاصة، حيث كان «هتلر» واحدًا من أولئك الذين تم اختيارهم بعناية من قبل قيادات الجيش؛ للتحدث مع مجموعات من الجنود العائدين والمحطمين نفسيًّا؛ بسبب خسارة الحرب وتلك الأوضاع المخزية، كانت مهمته التحدث حول الطموح والقومية الألمانية، وتطهير الجنود من الدعاية الشيوعية البلشفية التي تتخفى خلف مسمى الحرية، والتي أصبحت وقتها كالفيروس، وكان التركيز الأكثر على الجنود الذين أنهوا خدمتهم أو تم تسريحهم.. انخرط «هتلر» تمامًا في مهمته بكل حماسة، واستمتع بها، ونمّى موهبته العظيمة وهي موهبة الخطابة، ليقف ويخطب فيهم بكل بلاغة، كان أسلوبه مقنعًا جدًّا، لفت ذلك انتباه رئيس الدعاية للوحدة العسكرية المحلية الكابتن «كارل مايير».. أبدى «مايير» إعجابه بشخصية «هتلر» وأسلوبه، ثم قرَّبه منه أكثر، فلقد رأى في «هتلر» موهبة الكلام والإقناع بأسلوب بسيط، وبرغم بساطة كلامه وعدم تعقيده إلا أنه مقنع جدًّا.

بعد الإيمان بشخصية «هتلر» أسندوا إليه مهمة جديدة، حيث تم تعيينه في منصب جاسوس أو مخبرٍ للشرطة؛ للتجسس على زملائه المنساقين حول الموجات الثورية الجديدة، وبعدما ظهر نجاحه أسندوا إليه مهمة مراقبة اليمينيين المتطرفين، والمجموعات والأحزاب الناشئة في ذلك الوقت العصيب، وكان أهم تكليف محاولة اختراق صفوف حزب العمال الألماني اليميني الجديد، والتجسس على أغراضه، والذي تم تأسيسه منذ شهورٍ قليلة بعد هزيمة ألمانيا في الحرب.. راقب «هتلر» الحزب لفترة، ودَوّن ملاحظاته باستمرار، وعندما حاول التعمق فيما يدور داخل الحزب، وجد نفسه منساقًا ومتأثرًا بأفكار مؤسس الحزب الذي يُدعى «آنتون دريكسلر»، حيث أحبها «هتلر»، إنها تروق لأفكاره جدًا، حيث وجد أن أفكار قائد الحزب معادية للسامية، ومناهضة للرأسمالية، ومعارضة لأفكار الماركسية، وكأنه يتحدث على لسان «هتلر» بنفسه، كانت أفكارهما مشتركة في تأييد وجود حكومة جديدة حازمة وقوية، وتقديمهما لمحاولات الإصلاح المجتمعي، ووجود تكافل متبادل بين كل أفراد المجتمع.

حلّ «هتلر» ضيفًا على اجتماعات الحزب، واندمج داخل الشعارات والعناوين الوطنية الرنانة، كما سنحت له الفرصة بالحديث والتعبير والخطابة، في أحد

اجتماعات ميونيخ في شهر سبتمبر١٩١٩، والتي كانت في إحدى النوادي، عندما كان المُنظّر والمتحدث الرئيسي للحزب «جوتفريد فيدر» يتحدث، وبعد إنهائه للحوار قام أحد الحضور واقترح أن بافاريا يجب أن تنفصل عن بروسيا والنمسا كدولة مستقلة دون الارتباط بهما، فقام «هتلر» المجهول؛ لكي يفصل في الجدال الذي نشأ نتيجة للاقتراح الذي قدَّمه العضو، وأخذ فرصته في الكلام والبلاغة التي أذهلت الجميع، وأبدى اعتراضه الصارخ على هذا المقترح، حيث أوضح أن من رأيه عدم الانفصال لكي تبقى ألمانيا قوية، وذكر أن تضحيته في سنوات الحرب والذل لم تكن لبافاريا وحدها، أو حتى لأي دولةٍ أخرى، بل من أجل جميع الشعوب الألمانية.. قوبل حوار «هتلر» بالتصفيق الحاد، فاقترب منه «دريكسلر» ووضع كتيبًا في يده، وكان عنوانه «يقظتي السياسية» وبعد ساعات تسلّم «هتلر» بطاقة بريدية تخبره بأنه قد تم قبوله في عضوية حزب العمال الألماني، وعلى الفور وافق «هتلر» ليصبح العضو الخامس والخمسين في هذا الحزب الصغير، كما أصبح «هتلر» أيضًا العضو السابع في اللجنة التنفيذية التابعة للحزب، (بعد مرور عدة سنوات، ادّعى «هتلر» أنه العضو السابع من الأعضاء المؤسسين للحزب، وليس السابع في اللجنة التنفيذية، وزوَّر بطاقته الحزبية).

اندمج الوافد الجديد داخل الحزب، ولفت انتباه الأعضاء إليه، كان عندما يتحدث «أدولف» ينتبه الجميع، ويصغون إليه، كل هذه المواصفات حازت إعجاب رئيس الحزب «دريكسلر»، الذي رأى فيه موهبة خطابية فذة، وتمنى أن يكون «هتلر» هو المُنظّر الرسمي للحزب، ولكن وقتها كان المُنظّر الأساسي هو «فيدر»، صاحب كتابة برنامج عمل الحزب، وهو من أوصى بإنشاء عقيدة عنوانها القومية الألمانية، كما نادى بالقليل جدًا من الاشتراكية؛ في أمله لملكية الدولة للأرض والموارد وتأميم البنوك.. كان من أوائل المنضمين لهذا الحزب شخصيات أصبحت مشهورة فيما بعد مثل «جوزيف جوبلز»، علاوةً على محاربين قدامى مثل «رودولف هس» و«هيرمان غورينغ» و«ألفريد روزنبرج» (الذين سيصبحون أهم رجال «هتلر» فيما بعد).

بعدما علا نجم «هتلر» داخل الحزب الناشئ، الذي تأسس في جو البطالة والثورة الاجتماعية شاعت موهبته، وكان «هتلر» مهلهلًا بعض الشيء، فتقدم نحوه «ديتريش إيكارت» (صاحب أكبر تأثير في حياة «هتلر»)، وهو أحد المؤسسين الأوائل للحزب، وعضو الجمعية السرية «جمعية ثول»، والذي قرر الاهتمام بـ«هتلر» ليصبح معلمه الخاص في أصول الإتيكيت، ورقيبًا خاصًا على ملبسه ومظهره وأسلوب كلامه، وبعد وقتٍ قليل من تهيئه قدَّمه «إيكارت» إلى مجتمعاتٍ عديدة، وجعله منفتحًا على العالم السياسي.. أصبح دور «هتلر» بالحزب مهمًّا خصوصًا بعد ما زاد عدد أعضاء الحزب، وزاد نشاطه، فتم تغيير اسمه باقتراحٍ من هتلر، ليصبح باسم حزب «العمال الألماني الاشتراكي

الوطني» منَ أجل زيادة شعبيته (لذلك سُمي النازي، وكلمة نازية تعني القومية الاشتراكية).. كان من أهم الأسباب التي ساعدت «هتلر» على التقدم والاندماج هو تسريحه من الجيش، وإنهاء خدمته في مارس ١٩٢٠، فسمحت له الفرصة بالمشاركة الكاملة، علاوةً على التشجيع الكامل والدائم من أعضاء الحزب من ذوي المناصب الأعلى.

تطورت الأساليب السياسية للشاب الطَّموح يومًا بعد يوم، وظهرت عليه لمسات «إيكارت» الذي اعتنى بشكله الخارجي، وبعدما نما فن الخطابة لدى «هتلر» أمام أعضاء الحزب، جاءت الفرصة للخطابة أمام الحشود الكبيرة، وتمهيدًا لذلك، في فبراير عام ١٩٢١ أرسل «هتلر» وكبار الحزب شاحنتين محملتين بمؤيدي الحزب؛ ليجوبوا الشوارع وهم يحملون الصليب المعقوف وهو شعار الحزب، ليلقوا بالمنشورات الدعائية إلى الجماهير، وكانت هذه أولى خطوات الخطة الدعائية لهذه الخطبة، تفاعل بعض أفراد الشعب مع هذه الشعارات القومية، ووقف «هتلر» لأول مرة لكي يخطب أمام حشدٍ يضم نحو ستة آلاف فرد في ميونيخ، ورغم استياء البعض من مصطلحاته الفظة، بدأت سمعة «هتلر» تجوب الأسماع والأبصار؛ بسبب خطاباته العنيفة المناهضة لمعاهدة «فرساي» و«مجرمي فبراير»، والأحزاب المنافسة لحزبه، وأنصار الحكم الملكي معادي الحكم الجمهوري، والاشتراكيين والماركسيين واليهود.

كانت ميونيخ بالذات هي أكثر المدن التي تحتوي على أفراد مناصرين للقومية الألمانية، ومناهضين للموجات الفكرية الجديدة كالماركسية والشيوعية، ووجود الحزب في هذا البلد بالذات كان نجاحًا ملحوظًا، فلقد انضم للحزب ضباط من الجيش سرًا، وقد عقدوا العزم على سحق الماركسية، مما أسعد «هتلر» وقيادات الحزب الذين اعتبروهم أهم أداة لتحقيق أهدافهم.. ومن أجل التوسع والانتشار في كل ربوع ألمانيا، سافر «هتلر» النشيط إلى برلين؛ لضم أعضاء جُدد، كانوا ينادون بنفس شعارات الحزب القومي، وأثناء غيابه حدث شيء غريبٌ جدًا لم يتوقعه أحد، فلقد تمرد بعض قيادات الحزب.

بدأت حرب داخلية بالحزب ضد «هتلر» بالذات، ولأول مرة شهد هذا الحزب الانشقاق، فلقد رأى مجموعة من الأعضاء والقادة أن شخصية «هتلر» متغطرسة ومستبدة، لدرجة أنهم قاموا بتشكيل حلفٍ جديد مع مجموعة من الاشتراكيين في مدينة «آوغسبورغ» كان مفاده معاداة نشاطات «هتلر».. وصلت الأخبار لـ«هتلر» على التوّ، فعاد بشكلٍ سريع من برلين، وردَّ على هذه الحملة المغرضة، قام «هتلر» بردٍّ فعلٍ أذهل الجميع، فلقد فاجأهم بتقديم استقالته في ١١ يوليو في عام ١٩٢١.. صُعق الجميع، فحقًّا هم من تمردوا عليه، ولكن غرضهم كان تقييد نفوذه فقط، أدرك الجميع أن خسارتهم لنشاط

«هتلر» وشهرته معناها نهاية الحزب عمليًّا.. علم «هتلر» بتمسكهم لينتهز الفرصة بشكلٍ واضحٍ وظاهرٍ للجميع، حيث أعلن عن عودة مشروطة بقرارٍ جديد، وهو أن يحل محل «دريكسلر» في رئاسة الحزب، وأن تكون له الكلمة الأولى والأخيرة فيه.. اعتبر مؤسسو الحزب وقاداته بمن فيهم «دريكسلر» أن هذا تحدٍّ مهين، وحاولوا الدفاع عن مكانتهم في بداية الأمر بشكلٍ مستميت، وبدأت الحرب الداخلية في الحزب، وفي نفس هذا الوقت ظهر على الأجواء كتاب مجهول المصدر بعنوان «أدولف هتلر.. هل هو خائن؟» ليشكك في وطنية «هتلر»، ويوضح تعطّشه للسلطة، وانتقاده لمعاونيه ومناصريه، واتهامهم بالعنف وسوء الخلق.. أقام «هتلر» دعوى قضائية بسبب هذا التشهير، الذي اتضح أنه صدر من خلال مطابع صحيفة محلية بميونيخ، وصُرف له مبلغ تعويضي.. برغم هذا التشهير لم يملّ «هتلر»، بل زاده الأمر عنادًا، حتى اعترف خصومه بالهزيمة، وتراجعت اللجنة التنفيذية للحزب عن موقفها في نهاية الأمر، وعُقد استفتاء رسمي داخل الحزب في هذا اليوم الذي هم مجتمعون فيه الآن، للنظر في مطالب «هتلر» بين مؤيدٍ ومعارض.

الكل ينتظر نتيجة التصويت الآن، بينما «هتلر» جالس في صمتٍ وتوترٍ، حيث إنه رأى أن مطالبه لم تلاقِ تأييدًا من بعض الأعضاء المتغطرسين، فهو يريد حتى أن يفوز بالاستفتاء حتى لو بنسبة ٥٠ ونصف في المائة، ولكن بعد مرور ساعة كاملة جاءت المفاجأة الغريبة! لقد فاز «هتلر» فوزًا ساحقًا، فطلبات «هتلر» لم يصوِّت عليها بالرفض سوى صوت واحد!، فلقد حصل «هتلر» على موافقة خمسمائة وثلاثة وأربعين صوتًا من أصوات الأعضاء، حيث إن عددهم كاملًا خمسمائة وأربعة وأربعون، لتسير الأمور كما يريدها «هتلر» الطموح.. وبعد نجاحه الساحق أعلنت لجنة الانتخاب أن غدًا ٢٩ يوليو١٩٢١ سيعُقد اجتماع استثنائي ليمنح «هتلر» صفة «فوهرر» حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني (فوهرر بالألمانية تعني القائد أو الزعيم)، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُستخدم فيها هذا اللقب، لتكون هذه الساعة من أهم ساعات رسم «هتلر» لخطواته المستقبلية بعيدًا عن الانتكاسات، وتكون مفتاحًا جديدًا لساعاتٍ جديدةٍ من الطموح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٦)
ساعة العفو

كان «هتلر» على موعدٍ جديد مع إخفاقٍ آخر، حيث يجلس الآن في السجن، نعم، فقد تم القبض عليه ووضعه في هذا السجن البافاري «لاندسبرج»، في ١ إبريل في عام ١٩٢٤، ليُنفذ عقوبة السجن خمس سنوات، والآن هو يوم ١ ديسمبر من عام ١٩٢٤ ، وقد مضى تسعة أشهر مكث خلالها هنا، وفي هذه الساعة التي قاربت على الثانية عشرة ظهرًا، جلس «هتلر» ليتابع الصحف والجرائد، قبل أن يستكمل كتابة مذكراته وسياساته المستقبلية، فهذا السجن مرفَّه بعض الشيء، مما جعل من هذه الأزمة مجرد إخفاق، لتختلف عما سبق من انتكاسات، فالآن أصبح في حياة «هتلر» ما يعوضه عن الحزن، فلقد أصبح مشهورًا وله مؤيدون كُثر.

كانت قد بدأت شهرة «هتلر» في الاتساع بعد ما استغلت الصحف الأزمة التي حدثت داخل الحزب كما ذكرنا، وبعدما جدَّد الحزب من سياساته، ففور تقلد «هتلر» منصب القائد، زادت شهرة الحزب الذي اقتبس شعار الصليب المعقوف الموجود قبل ذلك في الحركات اليمينية المتطرفة، وجعله رمزًا له كشكلٍ جديد من إلهامات «هتلر» بشكلٍ رسمي ومعلن، أصبح الشعب الألماني كله وقتها يعلم من هو «أدولف هتلر»، بعدما بدأ بتكثيف خطاباته الساحرة، أصبح يخطب في كل الأماكن التي يجتمع فيها الشعب، ولا يملُّ دائمًا من مهاجمة اليهود والرأسماليين والشيوعيين البلاشفة والديمقراطيين الاشتراكيين والليبراليين ومؤيدي الحكم الملكي.. كان بعد كل خطبة يزداد مؤيدو «هتلر» ألوفًا، لتتوسع شهرته أكثر، وينضم إليه شخصيات مرموقة، كان أهمهم قائد الجيش نفسه «إيرنست روم».

زاد نفوذ «هتلر» أكثر، حيث استطاع تكوين جماعات مستقلة مشابهة، منها على سبيل المثال «جبهة العمل الألمانية»، وجعل مقرها مدينة «نورنبيرغ»، وعيَّن عليها «يوليوس شترايسر» في وظيفة رئيس، مرّ الوقت وشعبية «هتلر» تزداد؛ بسبب شخصيته الديناميكية، وبفضل دعايته وخطاباته وشعاراته القومية، التي تروج لرغبته في تخليص البلاد من الظُلمة، حتى اقترن اسمه باسم القائد العسكري البطل في فترة الحرب الجنرال «إيريك لودندورف»، وأصبح معارضوه بالأمس هم مؤيدوه اليوم، ليطمع «هتلر» والحزب وقاداته بالانقضاض على السلطة.

وخلال عام ١٩٢٣وبعد وقتٍ قليل جدًا من التخطيط السري، رأى الحزب أن حكومة جمهورية فايمار الحاكمة فاشلة فشلًا ذريعًا، أو كما يقال على حافة

الانهيار، وأنها هشة، ويمكن حلها؛ بسبب تهديد فشل ألمانيا في سداد الديون المقررة لفرنسا كمؤشرٍ لكارثة مالية ضخمة ستؤدي لتفاقم الأزمة الاقتصادية، فلم تحتمل الأمور سوءًا، حيث أدى التضخم الشديد إلى ارتفاع سعر رغيف الخبز بشكل خرافي، فرغيف الخبز في الماضي كان ثمنه ٢٥٠ ماركًا، والآن سعره أصبح ٢٠٠ مليار مارك!

وفي هذا العام الذي اتسم بتفاقم الأزمات، كانت الحكومة تطبع الأوراق المالية على مدار الساعة؛ للوفاء بالتزاماتها دون غطاء؛ ليظهر التضخم بشكلٍ وحشي، فقبل الحرب كان الدولار يساوي أربعة مارك، أما في ذلك الوقت قد أصبح يساوي عشرين ألف مارك، إنه حقًّا وضعٌ كارثي، أدى إلى فقدان الثوار الثقة أكثر في حكومة فايمار الديمقراطية.. خرج «هتلر» يجوب الشوارع ليرى التظاهرات المناهضة للحكومة، وكله أمل أن ما حدث في إيطاليا العام السابق يحصل مجددًا في ألمانيا، فـ«هتلر» كان مفتونًا بشخصية «بينيتو موسوليني»، وما فعله ذلك الحاكم الفاشي من انقضاض على الحكم في إيطاليا، والذي وصل للحكم تحت مسمى القومية، بنفس الاستراتيجية التي يؤمن بها «هتلر».. كانت هذه الأوضاع كفيلة بإغراء «هتلر»، وجعله يعقد العزم نحو خطوةٍ خطيرة، إنها خطوة الانقلاب على السلطة.

بعد ترتيبات «هتلر» فوهرر الحزب النشط، قام الحزب بمحاولة انقلاب على الحكم من أجل الانقضاض على ألمانيا وبافاريا، وبدأت تلك المحاولة مساء يوم ٨ نوفمبر ١٩٢٣ حينما سعى «هتلر» إلى بدء ثورةٍ شعبية، حيث سار مع مجموعة منتقاة من وحدات النخبة النازية المعروفة باسم «إس إس» أو «شوتز شتافلالي» أو «العاصفة» كان عددهم ٦٠٠ شخص، وهي مجموعة من القوات شبه العسكرية اليمينية المُتشددة، واتجهوا نحو «نادي بير» الذي كان يشهد اجتماعًا سياسيًّا، يرأسه رئيس الوزراء البافاري «غوستاف فون كار» مع مجموعة من رجال الأعمال وكبار السياسيين، والذين وصل عددهم لنحو ثلاثة آلاف شخص، ونادي بير كان من أحد الأندية المهمة في ميونيخ في بدايات القرن العشرين، ولذلك كان يقصده الآلاف من الزوار؛ للتباحث في الأمور الاجتماعية والسياسية المهمة.

وصل «هتلر» واقتحم الاجتماع مما أذهل الحضور، وأطلق رصاصة في الهواء، وصرخ قائلًا: «الثورة الوطنية قد بدأت»، ثم التقط أنفاسه، وأعلن أنه قد شكَّل حكومة جديدة بمعاونة الجنرال إريش لودندورف (أيقونة البطولة العسكرية بالنسبة للألمان الذي ارتبط اسمه به كما ذكرنا)، كان «أدولف» قد قرر استخدام اسم الجنرال «لودندورف» كواجهة في محاولة الانقلاب.. رفع «هتلر» وقواته الأسلحة في وجه رئيس الوزراء ورجاله، وطالبوه هو والمؤسسة العسكرية المحلية بمساعدتهم من أجل الإطاحة بحكومة برلين،

واضطر «كار» تحت تهديد السلاح إلى التعهد بتقديم الدعم، ولكن بعد إحداث الفوضى فرَّ منهم على غفلةٍ، وسحب تعهده بالدعم، واستمرت الهتافات طيلة ساعات الليل بعد توافد القليل جدًّا من مؤيدي هتلر، الذين وصل تعدادهم إلى ثلاثة آلاف رجل، ومع مرور ساعات الصباح زحف الجمع في وقت الظهيرة من أمام النادي، إلى ناحية وزارة الحرب البافارية، وكانت مسيرتهم تطالب بالإطاحة بالحكومة البافارية.. بعد قليل تصدرت الشرطة المشهد، وبدأت بالقيام بدورها في فضِّ المسيرة، وأسفر ذلك عن مصرع ستة عشر عضوًا من أعضاء حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني، وأربعة جنود من الشرطة، ومات من كان على يمين ويسار «هتلر»، ونجا هو بأعجوبة، وفرَّ المتظاهرون لتطاردهم وحداتٌ من الشرطة والجيش في الطرقات، وكان من بين هؤلاء الفارين «أدولف هتلر».

اختبأ «هتلر» في منزل أحد مؤيديه، والذي يُدعى «إرنست هنفستنجل»، ليقضي هناك نكسة مدمرة جديدة قد أودت به للتفكير بالانتحار، بالفعل جهَّز مسدسه بعدما قَبَّل تلك القلادة التي تحتوي على خصلة من شعر أمه الحبيبة، وبعد قليل دخلت عليه زوجة «إرنست» لتقدم إليه بعض الكلمات التحفيزية، وتخبره بأنها مجرد وعكة، وأن مستقبل ألمانيا في انتظاره.. بعد محاولة الإقناع الطويلة بالفعل استجاب «هتلر»، وصرف نظره عن الانتحار.. علمت الشرطة بمكان «هتلر»، فجاءت الوحدات المسلحة لكي تتمكن من القبض عليه، وعندما جاء الضابط المختص لتكبيله أصر «هتلر» على تعليق الصليب الحديدي على سترته، ففي أكثر لحظات اليأس كان هذا الرجل يحاول الحفاظ على صورته.

في اليوم التالي كتبت كل الصحف عن واقعة «هتلر»، ومن ثَم القبض عليه، وعلى ما يبدو أصبح هذا الموقف هو المزحة السائدة في الشارع الألماني، ليُنظَر لمبدأ «هتلر» ورغبته في إنقاذ ألمانيا على أنها أفكار محل سخرية، بعدما كان الجميع على وشك الإيمان بها، قُدّم «هتلر» للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى، وساقوه للمحكمة التي لم تحتوِ على هيئة محلفين، هي فقط محكمة شبه إدارية، عُيِّن عليها ثلاثة قضاة خلال فترة الإمبراطورية القديمة، وكان جميعهم يُبدون بعض التعاطف لأفكار «هتلر» الوطنية والقومية.. حوَّل «هتلر» المحكمة الى منصةٍ كبيرة، خطب فيها وأعطى دروسًا عن الوطنية، ولم يخلُ كلامه من الاستعراض الخطابي، الذي أقنع الحاضرين بالتصفيق له أكثر من مرة، فمن حسن حظه أن القضاة لم يُقيِّدوا الوقت الذي يتحدث ويدافع فيه عن نفسه، مما أطال من وقت المحاكمة، ليكرر مرارًا وتكرارًا الألفاظ التي تتحدث عن النصر للقومية الألمانية، والتفاني في حب الوطن، وتم تسجيل كلامه هذا ليصدر في الصحف الوطنية، لتتهافت القُراء عليها في

إقدام تاريخي.. في هذه اللحظة أدرك «هتلر» أنه ما زال يملك السيطرة والسلطة، ليصبح شخصية قومية يعترف بها الجميع.

لم يُصدَر على «هتلر» حكم قاسٍ، فقضية الخيانة العظمى ربما تودي برقبة مرتكبها إلى الإعدام، لكن بعد التعاطف الذي أصبح ظاهرًا، تم الحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات فقط، في يوم ١ إبريل في عام ١٩٢٤.. قضى «هتلر» شهوره الأولى في سجن «لاندسبرج»، وكانت شخصيته تحظى بإعجاب حتى سجانه، فكان الحراس يعاملونه معاملة جيدة، وكان محبسه مرفهًا بعض الشيء، حيث سمحوا له بإدخال الجرائد والصحف، بل كان يتلقى بريدًا يحمل إليه الكثير من خطابات المعجبين، علاوةً على الكثير من الهدايا، وكل أصناف الطعام... كان سجن «هتلر» من أهم الأوقات في حياته، اضطر فيه للتركيز والتدبير لصنع استراتيجيات سياسية جديدة، بعيدًا عن ضغط الشارع، وكانت بالفعل بداية جديدة.

هكذا قضى هذا الرجل سجنه خلال الشهور الماضية، والتي اقترب فيها من إنهاء كتابة معظم المجلد الأول من كتابه «السنوات الأربع ونصف من الكفاح ضد الأكاذيب والغباء والجبن» (قبل أن يتغير اسمه فيما بعد لـ«كفاحي»)، وهو كتاب جمع بين عناصر السيرة الذاتية لشخصه، والشرح التفصيلي لنظرياته النازية، وتنبّأ «هتلر» في هذا الكتاب بأنه سيسحق اليهود مستقبلًا، بل وسيدمِّر السكان اليهود في كل عموم أوروبا، وأنه سيقوم بقلب توازن القوى في العالم كله، وأنه سيستطيع تشكيل العالم وفقًا لإرادته هو بالذات، وأنه سيكون المنقذ الكبير للألمان.

وفي هذه الساعة وبعد مرور تسعة أشهر على سجنه، الذي تم الحكم عليه بالمكوث فيه خمس سنوات، ابتسم له القدر من جديد الآن، بعدما جاءه خبر سعيد، حيث صدر عفو لخروجه من السجن؛ بسبب حسن السير والسلوك، لتُشكّل هذه الساعة تكوينًا جديدًا في شخصية «هتلر» السياسية في الأحداث القادمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٧)
ساعة التقنين

إن هذه الساعة من أهم الساعات في حياة «هتلر»، فالآن سيتم الإعلان عن نتيجة الانتخابات المبكرة التي جرت أمس الموافق أول سبتمبر ١٩٣٠، فهو التحدي الأهم لبروز اسم «هتلر» وحزبه بشكلٍ قانوني وغير ثوري، ففي هذه السنوات السابقة علم «هتلر» أنه لا جدوى من تسلُّق السلطة بطريقٍ أخرى غير القانون، على الأقل بشكلٍ مؤقت، فالغاية تبرر الوسيلة.. الآنَ أصبح يواجه الحكومة الائتلافية لجمهورية فايمار التي طالما احتقرها، بل وأصبح في مواجهة حادة مع الأحزاب الجمهورية التي تتمتع بغالبية البرلمان، وهي الفرصة الوحيدة لخروج الحزب النازي من ظلمته وخموله للانتعاش والسيادة على الساحة السياسة، وطبعًا بقيادة «أدولف هتلر»، فلقد اقترب «هتلر» من تحقيق أحلامه التي حارب من أجلها طوال الخمس سنوات الماضية، منذ أن خرج من السجن.

كان كتاب «كفاحي» هو دستوره الخاص، الذي عدَّل فيه استراتيجياته السياسية القادمة وقت مكوثه بالسجن، حيث إنه احتوى على المبادئ الأساسية لألمانيا الحديثة إن تمكَّن الحزب النازي من حكمها، كان أهم مبادئه هو حتمية التوسع العسكري والقضاء على الأجناس والطفيليات الملوثة على حد فكره، وفرض الاستبدادية المطلقة.. طُبع هذا الكتاب وتم نشره بعد خروجه من السجن، وتحديدًا في يوليو ١٩٢٥، ومن خلاله علم الناس أفكار وآراء «هتلر»، وبرغم أن هذه الأفكار كانت تحمل الصبغة العنصرية الحادة، حقق هذا الكتاب رواجًا خياليًّا، وبيعت ٢٥٠ ألف نسخة فور انتشاره، ليتهافت المال على الفوهرر، ويزداد شهرةً من بعد شهرة.

كان «هتلر» قد خرج من سجنه بعد تسعة أشهر؛ لحسن السير والسلوك، والشارع الألماني بدأ يهدأ قليلًا؛ بسبب أن الأحوال الاقتصادية مالت نوعًا ما ناحية التحسن، مما أغلق في وجه «هتلر» محاولة إثارة الجماهير، وما قيَّده أكثر هو إطلاق سراحه شريطة حظره من الإثارة والخطابات في الأماكن العامة والتجمعات.. فور خروجه اصطدم بمشكلةٍ جديدة وهي أن الحزب قد تم حظره، ليس هذا فقط، بل إن الجيل الجديد قد تقدم في صفوف الحزب النازي سرًا وعبث به بشكلٍ فوضوي، مما أجبره على إعادة النظام في الحزب، والسيطرة عليه، ولكي يواكب حماسته في استكمال مشروعه، كان يجب عليه إلغاء هذا الحظر الواقع على الحزب بعد فشل الانقلاب.. بعد محاولاتٍ مستميتة تمكن «أدولف» من إقناع «هاينريش هيلد» رئيس وزراء بافاريا بأن يصغي له، وبالفعل أخذ «هتلر» فرصته للإلحاح محاولًا التماس رفع

الحظر عن الحزب، حاول إقناعه مبررًا له أن الحزب سيسعى الآن إلى الحصول على السلطة السياسية عبر القنوات الشرعية، بعيدًا عن الثورة والانقلابات.. تمكَّن «هتلر» المقنع من تفعيل رفع الحظر على حزبه النازي في يوم ١٦ فبراير ١٩٢٥، كان ما يؤرق «هتلر» عدم استغلال تأييد الجماهير المحتشدة له في كل مكان، وإلقاء خطاباته عليهم؛ بسبب حظره من الخطب، تلك الجماهير التي رأته في صورة الزعيم الوطني.. في هذه الفترة آمن بأنه يجب عليه عمل تغيرٍ ديناميكي في شكله كرجل سياسة خصوصًا بعد هذه الشهرة الواسعة، فسلَّم نفسه للمصور الصحفي السابق «هيربك هوفمان» الحليف والصديق الذي استقبله عند خروجه من السجن، في محاولةٍ من «هتلر» أن يكون رجل سياسة بكاريزما عالية في كل شيء حتى صورته ومظهره.. الآن كل شيء يسير كما يريد إلا مشكلة الخطابات والشعارات، فكان «هتلر» يقابل جماهيره الغفيرة صامتًا لا يملك إلا التلويح بيده، كان خائفًا من أن ينقُض الاتفاق الذي تم بينه وبين الحكومة، والتي حذرته من اللعب بورقته الأخيرة وهي الخطابة، فكان هذا تقييدًا حادًّا لـ«هتلر».. وكحيلة جديدة من حيله، فكَّر مرارًا وتكرارًا في حلٍّ بديل لحرمانه من وصول صوته وخطاباته للشعب لكي يجذب أعدادًا أكثر، فقام بتعيين زميله في الحزب «جريجور شتراسر» الذي تم انتخابه في عام ١٩٢٤ لعضوية الرايخستاج (البرلمان الألماني)، بدلًا منه في المناظرة والخطابة، ثم أسند إليه سلطة تنظيم فرعٍ جديد للحزب في شمال ألمانيا؛ من أجل انتشار الحزب في كل الربوع الجرمانية.

تسلم «جريجور» هذه المهمة بمساعدة شقيقه الأصغر «أوتو شتراسر» والدعائي الإعلاني الموهوب «جوزيف جوبلز»، ولكن بعد وقتٍ قليل وقع «هتلر» في مؤامرةٍ جديدة اقتضى عليه مواجهتها بكل حزم، فجبهة العمل الاشتراكي الجديدة، والتي ازدهرت في شمال غرب ألمانيا، أصبحت تُشكِّل تهديدًا صارخًا لسلطة «هتلر»، فلقد اتجهت هذه الجبهة نحو الاستقلالية نوعًا ما، لدرجة أنها أصبحت تشكل جبهة معارضة داخلية داخل الحزب في تحدٍّ تام لنفوذ الفوهرر.. عقد «هتلر» اجتماعًا طارئًا بـ«بامبرج» في عام ١٩٢٦، وبقبضة من حديد طلب الولاء من المنشقِّين، وبعد وقت قليل جدد الأعضاء الولاء، ومن ثم تبعهم المنشقون، حتى كان آخر من قدَّم الولاء بتذمر هو «جوبلز».. ثم أدخل «هتلر» على الحزب استراتيجيات جديدة لتزيد من نفوذه وسلطته داخل الحزب، وعزز منصبه كقائد أساسي للحزب، وأنه المسئول الأول والأخير عن تنظيم شؤونه، وأبطل نظام الانتخاب، وفرض نظام تعيين القائد من القادة الذين يرأسونه، بل ويتمتع هؤلاء القادة بالولاء المطلق،

ليحاول فرض نظرية السلطة الهرمية، وهي أن السلطة والنفوذ تنتقل من أعلى إلى أسفل، محاولًا نسف فكرة الديمقراطية.

برَّر «هتلر» تصرفه هذا بأن الكبير هو أهل الخبرة، وهو من يعرف الطريق السديد، واستدعى حادثة معاهدة فرساي المهينة، وبرَّر كل ذلك بشعارات الوطنية والهدف المنشود من التحرر.. كانت هذه الشعارات هي نفس شعارات الحزب التي توحي بأن الشعب الألماني يجب أن يكون عليه كبير واصٍ مُخْلِص ومُخَلص، فزادت هذه الشعارات من شعبيته أكثر، ولكن هناك مشكلة واحدة، فلقد تفاعل الناس مع كل شعاراته ما عدا محاولته تأييد الشعب الألماني بإلقاء اللوم على «الشعب اليهودي، وأنه هو من تآمر عليهم في كل أنحاء العالم»، مما اضطر «هتلر» ورفاقه من تجديد سياستهم وتعديلها، لتبدأ الحركة الدعائية الجديدة، والتي خرجت بشكلٍ ماهر، حيث مزجت بين معاداة السامية وتهاون «نظام فايمار» والأحزاب السياسية الموالية له، والمنادين بالاشتراكية والماركسية، ليضع كل أعدائه في بوتقةٍ واحدة، ولكن جمهورية فايمار ظلت هي صاحبة الترتيب الأول في السحق، فليس معنى أن «هتلر» قد مثُل وانتهج شرعيتها ومبادئها أن نظرته إليها قد تغيرت، ولكنها كانت مجرد محطة ليتولى بعدها زمام الحكم بصفةٍ قانونية، فخطته للوصول للسلطة باتت واضحة، وهي محاولة استغلال المؤسسات التابعة لحكومة فايمار في صفِّ فكره واستراتيجيته، حتى يتسنى له سحق تلك الجمهورية، ومن ثم تنصيب نفسه ديكتاتورًا على البلاد.. كان «هتلر» مؤمنًا بنفسه وبأفكاره لدرجةٍ عجيبة، متنبّئًا بمستقبله بشكلٍ مريب، رغم معارضة واستهزاء بعض أعضاء الحزب، على رأسهم كتيبة العاصفة وآخرون، مما استدعاهم لإطلاق اسم ساخر عليه وهو «هتلر» القانوني أو «هتلر» الشرعي.

مرَّت الأوضاع بهذا الشكل، و«هتلر» مؤمن بذاته ومبادئه، ومع مرور الوقت أفلح رهانه على نفسه وفكره، وسلك الحزب المسلك القانوني، واستغلَّ الحزب ظهور أول فرصة حقيقية للشجب، بعدما جاءت فترة الكساد العظيم الذي أصاب جمهورية فايمار في عام ١٩٣٠، وعجزها عن حل الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالبلاد، ليخرج المحافظون اليمينيون بما فيهم أنصار الملكية والحكم الملكي عن صمتهم، ويبدون استياءهم الشديد مما آلت إليه البلاد، فبرغم مرور هذه السنوات لم تستطع جمهورية فايمار إقناع المواطن الألماني بأنها تستطيع حل مشكلاته، وبعد معارضة المحافظين والملكيين، انضم الشيوعيون للمعارضة، ومن ثم النازيون، ليتوحد الجميع حول فكرة فشل الدولة الفايمارية، ولأن الدولة من الأساس كانت قائمة بعد الحرب العالمية الأولى على شكلٍ ديمقراطي مُعتمد على البرلمان، سقطت تلك الحكومة الائتلافية، وانهارت بعد علوِّ صوت المعارضة، فتم إبدال الحكومة

بمجلس وزراء جديد يمثله أقلية البرلمان، ومن ثم تم تعيين مستشار ألماني جديد يُدعى «هاينريش برونينج» والذي كان ممثلًا لحزبٍ صغير لم يفز من الأساس إلا بمقاعد قليلة في البرلمان، وهو حزب «الوسط الكاثوليكي الألماني»، كان قد تم هذا الإجراء الشاذ بعدما أجازت غالبية الأحزاب هذا التصرف.

حاول «برونينج» على استحياء تحسين الأوضاع، ولكنه فشل فشلًا ذريعًا؛ ربما لكونه غير مهيأٍ لشغل منصب مستشار البلاد، فانهالت عليه أصوات المعارضين في الرايخستاج، مما أجبره على إجراء انتخاباتٍ مبكرة في سبتمبر من عام ١٩٣٠، واليوم كل الأحزاب تتلهفُ على النتيجة.. وبعد الانتظار الممل، الذي بالفعل وتَّر كل السياسيين في كل مكان، لا سيما تلك الأحزاب الجمهورية التي كانت قد أسست شبه قاعدة أو إمبراطورية متشعبة داخل البرلمان، على عكس حزب «هتلر» الطموح الذي بدا للجميع أنه في حالة خمول.. الكل ينتظر، فلقد ظهرت الآن التجهيزات الخاصة لإعلان النتيجة.

بعد مُضي ساعة، تم الإعلان عن النتيجة في ذهول تام من الأحزاب الجمهورية بعدما أطاحت بهم؛ لتنسف قاعدتهم التي كانت تستحوذ على البرلمان، والتي كانت دائمًا تفوز بغالبية الأصوات، في الساعة التي كانوا معتقدين فيها أنهم على وشك تقديم حكومة ائتلافية جديدة، وطفا على السطح الحزب النازي فجأة، الذي استفاق وشهد صحوةً جبارةً بعدما جاءت النتيجة بفوزه بمقاعده بنسبة ١٨.٣٪ من الأصوات، وبعدما استطاع شغل مائة وسبعة من مقاعد البرلمان، ليقفز من المركز المتأخر كتاسع أصغر حزب في المجلس الذي ينتمي إليه من مجلسي البرلمان، إلى ثاني أكبر الأحزاب فيه، في خطوة مهمة نحو مستقبل السلطة التي خططوا لها، لتصبح هذه الساعة بالذات مطواعة للخطة التي وضعها «هتلر» للوصول للسلطة، بعد ما أفلح رهانه على أفكاره والحصول على التقنين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٨)
ساعة السلطة

في الساعة الثامنة من صباح الثلاثين من يناير عام ١٩٣٣، جلس «أدولف هتلر» على طاولته الخاصة في غرفة منزله يحتسي الشاي، بعدما أمضى الليلة كلها بلا نوم، كيف سينام الآن، لقد حدث شيء هو الأهم في حياته، فعلى عكس الماضي الذي زادت انتكاساته هناك أمر مفرح.. جلس «هتلر» طوال الليل يسترجع ذكرياته، ولكن لم يكن حزينًا، إنها ليلة سعيدة، فلقد تحقق الحلم، وبعد ساعة من الآن سيذهب لتسلُّم المنصب المهم، منصب المستشار، التقط «هتلر» أنفاسه ككناية عن استجمام محارب بعد خوض معركةٍ طاحنة، حيث قاتل حتى أصبح الحزب قانونيًّا، وأصبح كتلة لا يستهان بها في البرلمان، ومن ثم أصبح أكبر كتلة سياسية على الإطلاق، حتى وصل إلى هذه اللحظة بعد كفاحٍ طويل من أجل شغل منصب الاستشارية.. كل هذا تم بفضل تخطيطاته اللولَبية التي أنعشت الحزب بعد خموله، هذا هو «هتلر» الذي آمن بنفسه وبأفكاره، والذي حلم دائمًا بالسلطة والنفوذ على عرش الرايخ الألماني، والرايخ الألماني هو الاسم الأصلي لألمانيا، الذي لم يبدله النازيون عندما جاءوا للسلطة بقيادة «هتلر»، وهو الاسم الذي سُمِّيت به منذ عام ١٨٧١، وبجانب هذا الاسم الرسمي استعمل الحزب النازي أسماء أخرى منها الرايخ الثالث، ورايخ الألف عام لوصف ألمانيا.

جلس يفكر في كل ما مرَّ، وكيف وصل لكل هذه الخطوات الناجحة، وتذكر عندما كانت قد زادت ثقته في نفسه، بعدما ضمن له ولرفقائه مكانًا في البرلمان، وأصبح الساخرون منه بالأمس مذهولين به اليوم.. سعى «هتلر» في السنوات الأخيرة بكل ما أوتي من قوة، لرفع أي دعاوى قُدمت من الحكومة لحظر الحزب النازي، فبالفعل كان الحزب قانونيًّا، لكن ما زال محظورًا على أفراد الجيش وقوات الدفاع الانضمام إليه، فقرر «هتلر» عدم التخلي عن المؤمنين به وبحزبه مهما كلفه الأمر..

وفي سبتمبر من عام ١٩٣٠، اتُّهِم ضابطان صغيران من ضباط الجيش بالانتساب إلى عضوية الحزب النازي، وعند المحاكمة اعترف الضابطان بانضمامهما للحزب، وبررت هيئة الدفاع ذلك بأن الحزب النازي يجب ألا يكون محظورًا على أي شخصٍ منتمٍ لقوات الدفاع الوطنية؛ بسبب تقنينه، حينها قام ممثل الادِّعاء بإلقاء خطبة طويلة وعريضة، تفيد بأن الحزب النازي يمثل قوة ثورية خطيرة على الحكومة، ويجب ألا ترتبط بالمؤسسات الحكومية، اعترض أحد المحامين في هيئة الدفاع، وطلب تأجيل الجلسة لاستدعاء «أدولف هتلر»

بصفته رئيس الحزب؛ للشهادة في هذه القضية، ومحاولة تبرير أن هذا الحزب قانوني، ويحترم سيادة القانون.

بالفعل عُقدت الجلسة المؤجلة للنظر في القضية، والتي كانت في «لايبزيغ»، وحضر «هتلر» في محاولة لحسم معركةٍ سياسيةٍ جديدة، وبعد ما نودي عليه، صعد على منصة الشهود ليلقي خطبة جديدة كالمعتاد، حاول فيها إثبات أن حزبه قانوني، بل وأنه قد شرع في المنافسة على الحكم بشكلٍ قانوني، وأن المقولة الشهيرة المأخوذة عنه بشكلٍ سلبي وهي مقولة «ثورتنا الوطنية»، ما هي إلا مقولة سياسية بحتة، تُشير إلى الرغبة في التغيير السياسي لا الثورة؛ للوصول بالوطن إلى مكانةٍ أسمى، بل وكرر مرارًا وتكرارًا أن سياسة حزبه لا تختلف إطلاقًا عن السياسة النبيلة لقوات الدفاع الوطنية، وهي سياسة حماية الوطن وحبه وحفظ الأمن والنظام.. برغم فشل الحُجَّة وعدم تبرئة الضابطين، نجح «هتلر» في إقناع الحضور والعديد من الضباط الكبار والصغار بأفكاره الوطنية، وشاعت القضية في الصحف القومية؛ ليتعاطف مع أفكار «هتلر» هذه المرة غالبية ضباط الدفاع الوطني، فيما برر ذلك «هتلر» بأنه انتصار سياسي جديد.

ذهب بعد ذلك ليباشر أعمال الحزب ومتابعة ما يحدث من أجل كسب نجاحاتٍ متتالية، واستغل في ذلك الإجراءات الحالية داخل الدولة، فبعدما حاول المستشار «هاينريش برونينج» تحسين الأوضاع بدايةً من استجابته للمعارضة التي طالبت بحل البرلمان، والذي أسفر عن صعود النازيين، توجَّه بالفعل لفرض إجراءات تقشفية ساعدت بكل صراحةٍ ووضوح في دعم الميزانية الاقتصادية وتعافيها بشكلٍ ملحوظ، ولكن حدث ما هو معهود في مثل هذه الحالات، وهو تذمر الشعب؛ بسبب سياسة التقشف التي زادته جوعًا من بعد جوع، ليستغل «هتلر» وحزبه صوت المواطنين المعارضينً اندمج النازيون داخل المسيرات المناهضة المكونة من المزارعين والعمال، ليحث أفراد الطبقة المتوسطة والمحاربين القدامى على الاستنكار، مسترجعًا ذكريات بداية الأزمة التي أنهكتهم لسنوات، والكساد العظيم الذي خرب بلادهم، وكانت خطوة ناجحة مضى فيها «هتلر» قُدمًا، ولكن في هذا الوقت استوقفه حادث مأساوي ربما سيكون بمثابة انتكاسة جديدة، فلقد انتحرت ابنة أخته «جيلي روبال».

أخت «هتلر» من ناحية الأب «أنجيلا» كان لها فتاة تُدعى «جيلي»، وكانا في هذا الوقت يعيشان معه في ميونيخ بمنزله منذ عامين، وكان يُعتقد أن «هتلر» على علاقة غير شرعية بـ«جيلي» التي تصغره بتسعة عشر عامًا، وفي أحد أيام سبتمبر من عام ١٩٣١ قامت بالانتحار داخل غرفتها الخاصة باستخدام

مسدس «هتلر» الخاص، حزن «هتلر» لهذه الحادثة جدًا، وعطلته كثيرًا عن ممارسة حياته الطبيعية، ليدخل في نوبة حزنٍ عميق.

وبعدما استفاق «هتلر» عاد للمعركة السياسية، عندما جاءت دورة الانتخابات الرئيسية الخاصة لعام ١٩٣٢.. وقتها زاد طموح الشاب بشكل متصاعد، حيث فكَّر في شغل منصب رئيس البلاد، نعم، كان «هتلر» يحلم بترشيح نفسه كرئيس أمام المرشح المُسنِّ «باول فون هيندنبرج»، ولكن بدا هذا مستحيلًا؛ فمنذ أن قدِم «هتلر» إلى ألمانيا في عام ١٩١٣ حتى هذه اللحظة لم يحصل على الجنسية الألمانية، برغم انضمامه للجيش، وبرغم كل هذا الشوط الذي قطعه لنصرة الحزب النازي، فحتى هذه اللحظة لم يستطع «هتلر» الترشح لأي منصبٍ عام، وفي خطوة ناجحة وذكية، تفاوض مع حكومة ولاية «دوقية براونشفايغ لونيبورغ» التي كان الحزب النازي مشتركًا معها، وبعد التمهيد أسندوا إليه منصبًا إداريًا صغيرًا جدًّا، ونتيجة لذلك بعد وقت قليل وفي فبراير في عام ١٩٣٢، قاموا بمنحه الجنسية رسميًّا بموجب القانون الذي كان يسمح للولايات الألمانية بمنح الجنسية الألمانية لمواطنيها في الداخل، ليجتاح «هتلر» هذا العائق المهم، ويتسنى له بموجب حصوله على الجنسية الترشح في أي منصبٍ مهما علا أو صغر حجمه.

على الفور حاول «هتلر» استيفاء كل الشروط، وجهَّز أوراقه للترشح ضد «هيندنبرج» في تحدٍّ تام، فبرغم من أن من بين المرشحين ضد «هتلر» أحد الشيوعيين، وآخر يميني متطرف، كانت العقبة الوحيدة والمخيفة بالنسبة له هم مناصري «هيندنبرج» الذين يُمثلون جبهة عملاقة، فكانت الفئات الداعمة لهذا العجوز تتمثل في أنصار الحكم الجمهوري وأحزابهم الذين خسروا معركة البرلمان الأخيرة، محاولين الرجوع باستماتة، كما كان من مؤيديه أنصار الحكم الملكي والكاثوليكيين.. رأى «هتلر» أن المعركة ضخمة، ولذلك قرر استعمال مواهب حزبه المعروفة، التي تتلخَّص في الخطابات والدعايات الإعلانية، وخرجت حملة كبيرة عنوانها «هتلر فوق ألمانيا»، كان عنوانًا غريبًا ولافتًا للنظر، يرمز بشكلٍ بارز لطموح «هتلر» ولديكتاتوريته، وجابت تلك الحملة غالبية الولايات، وكانت تتسم بوضع الإعلانات في السماء بشموخٍ واضح، ليتواجد «هتلر» بشعاراته في أماكن شتى محدّثًا الناس في أماكنٍ مختلفة في نفس الوقت بدلًا من السفر والتنقل، كان هذا بمثابة تكتيك دعائي حديث لم يُعمل به من قبل.

جاء شهر إبريل حيث موعد الانتخابات، لينجح «هتلر» و«هيندنبرج» في الجولة الأولى، ثم بعد أيام تقع الجولة الثانية للفائزين بأعلى نسبة أصوات، لتُسفر عن خسارة «هتلر» أمام هيندنبرج.. لم يحزن «هتلر» ولم ينتكس كعادته، وبرر لنفسه أنها مجرد معركة، فلقد اتضح بالفعل أن برغم خسارته، لا يمكن

إغفال علوِّ نجمه بشكلٍ بارز كمنافس مخيف وكشخصية فرضت نفسها للسيادة على الساحة الألمانية.. عاد «هتلر» إلى حزبه ليشاهد ما يدور بعد نجاح منافسه، الذي بدا وكأنه منساق لأفكار بطانته، فالرئيس الجديد «هيندنبرج» ربما أقنعه مستشاروه بأخذ خطواتٍ حاسمة مع المستشار الألماني الذي ما زال موجودًا في منصبه «هاينريش برونينج»، كان سبب ذلك أن المستشار «برونينج» ديمقراطي، ويميل إلى الإصلاح، بينما الرئيس الذي أتى بفضل فلول الحكم الإمبراطوري كان يميل للديكتاتورية والاستبدادية والحكم اليميني الحاد، وبعد الكثير من المضايقات في وقتٍ بسيط، قرر «برونينج» تقديم استقالته هو ووزارته في مايو من عام ١٩٣٢.. على الفور قبِل الرئيس الاستقالة، وبعد الفحص والبحث عن شخص استبدادي يملك أفكارًا مناسبة، تم تعيين «فرانز فون بابن» في منصب مستشار البلاد، والذي قرر عقد انتخابات برلمانية جديدة في يوليو.. كان السبب في هذا عدم تأييد غالبية أحزاب البرلمان لوجوده كمستشار، فلم يكن من هؤلاء الأحزاب من يدعم أفكاره سوى حزب «الشعب الوطني الألماني المحافظ» فقط، والذي كان ينتمي إليه «فرانز» أصلًا.

وفي يوليو ١٩٣٢ جاءت الأقدار مُحملة بنسائم النصر للنازيين، فلقد أسفرت الانتخابات البرلمانية الجديدة عن تحقيق أعظم انتصارٍ للحزب منذ نشأته، ليصبحوا في المركز الأول كممثلين للبرلمان، بعدما فازوا بمائتين وثلاثين مقعدًا.. أجبر هذا النصر المستشار الجديد «فرانز» على مشاركة النازيين في الوزارة؛ بسبب كتلتهم التي أصبحت هي الأكبر، ليعرض على «هتلر» شغل منصب نائب المستشار الألماني، وتشكيل حكومة جديدة على أساس برلماني.. جاء الرد من «هتلر» الذي تعلَّم من أخطائه القديمة بالرفض، فـ«هتلر» الآن لن يرضيه منصب أقل من المستشارية نفسها، واتجه نحو فكرة خبيثة بعض الشيء، حيث تفاوض في السر مع حزب «فرانز»، وهو حزب الوسط الذي أصبح يكره «فرانز» المنشقّ عنهم، والذي أصبح كل همه إسقاطه بسبب ارتداده، وبمجهودات مضاعفة للحزبين المتحدين تم اصطناع مآزق مُحكمة لـ«فرانز» في معارك سياسية حادة، وأثناء تخبُّط «فرانز» قدم «هتلر» طلب للرئيس يشرح فيه رغبته في تولي منصب المستشار، بدلًا من «فرانز» الذي اتضح إخفاقه.. كان هذا طلب بموجب أن «هتلر» هو رئيس الحزب الأقوى في البلاد، ولكن جاء ردُّ الرئيس «هيندنبرج» بالرفض التام، والانزعاج بسبب أن المتقدم يُعتبر أقصى منصب قد وصل إليه هو منصب وكيل عريف في الجيش، وأنه عاش حياة بوهيمية، ليقرر الرئيس البحث عن بديل.

أصبحت حكومة المستشار «فرانز» على حافة الهاوية بعدما تقرر حجب الثقة عنها، وبعد حلِّها تم التصويت حول حلِّ البرلمان نفسه، ليؤيد نوابه قرار الحل

بنسبة ٨٤٪، وتم التحضير لإجراء انتخابات برلمانية جديدة في نوفمبر، لتأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فلقد فقد النازيون بعضًا من مقاعدهم، ولكن من رحمة القدر أنهم ما زالوا محتفظين بوضعهم كأكبر حزب في الرايخستاج؛ بسبب حصولهم على نسبة ٣٣.١٪ من إجمالي أصوات الناخبين.. رأى المستشار «فرانز» نفسه في مأزقٍ جديد، حيث كان سبب دعوته لحل البرلمان من الأساس هو رغبته في الحصول على غالبية الأصوات، لتأتي العواقب معاندة.. بعد صمود النازيين ظهر «فرانز» ليُطالب بحل البرلمان مجددًا، في البداية وافق الرئيس على طلبه، لكن بعدما ظهر على الساحة الجنرال «كورت فون شلايخر» الذي قرر هو والجيش سحب تأييدهم له، ورفض حلِّ البرلمان مجددًا، تراجع الرئيس عن دعم «فرانز»، وقام بإعفائه من منصب المستشار، ليُعين بدلًا منه الجنرال «شلايخر» في هذا المنصب الحساس.. تسلم «شلايخر» منصب المستشار بعدما وعد الرئيس بسحق النازيين سياسيًّا، وإسقاط شعبيتهم، والحصول على الأغلبية للحكومة، وأمضى في التفاوض السري مع المتمردين والمنشقين عن الحزب النازي والمناهضين لسلطة ونفوذ «هتلر» بزعامة جريجور شتراسر، وضم في تلك الجبهة المعارضة بعض الاتحادات العمالية، والكثير من الديمقراطيين الاشتراكيين المعارضين لأفكار «هتلر» اليمينية.. كثف المستشار «شلايخر» جهوده في محاربة «هتلر» والنازيين، وعند قدوم يناير من عام ١٩٣٣، اعترف «شلايخر» بفشله حينما ذهب للرئيس، وطلب منه حلَّ البرلمان الذي أعرض عن حلِّه سابقًا، بعدما فشلت محاولاته التي رتب لها.

في هذه الأثناء كان الحزب النازي مشغولٌ بأزمته المالية، التي بدت عواقبها كنتيجة للإسراف المفرط على الدعايات البرلمانية، أضف إلى ذلك دعاية «هتلر» الجنونية، ليبتعد الحزب عن الساحة السياسية مؤقتًا.. أما المستشار «شلايخر» فكان على موعدٍ مع حربٍ شرسة مع «فرانز» المستشار الأسبق، الذي قرر الانتقام والثأر منه، فلقد كوَّن جبهة كبيرة تعمل بكل حماسة من أجل الإطاحة به، بمساندة الكثير من القضاة وحزب الشعب الوطني، ومجموعة لا يستهان بها من رجال الأعمال الأثرياء، ليقرروا دعم الحزب النازي ماديًّا، ونجدته بعدما كان على وشك الإفلاس لضرب «شلايخر» به، وبسبب أن رجال الأعمال في هذا الوقت كانت كلمتهم مسموعة؛ بسبب رغبة السلطة في دعمهم.

توسط الصفوة منهم عند الرئيس، في محاولة مستميتة لحثه على تعيين «هتلر» رئيس الحزب النازي في منصب المستشار، بالفعل وافق الرئيس على تقلُّد «هتلر» منصب المستشار العام، ليكون «هتلر» لأول مرة على موعدٍ مع السلطة، وبدأ في تجهيزه لتشكيل حكومة ائتلافية يشكلها الحزب النازي وحزب الشعب الوطني، وبعد دعم «فرانز» لـ«هتلر» الذي كان يريد

أن يجعل من «هتلر» مستشارًا صوريًا يعمل كما يريد هو، أصبح هو نائب المستشار، وبعد الكثير من الاشتراطات والمفاوضات حارب «هتلر» من أجل تقلُّد زملائه في الحزب العديد من المناصب المهمة، واستطاع النازيون أن يصلوا إلى مناصب رئيسية في الوزارة، وأصبحت كل الطرق تؤدي إلى السلطة التي حلم بها النازيون، وخطط لها «هتلر»، بعدما أصبح المستشار الألماني بعد سنواتٍ من الإخفاقات والانتكاسات.

أوشكت الساعة على الانتهاء، كانت ليلة طويلة لا تمر، لقد اقتربت الساعة الآن من التاسعة، وجاء الموعد المنشود لتأدية اليمين، وتسلم المنصب رسميًّا، الآن تحقق الحلم، الآن «هتلر» على أهبة الاستعداد، فلقد ارتدى ملابسه، وعلَّق قلادة الصليب الحديدي، ثم وصل إليه حرسه الشخصي، وهم قوة أمن تابعة لوحدات النخبة النازية، ليتجهوا به نحو الرايخستاج لتأدية اليمين، وبعدها سيتم التحضير لإلقاء أول خطاب له كمستشار للدولة غدًا في ١٠ فبراير، لتصبح هذ الساعة هي أول ساعات سلطة «هتلر» الطَموح.

(٩)

ساعة التمكين

الساعة الآن التاسعة مساء يوم ٣ سبتمبر من عام ١٩٣٤، يجلس «هتلر» في مكتبه بمبنى المستشارية، ينتظر التقارير التي كلف بها رجليه «هينريش هيملر» و«هيرمان غورينغ»، وهي تقارير تُلخص حالة المعارضين، ففي هذا العام كان قد كلفهم «هتلر» بمهمات عصابية عديدة، على رأسهم عملية «ليلة السكاكين الطويلة»، وعلى مرِّ الشهور السابقة كانا قد نفذا ما أمرهما به «هتلر»، ويتم الآن تحضير التقرير الشامل في هذه الساعة بالذات عن كل ما حدث وما سيحدث في سبيل فرض سيطرة الزعيم الذي حاول إخراس المعارضين من أول ساعة له في الحكم، حيث كانت الأسابيع الأولى للمستشار حادة جدًا، بدأت بصدِّ كل محاولات الخصوم السياسيين الفوز بالغالبية في مقاعد البرلمان، ففور توليه المنصب كان قد علم «أدولف» من الوهلة الأولى أن حربًا جديدة قد بدأت، لكنها لا تشبه كل الحروب السابقة، وبسبب عدم وجود أي حزب يتصدر غالبية مقاعد البرلمان، أقنع «هتلر» الرئيس «هندينبرج» بحلِّه مجددًا، وكأن البرلمان هو اللعبة المعتادة، ففي كل أمر يصدر في هذه السنوات تجد حل البرلمان مصاحبه.

وافق الرئيس العجوز على فكرة «هتلر»، وقرر إجراء الانتخابات في شهر مارس، وصدر قرار بحل البرلمان، ولكنه في هذه المرة لم يُحلَّ بل احترق، نعم، نشب فيه حريق ضخم في ٢٧ فبراير عام ١٩٣٣ في تمام الساعة ٩:٢٥ مساءً، وعلى الفور اتجهت وحدات الدفاع المدني والمطافئ؛ لإخماد الحريق..

كانت قد بدأت النيران من قاعة الجلسات لتنتشر سريعًا إلى القاعة الكبرى التي يجتمع فيها النواب.. هزَّ الحادث الشارع السياسي، مما أجبر الشرطة على تكثيف الجهود في البحث والتحقيق، ليكتشفوا أن وراء الحادث شابًّا شيوعيًّا هولندي الجنسية وعاطلًا عن العمل يُدعى «مارينوس فان دير»، كان قد تسلل مؤخرًا للبلاد من أجل قضاء مهماتٍ سياسيةٍ سرية.

رغم الخسارة الكبيرة والتحدي التام للسلطة من قبل منفذ الحادث، لم يتأدَّ «هتلر» ولا حكومته؛ جرَّاء ما حدث، بل استغلَّ تلك الحادث لصالحه، فوقتها صرخ النازيون قائلين إن الشيوعيين يُهددون مسيرتهم نحو التقدم، صاحوا متهمين الشيوعية بعرقلة عملية التنمية، بل وقالوا إن الشيوعيين الآن يحضِّرون لمؤامرة كبيرة ضد الدولة.. هاجت السلطات، وثارت في وجه كل من اتبع الفكر الشيوعي، وقامت بتنفيذ عمليات اعتقال لعدد كبير من القادة الشيوعيين، ثم جاء دور «هتلر» نفسه الذي طلب من الرئيس تمرير مرسوم يُمكِّن حكومته من تنفيذ حملة اعتقالات واسعة لكل الشيوعيين، وبعدما وافق الرئيس بالفعل صدر مرسوم تحت اسم «مرسوم حريق الرايخستاج» في ٢٨ فبراير، كان هذا المرسوم هو السيف الذي قطع رؤوس الشيوعيين، وحرمهم من حقوقهم الأساسية، ومنعهم من المثول في البرلمان، وحلّ أماكنهم، ومن ثم قمع الحزب الشيوعي الألماني وغيره من الجماعات الشيوعية، ليواجه الشيوعيون الاعتقال أو النفي أو الاغتيال، وامتدت اعتقالات «هتلر» العشوائية لتصل إلى أعضاء البرلمان الذين ينتمون للفكر الشيوعي؛ حتى إن كانوا غير معترفين به رسميًّا.

وفي ٢١ مارس تم التجهيز لحفلٍ كبير، وهو شبيه بمراسم افتتاح للبرلمان الجديد، والذي تم في الموقع العسكري التابع لكنيسة «بوتسدام» كبديل مؤقت للبرلمان المحترق، والذي أعدَّت فيه الحكومة مراسم وطنية تُظهر مدى الحب والتصالح بين الحركة النازية الثورية و«بروسيا القديمة»، ظهر «هتلر» في هذا الحفل بزيٍ مختلف، ووجهه يحمل حماسة زائدة، وهو يقدِّم التحية بتواضعٍ شديد لسيادة الرئيس «هندينبرج».

جراء هذه الأحداث العنيفة، سيطر الحزب النازي على المقاعد، وقفز قفزة كبيرة للأمام، ليصبح هو صاحب الأغلبية الكاملة، ويعزز سلطة «هتلر» على البلاد، زادت الدعاية في البلاد التي أظهرت أن الشيوعيين هم الأشرار، ليصبح الشيوعيون هم الفزاعة الكبرى، واستغل النازيون الموقف بشكل كبير، لتأتي الانتخابات التي تقرر عقدها بعد ترميم البرلمان في ٦ مارس، ليظهر الحزب النازي في نجاحٍ جديد، بعدما حصل على نسبة ٤٣.٩٪ من الأصوات، ويصبح رسميًّا هو التكتل الأكبر في البرلمان، وله السيادة على كل القرارات، وبرغم

ذلك اعتبر النازيون هذه النتيجة هزيمةً وليست انتصارًا؛ بسبب طموحهم في تحقيق أغلبية مطلقة، فبرغم هذا التقدم ما زال مفروضًا عليهم الحفاظ على الائتلاف الذي كان يجمع حزبهم بحزب الشعب الوطني، وكالعادة لم تتوقف طموحات «هتلر» ولا الحزب النازي، فحاولوا التمرد على هذا الائتلاف، وخرجت حكومة «هتلر» لتوجه للرايخستاج الجديد قانونًا حديثًا، أطلقوا عليه اسم «قانون التمكين»، وهو ببساطة قانون يسمح بمنح مجلس الوزراء سلطات تشريعية لمدة أربع سنوات، في انحرافٍ تام عن مسار الدستور.. واجه هذا القانون صعوبات كبيرة خصوصًا بالبرلمان، إذ تطلَّب تفعيل هذا القانون الحصول كأقل نسبة على ثلثي نوابه، لتظهر مساعي الحزب في التفاوض مع الأحزاب الأخرى من أجل التأييد، واتجهت الأنظار إلى حزب الوسط، الذي يملك مقاعد كثيرة بالبرلمان، والذي وافق على الدعم بعد تحقيق شروطه والتي تتلخص في (التعهد بحصول الكنيسة على الحرية التامة، وعدم وقوع أي قيود عليها - قيام الولايات الألمانية باتفاقيات مكتوبة للتعهد بذلك، ومساعدته في تنظيم شئون الكنيسة - الضمان الكامل لاستمرارية الحزب وعدم حله في أي ظرف سياسي)، وبعد إبرام الاتفاق جاءت اللحظة الحاسمة في ظل الاعتراضات الملتهبة بين أفراد الشعب على هذا القانون.

ولأن الرايخستاج لم تكتمل عمليات ترميمه بعدُ اجتمع النواب في المكان البديل، وبسبب التظاهر في الخارج على ذلك القانون تم تأمين الجلسة بأفراد من كتيبة العاصفة بعدما اشتدَّت موجة الغضب، وزادت الشعارات والتهديدات للنواب المتوافدين على المبنى.. بدأت المناقشة حول القانون، ليعلن حزب الوسط موافقته كما تعهَّد، ثم جاء دور الديمقراطيين الاشتراكيين، وقام وتحدث بالنيابة عنهم «أوتو فيلز» الذي أعرب عن قلقه حيال القانون الذي ينسف بكل قواعد الديمقراطية، وبعد ساعات طويلة جاء وقت التصويت، وبدا فيه نجاح تخطيطات الحزب النازي بشكل واضح، حيث وافقت كل الأحزاب على القانون بالإجماع، ما عدا فقط الديمقراطيين الاشتراكيين، أما الشيوعيون وبعض الديمقراطيين الآخرين، فقد تم التخلص منهم سابقًا فلا مكان لهم، لتنتهي تلك الجلسة الطويلة بفرض قانون التمكين الذي سيحوِّل حكومة «هتلر» إلى حكومة ديكتاتورية، ولكنها ديكتاتورية من نوعٍ ذكي؛ فهي حكومة ديكتاتورية تعمل تحت مظلة القانون.

وصل النازيون لمرحلةٍ متقدمةٍ جدًّا من محاولة ميلاد ألمانيا النازية، والتخلص من أي قيود أو مما تبقى من قيود، فالآن اتحدت السلطتان التشريعية والتنفيذية في يد «هتلر» يفعل بهما ما يحلو له، لا أحد يستطيع اعتراضه، حتى إن سنَّ في كل دقيقةٍ قانونًا جديدًا.. بهذا الشكل نجحت حكومة «هتلر» في نسف ما تبقى من معارضة، أما الأحزاب الذين عارضوا هذا القانون بالبرلمان

فقد جاء دورهم في العقاب، فلقد أعلنت الحكومة حظر نشاط الحزب الشيوعي الألماني، والحزب الديمقراطي الاشتراكي، أما باقي أحزاب المعارضة الأخرى ففقد تم إجبارهم على حل أنفسهم بأنفسهم، وعندما جاء منتصف يوليو، لم يكن في ألمانيا حزب أو جمعية أو جماعة معارضة على الإطلاق، ليتم الإعلان رسميًّا أن الحزب النازي هو الحزب الشرعي الوحيد في ألمانيا، وفي محاولة من الفوهرر «أدولف» لتوحيد الدولة والولايات، قام بإلغاء الحكم الذاتي التي كانت حكومات الولايات الألمانية تتمتع به، لتصبح الدولة مركزية، ويعيَّن على كل ولاية مديرون، كما قام بدمج اتحادات العمال مع الاتحادات الفيدرالية للموظفين في منظمة يرأسها هو بنفسه، وبهذا الشكل اتحدت ألمانيا.

استمر «هتلر» في محاولات التخلص من كل قيد سيعرقل سيادته، وكان سلاحه الأوفى والأهم الذي صنعه بيده منذ سنوات هو «كتيبة العاصفة» التي أصبح لها السيادة الشرطية وواجب حمايته، فلقد تطور الآن هذا الجناح شبه العسكري للحزب النازي، وطالما كان له الدور الأكبر في حماية الحزب، وكان له فضل كبير في صعود «أدولف» إلى السلطة، فأفرادها مؤمنون جدًّا بهتلر ومتفقون معه على العداء الشرس تجاه اليهود والشيوعيين والرأسماليين، وقد تمكّن أعضاء العاصفة من النيل من هؤلاء في الفترة الماضية بشكل كبير، وصلت أفعالهم للانتقام من الخصوم في وضح النهار، وكان أعضاء تلك الكتيبة مخلصين ومجتهدين، راغبين في الحصول على بعض الرتب العسكرية الداخلية الزائفة على أعضائها، أما «هتلر» فقرر أن يعتمد هذه الرتب فيما بعد.

كان «هتلر» يمضي قُدمًا كالمحراث في الأرض، يحرث كل خصومه، وكل من يعوقه عن النفوذ، لدرجة أنه أرسل تلك القوات ليلًا لمنازل وزرائه المخفقين؛ لإجبارهم على الاستقالة الفورية، ثم جاء دور حليف الأمس «فرانز فون» الذي دعم الحزب النازي من الأساس في محاولة لجعل «هتلر» مستشارًا صوريًّا، والذي ما زال في منصبه كنائب، ليتم الإطاحة به في الحال، وفي ظل هذه الوقائع المخيفة ظهرت «ليلة السكاكين الطويلة».

و«ليلة السكاكين الطويلة» أو «عملية الطائر الطنان» هي عملية تطهير دموية تمت بأوامر من «هتلر» بين ٣٠ يونيو و ٢ يوليو ١٩٣٤، نفذ فيها الفوهرر عمليات اغتيال متلاحقة بتشجيع ومساعدة ودعم من «هينريش هيملر» و«هيرمان غورينغ»، وكانت عمليات عصابية خارجة عن القانون، تم تنفيذها من أجل إحكام سيطرته بقبضة من حديد، وفي نفس الوقت كانت ردًّا رادعًا لانقلاب داخلي، ربما كان سيقع داخل كتيبة العاصفة نفسها بقيادة زعيمها «إرنست روم»، الذي انشقَّ عن «هتلر» بعدما كان من أهم الحلفاء

والداعمين، والذي تم اغتياله في هذه الليلة.. تمَّت عمليات القتل والتطهير تحت قيادة «هيملر» و«هيرمان» و«الجيستابو» (الشرطة السرية)، وكان من بين القتلى أيضًا أعضاء بارزون في الحزب النازي نفسه كانت توجهاتهم لا تعجب «هتلر» كالمشاغب الدائم «جريجور شتراسر»، إضافةً إلى سياسيين محافظين ومناهضين للنازية مثل المستشار الذي سبق «هتلر» مباشرة كما ذكرناه الجنرال «كورت فون شلايخر»، وشملت هذه العملية الموسعة كل أعداء «هتلر» على الإطلاق، فهي كانت بمثابة حرب لتسوية الحسابات مع الأعداء القدامى والحاليين.

بهذا الشكل تخلص «هتلر» من كل الخصوم جميعهم دون بقاء شخص واحد، وبعدها توفِّي الرئيس العجوز «هيندنبورج» في ٢ أغسطس ١٩٣٤، ليستغل «هتلر» خلو مقعد الرئيس، وبدل من إجراء انتخابات رئاسية جديدة، وافق مجلس الوزراء الذي يرأسه «هتلر» نفسه على قانون يحل سلطة رئيس الدولة ويضعها في يده باعتباره «الفوهرر» والمستشار في وقت واحد.. أصبح «هتلر» الآن رئيس الدولة والقائد الأعلى للقوات المسلحة، بالإضافة لكونه المستشار.. فرض «هتلر» سيطرته على كل القطاعات، وفتش بداخلها عن كل ما تبقى من القديم ليدفنه، وغيَّر اليمين التقليدية الذي تُقدمه القوات بالولاء، ليصبح يمين بالولاء لـ«هتلر» بدلًا من ألمانيا، وفي استفتاءٍ عام تم إجراؤه في منتصف أغسطس، ظهر النتيجة لتزيد من نفوذ «هتلر» بعدما بث روح الرعب فيمن يريد أن يعارضه، فلقد حظيت التصرفات التي قام بها «هتلر» بموافقة نسبة ٨٤.٦٪ من الناخبين في هذا الاستفتاء.. لم يجرؤ أي شخص على الاعتراض تجاه ما يحدث مهما كان منصبه، فـ«هتلر» استعمل كل شيء حتى القانون في إحكام قبضته على سير الأمور، فبالقانون استطاع «هتلر» التخلص من كل الوسائل الشرعية وغير الشرعية التي يمكن عن طريقها استبعاده من السلطة، بل ونسف كل أشكال الرقابة التي تهدد سلطته.

وبعد مرور الساعة جاءه رجاله ومستشاروه، الذين قدَّموا إليه التقارير التي تفيد بتمكينه على البلاد بشكلٍ حتمي سواء بالقانون أو غير القانون، جاءت عناوين تقاريرهم في هذه الساعة المهمة، «أنه من الآن وصاعدًا، لا أحد فوق سلطة «هتلر» حتى القانون نفسه».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(١٠)
ساعة التسلح

الساعة الآن الثانية عشرة من ظهيرة يوم ١٠ يونيو ١٩٣٥، إنه اليوم الأسعد في حياة «هتلر» السابقة كلها على حد وصفه لمدى سعادته بها، فالآن يتم توقيع المعاهدة البحرية بين بريطانيا وألمانيا (a. g. n. a) في العاصمة البريطانية لندن، والذي اعتبره بداية نصرٍ جديدٍ في محاولة لكسر عائق معاهدة «فرساي»، خاصةً الفقرة الخامسة التي تخص التسليح وعدد أفراد الجيش، حقًّا كان «هتلر» يحلم بعقد تحالفٍ عسكريٍ مع بريطانيا، ولم يستطِع، لكنه اعتبر هذه المعاهدة البحرية نصرًا مؤقتًا، فلقد كافح على مدى العامين الماضيين من أجل إعادة تسليح بلاده من الأساس.

كانت قد ظهرت مساعي «هتلر» الجادة نحو إعادة التسليح، والتحايل على معاهدة «فرساي» منذ بداية حكمه، وكان هذا واضحًا منذ اجتماعه الأول مع مجلس وزرائه في عام ١٩٣٣، عندما أخبرهم بأن أولوية الإنفاق على الشئون العسكرية هو المقام الأول قبل حل مشكلة البطالة نفسها، وطلب منهم البحث حول إيجاد حلول من شأنها إعادة التسليح، فقابله رئيس البنك المركزي الألماني والمستشار السابق للبلاد «هانز لوتر» عارضًا على حكومته تقنين حد قانونيّ قيمته مائة مليون مارك ألماني؛ لتمويل إعادة التسلح، ولكن قابله «هتلر» بالرفض، حيث رأى أن ذلك المبلغ قليل جدًّا، وطلب منه البحث عن حيلة لزيادة المبلغ، وعندما ظهر عجزه قام «هتلر» بإعفائه من منصبه في مارس عام ١٩٣٣ وقام بتعيين الوزير «هيلمار شاخت».

تسلم «هيلمار» منصبه الجديد وعليه عائقٌ كبير، وهو التعهد بتقديم ١٢ مليار مارك في الخمس سنوات التالية، واتفقا على أن يقدم ما قيمته ١٢ مليارًا من الماركات الألمانية من السندات المعروفة باسم «ميفو بيلز»، حتى يستطيع «هتلر» الإنفاق على التسلح، وبعد البحث والمشاورات والتفكير في حيلٍ متنوعة، توصل «هتلر» و«هيلمار» والنازيون إلى حلولٍ ذكية، منها سياسة التلاعب بالعملة؛ للتأثير على الأسعار في الأسواق التجارية، بجانب إصدار العديد من السندات المشكوك في أمرها، كسندات ميفو بيلز التي ذكرناها، وقد اعتمد في ذلك على أسلوب تعويم الديون وزيادة عدد أفراد القوات المسلحة.. وفي نفس العام ١٩٣٣ هاجم النازيون مخازن تابعة لليهود واستولوا عليها، ثم نشروا إعلانات موسعة تطالب بمقاطعة جميع الأنشطة التجارية التي يمتلكونها؛ لأنهم على حد زعمهم يتلاعبون بسعر المواد، وأسفرت هذه المقاطعة عن مغادرة أعداد كبيرة من الأسر اليهودية، وبعدها اتجهت الحكومة لفرض سياسات جديدة لمن تبقى منهم.

استمرت الحكومة النازية قدمًا في التسلح، وفي اضطهاد اليهود وتحصيل الضرائب المرتفعة منهم، مبررين ذلك أمام الشعب بأنهم من أهم أسباب التأخر الاقتصادي، ليستمر الوضع هكذا لمدة عامين، حتى قابلت الحكومة أزمة كبرى في صيف عام ١٩٣٥، فنتيجة للتضخم المالي الشديد والحاجة لاستخدام العملة الصعبة لشراء المواد الخام التي تُصنع منها الأسلحة، لم يتبقَّ في الخزانة العامة سوى خمسة ملايين مارك فقط، كما أن هناك أزمة جديدة بخصوص مشكلة خطر نقص الطعام التي باتت تحتاج إلى إتاحة مبلغ ٣٠٠ ألف مارك في اليوم الواحد، ومع محاولة تدارك الموقف وتهدئة الشارع الألماني، قدَّم «هيلمار» مقترحًا لـ«هتلر» مفاده وجوب إيقاف الاضطهادات الواضحة ضد اليهود الألمان خصوصًا من جانب الشرطة، وأن الازدهار الاقتصادي الجديد وإعادة التسلح يتعارضان مع سياسة معاداة السامية على الأقل في هذا الوقت بالذات، وأن الاضطرابات الاقتصادية الحالية لا تحتمل معاناة الشارع بأي شكلٍ من أشكال العنف غير القانوني، وخصوصًا أن الرأي العام الألماني لا يوافق على موجة العنف المعادي للسامية التي تجتاح البلاد، زاعمًا أن للحكومة أولويات اقتصادية أهم من ذلك، فتقبل «هتلر» النصيحة؛ خوفًا من تقليل شعبيته وشعبية حزبه أمام الرأي العام، ليصدر «هتلر» في يوم ٨ أغسطس في عام ١٩٣٥ قرارًا يقضي بوقف التصرفات الفردية وغير القانونية ضد اليهود الألمان.

أصدر «هتلر» قراره هذا محاولًا إرضاء الرأي العام، ولكنه اصطدم بمشكلةٍ أكبر، وهي استياء حزبه ورجاله الذين رأوه يُغرد خارج السرب، وفي الحقيقة كان «هتلر» غير راضٍ عن قراره من الأساس، ولكنه كان مضطرًا.. وبعدها اختفى الفوهرر عن الأنظار، وجلس في مكتبه يفكر بهدوء، حتى توصل إلى أن هناك ضرورة ملحة لإصدار قوانين صارمة جديدة تتعلق بمعاداة السامية، أولًا لكي تطفئ تلك القوانين نيران أعضاء الحزب الذين خاب أملهم بعد قرار الوقف، وثانيًا لكي تكون المعاداة مقننة تحت عنوان مصلحة القومية الألمانية، وهي الكلمة التي تُخرس الرأي العام، ثم بعدها أمر «هتلر» اثنين من رجاله وهما «فرانز ألبريشت» و«برنارد لوسنر» بالسفر بسرعة البرق إلى «نورنبيرغ» في يوم ١٣ سبتمبر، لاقتراح حزمة من القوانين تتمثل في معاداة السامية حتى يقدمها إلى الرايخستاج بعد يومين فقط، وبالفعل أصدر «هتلر» في يوم ١٥ سبتمبر ١٩٣٥ «قوانين نورنبيرغ»، والتي نصَّت على (حرمان اليهودي من جميع حقوق المواطنة ونبذُه من الحياة العامة، وحظره من الزواج أو ممارسة علاقات جنسية مع مواطنين ألمان أو أشخاص ذوي صلة بالجنس الآري، وتحريم انتقاله بواسطة وسائل النقل العامة، بل ومنعه من الوجود في الأماكن العامة كالحدائق والمسارح وغيرها، وأمروا اليهود المقيمين بأن يضعوا شعارًا لـ«نجمة داوود» منقوشًا على ملابسهم؛ لكي

يتبين للجميع أنهم يهود، بالإضافة إلى عزل أي شخص يعود نسبه إلى ثلاثة أجداد يهود أو أكثر، بغض النظر عن هويته الدينية).

بهذا الشكل حسم «هتلر» قصة معاداة الجنس السامي، ليلتفت بشكلٍ أكبر إلى أمر التسليح، ليتفاجأ بأن التسليح قد زاد من الإنفاق العسكري، وقاد اقتصاد ألمانيا إلى الانحدار بعدما تزايدت مشكلة نقص الغذاء أكثر، فاضطر «هتلر» إلى تخفيض المبالغ المخصصة للإنفاق على القوات العسكرية، واستكمالًا لحل تلك الأزمة أمر «هتلر» بتخصيص ستين مليون مارك من العملات الأجنبية واستقلالهم عن المصروف العسكري، من أجل استخدامهم في شراء الزيت المستخرج من البذور للمزارعين الألمان، ليكون ذلك عائقًا جديدًا في استكمال عملية التسلح، مما تسبب في تذمر وزير الحرب «فيرنر فون»، وكذلك الدكتور «شاخت»؛ ذلك لأن مهمتهما قد صارت أصعب بعد التفريط في جزء كبير من العملة الصعبة.. جلس الفوهرر يفكر كثيرًا، فالمشكلات الاقتصادية في تزايد، بل وبدأ يشعر بتضاؤل شعبيته بشكلٍ ملحوظ، لذلك استعمل ذكاءه كالمعتاد، وقرر إيجاد أي انتصارٍ خارجي، لكي يرضي به العامة، ولكي يصرف انتباههم إليه بدلًا من انشغالهم بالوضع الاقتصادي الراهن، فقرر استمرار التخطيط لفرض سياسته الخارجية، وتنفيذ الخطة التي وُضعت منذ بداية توليه منصب المستشار، حينما اجتمع وقتها مع قادة القوات البرية وقادة القوات البحرية للجيش النازي في ٣ فبراير عام ١٩٣٣، وعبَّر لهم عن تطلعاته الخارجية والأهداف التي ينبغي الوصول إليها، وكان قد حثهم وقتها على الاستيلاء على بعض من المناطق الشرقية بغرض تأمين المجال الحيوي لألمانيا النازية، ومحاولة فرض الثقافة الألمانية عليها عن طريق اللغة أو العرق أو الحضارة سواء بالقوة أو بالاندماج، وبحلول الشهر التالي وهو مارس ١٩٣٣ سلم الوزير «برنارد فون بولو» البيان الأول المتمثل في مذكرة قُدِّمت لمجلس الوزراء في مبنى وزارة الخارجية، كان من أهم نقاطها (ضم النمسا - وإعادة ترسيم الحدود لما كانت عليه قبل الحرب العالمية الأولى وقبل الخذلان - ورفض الجزء الخامس من معاهدة فرساي - ومن ثم استعادة المستعمرات الألمانية التي خسرتها في أفريقيا؛ جراء التوقيع على اتفاقية الاستسلام - مع إيجاد منطقة نفوذ لألمانيا في أوروبا الشرقية)، هذه كانت الخطط المستقبلية لدى النازيين الحالمين، وبرغم استحالة تنفيذها قد وصفها «هتلر» بالأهداف المتواضعة جدًّا وقتها.

استكمالًا لسياسات «هتلر» الخارجية التي طالما حلم بتنفيذها، تطلع مرة أخرى لاستكمال المحاولات الطويلة لكسب تحالف مع بريطانيا، فهذا الهدف كان من أولويات سياساته منذ بداية تسلمه للحكم ومنذ سنواته الأولى، بل منذ العشرينيات و«هتلر» كان يحلم بقيادة ألمانيا وتدمير روسيا بمساعدة إنجلترا كحليف.. استرجع «هتلر» موقف إنجلترا في مارس من عام ١٩٣٣،

عندما كانت الأزمة على أوجها بين فرنسا والتي تسعى للحصول على الأمان، وألمانيا التي تطالب بوجود عدالة في التسلُّح الدولي، كان هذا في مؤتمر نزع السلاح في «جنيف» في سويسرا، حينها تقدم رئيس الوزراء البريطاني «رامزي ماكدونالد» بمقترح جديد للتسوية، والذي ظهر نوعًا ما في صورة إشفاق على حالة الألمان، عُرف هذا المقترح باسم «خطة ماكدونالد».. صدَّق «هتلر» وقتها على مقترح البريطانيين، برغم أنه كان يعلم جيدًا أن الفرنسيين لن يوافقوا، لكن «هتلر» كان يحاول إثبات حسن نيته، واعتداله أمام العاصمة البريطانية، وإظهار سوء عناد فرنسا.. واستكمال لمحاولة التقارب، زار رئيس المكتب النازي لشئون السياسة الخارجية «ألفريد روزنبرج» في عام ١٩٣٣ العاصمة البريطانية لندن في محاولة لتعزيز الترابط بين الدولتين، كانت هذه رسالة واضحة من «هتلر» لمحاولة التقرب من بريطانيا بالأخص، خصوصًا أنه قرر بعدها انسحاب ألمانيا من عضويتها في عصبة الأمم، ومؤتمر نزع سلاح العالم، بعد أن تم الإعلان أمام الرأي العام العالمي أن مطالب الجارة فرنسا بالحصول على الأمان هي العقبة الرئيسية التي أجبرت ألمانيا على الانسحاب، وأنها العقبة التي ستضرب بكل جهود السلام العالمي عرض الحائط.

وبحلول شهر نوفمبر من نفس العام، اجتمع «هتلر» مع السفير البريطاني «سير إيريك فيبس»، وبعدما استقبله «هتلر» استقبالًا حافلًا بدآ في النقاش، وعرض عليه «هتلر» مقترحًا يقضي بأن تقوم بريطانيا بتقديم الدعم الخاص لجيش ألماني قوي مكون من ٣٠٠ ألف من الجنود، في مقابل أي شروط تطلبها العاصمة البريطانية مهما كانت، مع التعهد التام بحماية البريطانيين وعدم التعدي عليهم، بل وأن يكونوا حلفاءهم في أي حرب.. عاد السفير وعرض الأمر على حكومته، ليأتي الردُّ البريطاني بضرورة وجود فترة عشر سنوات من الانتظار قبل أن تقوم بريطانيا بدعم الزيادة التي تطلبها ألمانيا في حجم جيشها، شعر «هتلر» بالمماطلة، لكنه لم يفقد الأمل، واستمرَّ كالمعتاد في التسلح السري كما هو.. وبعد عامين، وتحديدًا في مارس من عام ١٩٣٥ أقدم «هتلر» على خطوة عنترية جديدة، حيث قال على الملأ ليصل صوته في كل أنحاء أوروبا، أنه يرفض الجزء الخامس من معاهدة «فرساي» كليًّا، وأن الجيش الألماني من الآن وصاعدًا قوامه ٦٠٠ ألف جندي وليس٣٠٠، أي ما يقارب ستة أضعاف العدد الذي حدده الحظر الواقع على بلاده، بل وقرر عودة عمل القوات الجوية بكامل قوتها، وقرر زيادة عدد القوات البحرية، لينقلب العالم رأسًا على عقب، وتظهر أصوات حادة من عواصم الدول المعترضة، على رأسهم فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وغالبية دول عصبة الأمم، وعندما شعر «هتلر» بالهجوم الذي انهال عليه خرج بذكاءٍ ليبرر أن ألمانيا لا تهتم إلا بالسلام، وأنه لا رغبة لها غير محاولة تأمين أراضيها وكفى،

هدأ العالم السياسي قليلًا بعد توضيحاته، مما ساعده على استمرار عملية إعادة التسلُّح في هدوء.

رغم كل هذا لم تتوقف محاولات «هتلر» في كسب التحالف البريطاني، ففي نفس الشهر الذي تحدى «هتلر» فيه الجميع، استثنى بريطانيا، وعقد مع قنصلها ووزير خارجيتها سلسلة من الاجتماعات الموسعة في برلين، نتج عن ذلك نجاح «هتلر» بالفوز بعرض تقدمت به بريطانيا لمشاركة ألمانيا في اتفاقية أمن إقليمية، والتي سُمّيت بمعاهدة «لوكارنو»، رغم ذلك لم يملَّ «هتلر» محاولًا تكرار عرضه بخصوص التحالف العسكري، رغم تجنب الوزيرين البريطانيين التحدث عن هذا العرض، وبرغم تجاهلهما لم يُنكر «هتلر» نجاحاته، فلقد فاز مؤخرًا بإبرام معاهدة جديدة خاصة بالقوات البحرية، والتي تم تحديد توقيعها في يونيو من نفس العام ١٩٣٥ والتي تتم الآن، لقد أبدى «هتلر» سعادته التامة بشأن هذا الانتصار، بل وأجزم بأن اليوم بمثابة أسعد يوم في حياته، فتوقيع المعاهدة البحرية بين بريطانيا وألمانيا (A.G.N.A.) في لندن، له آثار مهمة جدًّا في مسألة التسلح الألماني، فسوف تسمح بزيادة القوة الألمانية البحرية في البحرية البريطانية لتصل إلى نسبة ٣٥٪ من قوة بريطانيا البحرية، لم يكن هذا ما يحلم به «هتلر» حقًّا، لكنه رأى أن هذه الاتفاقية هي البداية الحقيقية للتحالف بين بريطانيا وألمانيا الذي تنبَّأ به في كتابه «كفاحي»، بل وإن هذه المعاهدة نجحت بشكلٍ كبير في اعتياد العالم فكرة تسلح ألمانيا، أي أنه بمثابة سرقة خطواتٍ تقدمية بمنتهى الذكاء.. وللعلم هذه المعاهدة البحرية تتم الآن دون استشارة فرنسا أو إيطاليا في تحدٍّ تامٍّ لهما، ويعتبر هذا الأمر ضربة قاتلة من «هتلر» في صدر عصبة الأمم، ليُظهر ضعفها، كخطوة أولى لوضع معاهدة «فرساي» على المحك؛ لإفراغها من مضمونها الحقيقي.

إنها لساعة مليئة بالانتصارات، ليس هذا كل ما في جراب «هتلر» الوصولي، كلا، فهناك خطوة تالية قد أعدَّها للتنفيذ بعد توقيع هذه المعاهدة البحرية، حيث قرر النظر للمستعمرات الإفريقية التي فقدتها ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، في الحقيقة هي لا تهم «هتلر» تمامًا، وقد كتب ذلك في كتابه «كفاحي» أثناء شهور السجن، حيث انتقد بقوة سياسة حكومة الإمبراطورية الألمانية التي كانت تسعى وراء التوسع الاستعماري في إفريقيا قبل عام ١٩١٤، فهو لا يريد ذلك، فعلى حسب رؤيته الخاصة يجب التوسع في أوروبا الشرقية، حيث إنها الامتداد الطبيعي والحيوي لألمانيا النازية، فلا فائدة وقتها من التشتت في أدغال إفريقيا.. قرر «هتلر» التنسيق بين كل الجمعيات التي تطالب باستعادة المستعمرات الإفريقية، وجعل المطلب رأيًا عامًّا، وأطلق عليه «عصبة الرايخ الاستعمارية»، فكر «هتلر» في هذه الخطة من أجل الضغط على بريطانيا؛ لكي تخضع للتفاوض مع بلاده، محاولةً إقناعه بالتخلي

عما كان، ووقتها يشترط عليهم الدخول معهم في التحالف الذي زادت المماطلة في الردِّ عليه.

انصرف «هتلر» عن التفكير الآن في المستقبل؛ لكي يستمتع بانتصاره، فالآن قد ربح خطوة كبيرة من أجل فرض فكرة تسلُّحه، وبداية إضعاف معاهدة «فرساي» المهينة، لتكون هذه الساعة من أهم الساعات التي ستُثبت أقدام «هتلر» نحو أهدافه المستقبلية، وظهور ألمانيا بشكلٍ جديد على يديه، ومن ثم المضي قدمًا نحو إعادة التسليح، وإرغام العالم على تقبل سياسة الأمر الواقع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١١)
ساعة الظهور

الساعة الآن الثانية من مساء يوم ١ أغسطس ١٩٣٦، إنها ساعة افتتاح دورة الألعاب الأوليمبية الصيفية، والتي ستستضيفها ألمانيا من اليوم وحتى ١٦ أغسطس.. صعد الآن الفوهرر النازي «أدولف هتلر» بنفسه، لكي يفتتح تلك البطولة بعدما خصص لها منشآت رائعة، فزعيم الرايخ الثالث كان يريد أن يُظهر الوجه القوي والشاب لألمانيا الجديدة في هذا الحدث الكبير الذي غطَّته كل دول العالم، والذي اجتمع له ٣٩٦٣ لاعبًا ولاعبة من ٤٩ دولة، من بينهم دول الخصوم.

افتتح «هتلر» هذه الدورة بشموخٍ تام ليُعلن عن بدئها، بل وعن بدء ظهور ألمانيا «هتلر»، ألمانيا التي قررً أن يُظهر قوتها للعالم، فكان هذا افتتاحًا رسميًّا لرفع الستار عن الوجه الجديد لبلاده.. جلس يشاهد الاستعراضات الاحتفالية، والأنغام التي وافق على ألحانها بنفسه، فلقد أراد أن يكون في كل شيء حتى الغناء رسالة خاصة لكل العالم تُشير إلى تفوق الجنس الآري وكأنه قادم، جلس بغطرسة تامة وكأن هذا العرض يحتفل بانتصاراته الهتلرية، فهذا هو الطفل النحيف، هذا هو الفتى المضطهد، هذا هو الشاب المشرَّد.. سبحان مغير الأحوال!

على العموم، لقد مر الماضي بكل قساواته، كبر الفتى وأصبح مستشارًا لألمانيا، بعد أن عيَّنه رئيس الجمهورية في ٣٠ يناير ١٩٣٣، ثم أباد كل خصومه ومعارضيه، وبعد أن تُوُفي الرئيس «هيندنبرغ» أصبح «هتلر» ديكتاتورًا عظيمًا بعدما دمج سلطات ومكاتب المستشارية مع الرئاسة، وبعد هذه الخطوات العديدة أصبح هو الفوهرر الوحيد في ألمانيا، فلا زعيم إلا «هتلر»، أصبح صاحب السلطة المركزية وحده، بل أصبح فوق الرايخ الألماني.

لم تكن هذه الساعة حصاد أيامٍ قليلة، بل إنها نتاج لسنواتٍ من الكفاح السياسي.. كانت قد تلاحمت كل الخيوط التي غزلها «هتلر» قبل هذا الظهور العالمي، فقد نجح «أدولف» في تعزيز نازية الدولة الألمانية بأكملها، لينضم إليه كل طوائف الشعب، وكأنه فتحٌ عظيم اصطف فيه المواطنون في صف النازية شاربين أفكارها، والتي أصبح من أهمها العنصرية والعداء للجنس السامي المخرب، الآن لم يعد الرأي العام يُدافع عن مسألة اضطهاد اليهود، فلقد أقنع «هتلر» الجميع بأنهم أساس الخراب، منذ أن سنَّ قوانين «نورنبيرغ» في العام الماضي.. استطاع النازيون فرض نظرية جديدة وجعلها هي الأبرز، وهي إحياء مجد العرق الشمالي من الجنس الآري، والتخلص من

أي جنس ملوث، حتى لو كانوا شعوبًا آخرين، لتشهد الدولة خلال الشهور الماضية واحدة من الأعمال العنصرية المفرطة ضد العرقيات الأخرى، لدرجة أن الاضطهاد طال الكنائس المسيحية، وجميع المنظمات المدنية باستثناء الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية، لا أحد يستطيع أن يعارض، الكل يُزجُّ به في المعتقلات إن نجا من الموت أصلًا، لتجد الأقليات الموجودة في ألمانيا بعدما أصبحت نازيةً نفسها في موقفٍ لا يُرثى عليه، أما اليهود فقد غرقوا في الاضطهاد بعد حرمانهم من المواطَنة، وبعد ما تم ضمُّهم في تصنيفٍ خاص مع الغجر وذوي الاحتياجات الخاصة الذين أصبحوا غير مرغوبٍ فيهم.. ولقد وضعت الأيديولوجية النازية قواعد صارمة حول النقاء الألمانيّ كمبرر لعملية التطهير الواسعة التي انطلقت، ليتم زراعة تلك الأيديولوجية في الصغار، بعدما دخلت إلى المناهج الدراسية الجديدة، فلقد ركز التعليم على البيولوجيا العرقية، لتُحدد مواصفات ومقومات جديدة للمواطن الألماني النقي، والذي يتوجب عليه أن يكون رشيقًا على مستوى عالٍ من اللياقة البدنية.

لم يتغافل النازيون عن نصيب المرأة في حزمة القرارات التي تمت طيلة العام الماضي، ليطالها التنكيل بدورها المجتمعي، فقد تم تقليص فرصها في التعليم وفي الوظائف، وهذا ما أكد عليه الزعيم «أدولف هتلر» في خطابه أمام الرابطة الاشتراكية الوطنية للمرأة الألمانية، حيث قال بالحرف الواحد: «لا بد أن يتركز عالمها حول زوجها وعائلتها وأطفالها وبيتها فقط»، وتحفيزًا لذلك قرر «هتلر» عقد مسابقة لتكريم الأم الألمانية، فالمرأة التي تلد أربعة من الأطفال أو أكثر سيتم منحها صليب الشرف الخاص، شجعت تلك السياسة النازية النساء على المكوث في المنازل؛ لإنجاب الأطفال والعناية بالمنزل فقط، مما أسهم في تراجع معدلِ البطالة عند الرجال، فنسبة لتقارير الألمان فالبطالة قد تراجعت لسببين: أولًا إنتاج الأسلحة، وثانيًا عودة النساء للمنازل وترك وظائفهن للرجال.

وفي خضم الكساد الكبير، ظهرت نشاطات النازيين التي بدت ناجحة، فلقد توصلوا إلى نسبة لا يستهان بها من الاستقرار الاقتصادي، بل واستطاعوا القضاء على نسبة البطالة المتبقية؛ بسبب سياستهم الجديدة في الاقتصاد المختلط باستخدام الإنفاق العسكري، وبعدما اتجهت الدولة إلى تنفيذ المشروعات العامة بشكل توسعي، بدأ الاقتصاد في التعافي النسبي، مما زاد من شعبية النازيين، فلقد أشرف «هتلر» بنفسه على تلك التوسعات التي ارتقت بالمجال الصناعي والبنيات التحتية الحديثة، أما ميزانية هذه المشاريع فمثلها مثل المشاريع العسكرية التي تمت بالسندات المشكوك في صحتها والتلاعب بالعملة، وأسلوب تعويم الديون.. أسهمت هذه الحيل في تكوين ميزانية برغم الظروف السيئة، لتقوم حكومة «هتلر» بتنفيذ مشروعات عملاقة لتطوير البنية التحتية المنقرضة، ومن ثم إعمار المدن، حيث أبدى

«هتلر» اهتمامه بالتطوير المتحضر في مجال العمارة على نطاقٍ واسع، محاولًا تنفيذ رؤيته الكلاسيكية التي أعاد بها تفسير الحضارة الألمانية، وكلَّف «ألبرت سبير» بذلك قبل أن يتم تأهيله لشغل منصب وزير التسلح والذخيرة، لينجح في التكليف، ويصبح أشهر معماري في حكومة الرايخ.. كما أدخلت حكومته تعديلات عملاقة على الطرق السريعة، وأنشأوا العديد من السدود، بالإضافة إلى المشروعات طويلة الأمد التي تم طرحها كخطوط السكك الحديدية، حيث كان مخططًا لها أن تكون بعرض ثلاثة أمتار، فإن كان قد اكتمل هذا المشروع لأصبحت من أهم خطوط السكك الحديدية في العالم، كذلك تصنيع السيارة «فولكسفاجن» أو «بيتل»، والتي عهد «هتلر» تصميمها وصناعتها إلى «فرديناند بورش»، وكان لـ«هتلر» مقترحات بسيطة حول شكلها، وهي أيضًا من المشروعات طويلة الأمد التي لم تتم بسبب الحرب التي ستأتي مستقبلًا.

هكذا أنشأ «هتلر» ألمانيا الحديثة، والتي تعمَّد ظهورها في مظهر القوة أمام العالم برغم أنها من الداخل، لكن على كل حال لم يستطِع أحد إنكار القوة التي حلَّت عليها، والآن هي في أبهى صورها أمام العالم، في أول ظهورٍ لها على الخريطة الدولية، لتظهر براعة وزير الدعاية «جوزيف جوبلز» الذي قدَّم الأمر بشكلٍ بارعٍ ومميز، والذي كان يبث الحماس في نفوس الشعب الألماني بواسطة المسيرات الجماهيرية الراقية، ومن خلال الأفلام التسجيلية، ليُظهر للعالم كله التطور الذي حل على ألمانيا بفضل النازيين، بل وتمرير تلميحات تُوضح تفوق الجنس الآري على كل الأجناس البشرية الأخرى.

الآن يجلس «هتلر» بكل فخرٍ وبجانبه عشيقته الجميلة «إيفا براون» التي ظهرت بشكلٍ واضح فقط بداية من هذا العام ١٩٣٦، تجلس إلى جواره الآن لأول مرة في ساعة ظهور ألمانيا الجديدة بكل فخرٍ، وكأنها فرد من أفراد عائلته، الجميع قد انتبه لنظراتها المغرمة بحبيبها وعشيقها «هتلر»، في الحقيقة كانت مبتهجة بخطف الأنظار رغم أنها مجرد عشيقة، لكن هذا كان يرضيها، فلقد كان في الماضي حلمًا صعب المنال، فدائمًا ما كانت تتذكر بدايات علاقتها مع الشخصية التي أبهرتها، وطالما حاولت لفت انتباهه لدرجة أنها حاولت الانتحار، فلقد بدأت رحلة حبها لـ«هتلر» منذ سنوات، عندما قابلته وهو يتردد على رفيقه المصور «هوفمان»، حيث إنها كانت تعمل كمصورة معه، حينها حاولت لفت انتباهه لها بشتى الطرق، لدرجة أنها أقبلت على الانتحار في يوم ١٠ أغسطس عام ١٩٣٢، بعدما أطلقت النار على صدرها من مسدس والدها، لكنها لم تكن محاولة جادة، كانت فقط محاولة للفت انتباه الحبيب.. نجحت محاولتها، حيث انتبه إليها «هتلر»، واقترِب منها بعدما مثُلت

للشفاء، ولكن بشكلٍ محدود، ثم بعدما انتحرت ابنة أخته «جيلي روبال» بمسدسه عام ١٩٣٤، عاش فترة حزينة؛ بسبب أهميتها القصوى في حياته، لتظهر في حياته المغرمة «إيفا» بشكلٍ مكثف؛ محاولةً التخفيف عنه، لدرجة أنه اعتاد رؤيتها بشكلٍ يومي، لتصبح عشيقته فعليًّا، حيث كانت مقيمة معه في شقته، طيلة الليالي التي يوجد فيها بميونيخ، كما أن عملها مع مصوره الخاص قد جلب لها الفرصة في الوجود والسفر معه بقدرٍ كبير، وظلت برفقته حتى بعد ترقيتها وعملها في المجال الصحفي مع «هوفمان».

الآن هي جالسة بجوار عشيقها بكل فخر، والذي وعدها بأن يبدي لها الكثير من الاهتمام، بعدما حاولت الانتحار للمرة الثانية في العام الماضي بسبب عدم اهتمامه، ففي مايو عام ١٩٣٥ أقبلت المُحبة على أخذ جرعة زائدة من الحبوب المنومة.. بالفعل انتبه «هتلر» لتقصيره معها، ووعدها باهتمامٍ أكبر، وبعد ثلاثة شهور من التعافي، أهدى «هتلر» لها شقة في ميونيخ مكونة من ثلاث غرف لتقيم فيها هي وأختها، وفي بداية هذا العام أبدى اهتمامه أكثر، ليهبها فيلا في «بوجن هوسن»، برغم ذلك فضلت المكوث في ميونيخ بجوار الحبيب، والآن هي اقتربت منه أكثر، حيث أصبحت تقيم معه في «برغهوف»، وأصبح لها شقة خاصة في برلين.. الآن «إيفا» تجلس بكل شموخ، فهي امرأة تمتلك موهبة الوصول، هذا ما أثبته موقف لها في العام الماضي، عندما حضرت لأول مرة اجتماع «نورنبيرغ» للحزب النازي لأول مرة عام ١٩٣٥، وفي الحقيقة لم يكن «هتلر» هو من دعاها، حيث إنه كان غير مهتم بهذه الأمور، ولكن كان الفضل في حضورها لأخت «هتلر» غير الشقيقة «أنجيلا روبال» (والدة «جيلي» المتوفاة)، حيث استطاعت أن تهبها حضورًا استثنائيًا.. لم تحفظ «إيفا» جميل أخت «هتلر»، بل قابلته بتصرفٍ آخر، فبعدها عزلت «أنجيلا» من منصبها كمديرة منزل «هتلر» في «برشتيسجادن»، وبعد فترة قليلة انتحرت «أنجيلا» أخت «هتلر»، ويرى الكثيرون أن انتحارها سببه الكره الشديد لوجود «إيفا».. منذ ذلك الوقت علم جميع النازيين أن «إيفا» هي الشخصية النسائية الأولى في حياة «هتلر»، وأنها تتمتع بحصانة خاصة.

برغم تضحيات «إيفا»، ومحاولاتها الناجحة لكسب قلب الزعيم، كان «هتلر» لا يتخذ خطوات للتقرب الفعلي لقلبها، فللنازيين أيديولوجية خاصة يُحبون فرضها، وهي أنهم قادة ومحاربون وفرسان لا ينشغلون بالغرام، ولقد عانت «إيفا» معاناة قاسية مع تركيبة «هتلر» الخاصة، فـ«هتلر» كان مقتنعًا بأنه جذاب للنساء، فكان دائمًا يحب أن يظهر في صورة البطل الأعزب، مُستغلًا هذه الصورة في مشواره السياسي، وكان من نتائج هذا الاقتناع عدم زواجه من «إيفا»، بل عدم علانيته لعلاقته معها، لذلك لم يظهر «هتلر» و«إيفا» مع في أي مناسبةٍ عامة قبل هذا اليوم على الإطلاق، لكن الآن ثمة خطوة مهمة نجحت في حياة «إيفا»، الآن هي جالسة بجواره، كان نجاحًا برغم ما حمله

من مصاعب، فبرغم سهرها معه غالبية الليالي في غرفة نومه سواء في برغهوف أو في برلين، إلا إنها لم تقِم معه إقامة خاصة على الإطلاق، فقد كان لكل من «إيفا» و«هتلر» غرفتا نومٍ وحمامان متصلان بأبوابٍ داخلية، وكان «هتلر» يجتمع معها بعد أن ينهي أعماله.

برغم كل ذلك رأت «إيفا» أن خطوتها الحالية من أنجح المراحل التي مرَّت على علاقتها بالفوهرر، الفوهرر الذي زاد نفوذه بعد هذه الساعة، فبعدما كان يتطلع لفرض نفوذه على الداخل الألماني، أصبح منذ هذه الساعة متجهًا نحو التعامل مع العالم الخارجي، بعد أن أعلن عن ظهور ألمانيا المتقدمة، لتُشكِّل هذه الساعة تغيراتٍ مهمة في حياة «هتلر» وألمانيا النازية، اللذين خرجا للتعامل مع العالم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٢)
ساعة التحالف

الآن الساعة تشير إلى الحادية عشرة وأربعين دقيقة من صباح يوم ٢٥ أكتوبر من عام ١٩٣٦، الفوهرر جالسٌ في مكتبه يطل من نافذته، ويُجري اتصالًا مهمًّا مع الزعيم الإيطالي الفاشي «بينيتو موسوليني»، ويبدو أنه حوار سعيد، فالزعيمان يتبادلان أطراف الحديث، وهناك ابتسامة واضحة على وجه «هتلر»، والتي استمرت حتى انتهى من اتصاله، ثم وقف يتأمل من نافذة مكتبه على حديقة فناء مبنى المستشارية، وأخذ نفسًا عميقًا وكأنه يُبدي استعداده لما هو قادم، فمنذ فترة كان قد قرر اللعب مع الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الأولى، والذين بدا لهم أن على حكم ألمانيا رجلًا يحمل صفتي الدهاء والمكر.

كان «هتلر» من عادته أخذ خطوةٍ للأمام، ثم انتظار ردِّ الفعل، وهذا ما فعله بالضبط منذ سبعة أشهر أي في مارس من ١٩٣٦، عندما تجرأ «هتلر» مرة أخرى، وقام بنقض معاهدة «فرساي»، حيث قام بالسيطرة على المنطقة الاستراتيجية رينانيا في حملة عسكرية مكثفة، وهي تلك المنطقة التي تم تجريدها من الصفة العسكرية الألمانية بالإجبار؛ نظرًا لما نصت عليه المعاهدة.. انتظر «هتلر» بعد هذه الخطوة ليرى ردَّ الفعل من الدول المنتصرة، فتفاجأ عندما علم أن فرنسا وبريطانيا لم تُحركا ساكنًا، فشعر «هتلر» بالجرأة في ظل فشل عصبة الأمم.

كان العالم الأوروبي في هذه الأعوام منقسمًا لقسمين، قسم يدعم النظام الديمقراطي كإنجلترا وفرنسا، وقسم يدعم النظام الديكتاتوري كألمانيا وإيطاليا، وظهر التسارع بينهما في البحث عن إبرام اتفاقات وتحالفات لتقوي كل جبهة، وكذلك البحث عن محاولات جيدة لتعافي الاقتصاد في الدول المهزومة كألمانيا، من خلال ضمِّ مستعمراتٍ بالقوة لاستغلال السلع أو المواد الخام التي تحتوي عليها، وبرغم أن إيطاليا كانت رابحة في الحرب العالمية الأولى، لكنها ظُلِمت أثناء توزيع الغنائم، فأصبح شأنها شأن الخاسرين الذين يبحثون عن التنافس الاقتصادي، ففي ذلك الوقت كانت الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة البريطانية وفرنسا يحتكرون وحدهم ٨٠٪ من إجمالي الذهب العالمي، وبرغم غنى هذه الدول الديمقراطية إلا أنهم بدأوا يشعرون بفقدان هيبتهم الدولية نسبيًّا؛ بسبب أصوات الدول الديكتاتورية التي أصبحت تنادي بإعادة توزيع المستعمرات بشكلٍ عادل.. شعر «هتلر» بضعف هيبة الدولة المنتصرة، ففكَّر في حيلٍ جديدة تمكنه من توسيع نفوذه، ولو لحدٍ ضئيل، ثم نظر حوله، فوجد الحرب الأهلية الإسبانية، ليقرر دعم الجنرال

«فرانسيسكو فرانكو» للانقلاب على حكومة الجبهة الشعبية، حتى يضمه لجبهة النظم الديكتاتورية، خصوصًا بعدما أرسل له الجنرال «فرانكو» التماسًا بالتدخل، لم يتردد «هتلر»، وفي يوليو من عام ١٩٣٦ قام بإرسال قواتٍ ألمانية لنصرة الجنرال المنقلب، كان «هتلر» مبتغاه ضم «فرانكو» كحليف، بالإضافة إلى جعل إسبانيا بمثابة حقل تجارب لاختبار قدرة قواته العسكرية، ووسائلها الحربية وأسلحتها الخاصة.

برغم ميل «هتلر» لمناصرة الديكتاتوريين، لم يتخلَّ عن حلمه في التحالف مع بريطانيا الديمقراطية، ففي نفس الشهر الذي ناصر فيه «فرانكو» وهو يوليو ١٩٣٦، أرسل «هتلر» عرضًا جديدًا للعاصمة البريطانية كان مفاده أنه إذا وقَّع البريطانيون تحالفًا مع الألمان سيقوم هو بإرسال ١٢ فرقة عسكرية إلى منطقة الشرق الأقصى؛ لحماية المستعمرات البريطانية هناك من الهجمات اليابانية التي بدأت تهددها، ولكن كالعادة قابلوا عرضه بالرفض.. لم يملَّ «هتلر» وقرر إعادة المحاولة لإبرام هذا التحالف الذي أصبح من أهم أحلامه، فبعد شهرٍ فقط تم تعيين الدبلوماسي «جواشيم فون» سفيرًا لألمانيا لدى محكمة «سان جيمس»، وقبل سفره لتولي مهمته في أكتوبر، قال له «هتلر»: «احرص على أن تشترك بريطانيا في ميثاق مكافحة الشيوعية، فهذا الأمر هو ما أريد تحقيقه أكثر من أي شيء آخر، أنا أرسلت بك إلى هناك؛ لأنك أفضل رجالي الذين يمكنهم القيام بهذه المهمة، فافعل كل ما يمكنك أن تفعله.. ولكن، إذا باءت كل جهودنا المستقبلية بالفشل، فسنكتفي بذلك، وعندئذ، سأكون على استعداد للحرب، وسأكون في أشد حالات الحزن إذا اضطرتني الظروف للقيام بذلك، ولكن إذا استلزم الأمر ذلك فسأقوم به، ومع ذلك، أعتقد أن هذه الحرب لن تستمر لفترة طويلة، وعند انتهائها سأكون على استعدادٍ لعرض السلام الذي يحفظ الكرامة على الشعب البريطاني في أي وقت، وسيكون هذا السلام مُرضيًا للطرفين، وبالرغم من ذلك، سأطلب من بريطانيا أن توقِّع على اتفاقية مكافحة الشيوعية، وربما أطلب منها أن توقِّع على اتفاقيات أخرى، ولكن عليك يا «جواشيم» أن تحسن اللعب طالما أنك تحمل الورقة الرابحة في يدك، وأنا مستعد في أي وقت للتوقيع على اتفاقية جوية أيضًا. فافعل كل ما يمكنك القيام به، فسأتابع مجهوداتك بكل شغف».

وكالعادة باءت محاولات «هتلر» بالفشل، برغم جهود سفيره الدبلوماسي النازي المستقل المخضرم، ومع قرابة انتهاء النصف الأول من عام ١٩٣٧، أدرك «هتلر» أن تكوين حلف مع بريطانيا أصبح من المستحيلات، ليقرر التخلي عن هذا الحلم، ملقيًا اللوم على القيادة البريطانية التي لا تتسم بالكفاءة على حد زعمه، ثم بدأ «هتلر» بالترصُّد لبريطانيا، ليقرر لأول مرة بدأ المناوشات معها بعد شهرين فقط أي بحلول سبتمبر من عام ١٩٣٧، حيث

احتجَّ «هتلر» أمام عصبة الأمم على ما اعتبره تدخل بريطانيا في منطقة النفوذ الألماني في أوروبا، كانت هذه واحدة من سياسات التمويه التي قرر «هتلر» اتباعها مجددًا.. أصبح ما يدور داخل «هتلر» الآن أن هناك حربًا قادمة لا محالة ولا مفر منها، كان يعلم «هتلر» أن اللوبي البريطاني يعلم هذا جيدًا منذ ثلاث سنوات، وتحديدًا في فبراير من عام ١٩٣٤، عندما التقى بالسير» أنطوني إيدن» حامل الختم الملكي البريطاني، وقتها صارحه «هتلر» بسرٍّ مهمٍّ بغرض التقارب وكسب ثقته، وهو التلميح لملكية ألمانيا سلاحًا سريًّا للطيران رغم الحظر، والآن قد ندم «هتلر»؛ بسبب إفشائه لهذا السر.

كان «هتلر» يضع فكرة التحالف في المقام الأول، أما المقام الثاني أو البديل هو التجهيز للحرب، البديل الذي كلّف اقتصاده الكثير، فمع وقوع هذه الأزمات الاقتصادية خلال هذا العام ١٩٣٦، انقسمت الحكومة الألمانية إلى حزبين، كل حزبٍ له وجهة نظرٍ خاصة، الحزب الأول، بقيادة رئيس البنك المركزي «هيلمار شاخت» ومراقب التسعيرة «كارل فريدريش»، وتم تسميته باسم حزب «السوق الحرة»، وقد حث هذا الحزب على تخفيض الإنفاق العسكري، والالتفات للأزمة الاقتصادية أولًا، وقد دعمه مجموعة من أبرز رجال الأعمال في ألمانيا، أما الحزب الآخر، فكان مكونًا من مجموعة متحفزة لتكوين جيش جبار، تجمعت كلها حول «هيرمان جورينج»، الذين رأوا أنه لا كرامة بدون التسليح، وبعد ترددٍ واضح من «هتلر»، أبدى توافقه مع الحزب الثاني الذي يرى أن لا شرف بدون القوة.

ومن ضمن تجهيزات «هتلر» لحربٍ مرتقبة أصدر مذكرة بعنوان «خطة السنوات الأربعة» في أغسطس ١٩٣٦، كانت هذه المذكرة تحتوي على مجموعة أوامر، موجهة إلى رجله المخلص «هيرمان جورينج» تُلزمه بتنفيذ هذه الأوامر في أربع سنوات من أجل إعداد الاقتصاد الألماني لدخول الحرب خلال هذه السنوات الأربعة، وتنبأت مذكرة «خطة السنوات الأربعة» بقرب صراعٍ وشيك ببين «البلشفية اليهودية» أي روسيا، و«النازية الألمانية»، لذلك يجب توخي الحذر والمضي قدمًا في مسألة التسلح.

وقد كتب «هتلر» في مذكرة خطة السنوات الأربعة:

«أصبح العالم يتحرك بسرعة مطردة في اتجاه الدخول في صراع جديد؛ وتعتبر البلشفية هي الحل الأكثر تطرفًا لوقف هذا الصراع، ويمكن اعتبار أن أساس وهدف البلشفية هو فقط إبادة طبقات الجنس البشري التي كانت تتزعم العالم، وإبدالها بالجالية اليهودية المنتشرة في كل أنحاء العالم، ولن تتمكن أية دولة من الانسحاب أو حتى الابتعاد عن هذا الصراع التاريخي.. وليس الهدف من وراء كتابة هذه المذكرة هو التنبؤ بالوقت الذي تتفجر فيه

الأزمة الناتجة عن هذا الوضع المستعصي في أوروبا، فكل ما أريد أن أقوله في هذه السطور هو أن هذه الأزمة قادمة لا محالة، وأنه من واجب ألمانيا أن تؤمِّن الوجود لنفسها بكل وسيلة ممكنة في مواجهة هذه الكارثة، وأن تحمي نفسها منها، ومن منطلق هذا الإلزام، توجد مجموعة من الاستنتاجات التي تتعلق بأهم المهام الواجب على شعبنا القيام بها، فانتصار البلشفية على ألمانيا لن يؤدي إلى الخضوع لمعاهدة «فرساي» فقط، بل إلى الدمار النهائي للشعب الألماني، بل الإبادة الشاملة للألمان.. وأرى إنه من الضروري للرايخستاج أن يقوم بتمرير هذين القانونين: القانون الأول: يقضي بتوقيع عقوبة الإعدام في حالة حدوث أي تخريب اقتصادي، أما الثاني: فيجعل الشعب اليهودي بأكمله مسئولًا عن أي ضرر يتسبب فيه أفراد من هذا المجتمع من المجرمين يعمل على إلحاق الأذى بالاقتصاد الألماني، وبالتالي بالشعب الألماني».

كان هذا السبب الذي برر به «هتلر» رغبته في وصول الجيش الألماني إلى مرتبة «الجيش الأول» على مستوى العالم من حيث قدرته الفائقة على القتال، وذلك في خلال الأربع سنوات المقبلة فقط، حيث أردف قائلًا:

«مدى التطور العسكري لمواردنا لا يجب أن يكون كبيرًا أو أن يتم بخطى متسارعة أكثر من اللازم، ويكون دور الاقتصاد ببساطة هو أن يقوم بتدعيم توكيد الذات الألمانية، ومدِّ مجالها الحيوي.. وبفهم الأبعاد الحقيقية للصراع القادم تصبح المخاوف التي عبر عنها أعضاء حزب «السوق الحرة» مثل «شاخت» و«فريديش»، بأن المستوى الحالي من الإنفاق العسكري سيؤدي بألمانيا إلى الإفلاس في غير محلها، فمهما كان قدر التوازن الذي يجب على كل أمة تحقيقه في النمط العام لحياتها، فإنه لا بد من وجود اضطرابات تحدث في هذا التوازن في بعض الأوقات على حساب أشياء أخرى أقل في أهميتها، فإذا أخفقنا في جعل الجيش الألماني الجيش الأول على مستوى العالم بأسرع وقت ممكن.. ستنتهي ألمانيا! لا تحيا الأمة من أجل الاقتصاد أو قادته أو من أجل النظريات المالية أو الاقتصادية، بل على العكس، يخضع المال والاقتصاد وقادته ونظرياته لخدمة هذا الصراع من أجل توكيد ذات الأمة».

هذه كانت كلمات «هتلر»، واستعدادًا منه لوقوع حرب عالمية محتملة، قرر البحث عن حليف يُفكر بنفس طريقته، يبحث عن النفوذ المفقود، لتُبصر عينيه ناحية الجنوب، فيجد إيطاليا تمدُّ له يدها بقيادة «بينيتو موسوليني»، وهو الديكتاتور المشابه، الذي شغل منصب رئيس الدولة الإيطالية ورئيس وزرائها، بل وفي بعض الأحيان وزير الخارجية ووزير الداخلية، وهو من مؤسسي الحركة الفاشية الإيطالية وزعمائها، كان معروفًا بلقب «الدوتشي»

أي القائد، وهو كالفوهرر في ألمانيا، أسس «موسوليني» ما يسمَّى بوحدات الكفاح، وهي تشبه كتيبة «العاصفة» النازية، أصبحت هذه الوحدات النواة لحزبه الفاشي الذي وصل به للحكم، بعد المسيرة الاحتجاجية التي خاضها من ميلانو في الشمال حتى العاصمة روما، بالضبط كما قادت قوات «العاصفة» زحف الانقلاب، فالكتيبتان متشابهتان، والحزبان متشابهان، والديكتاتوران متشابهان، والسياستان متشابهتان، وكأن «هتلر» و«موسوليني» خرجا من بطنٍ واحدة.

كان «هتلر» قد صرح بسعادته بقيام هذا التحالف في اتصاله مع «موسوليني» الذي انتهى منذ قليل، وخلال اتصالهما قد اتفقا على أن يكون الإعلان عنه الآن وفي هذه الساعة، فأمر «موسوليني» وزير خارجيته الكونت «جالياتسو تشانو» بإعلان البيان الذي سيصرح فيه عن عقد حلف «دول المحور» بين ألمانيا وإيطاليا، ليكون هذا التاريخ ٢٥ أكتوبر ١٩٣٦ هو المولد الرسمي للجيش المحوري، لتُشكّل هذه الساعة انتصارًا جديدًا لـ«هتلر» نحو المضي قدمًا لكسب انتصاراتٍ سياسية خارجية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٣)
ساعة العناد

اليوم ٤ فبراير ١٩٣٨، ويبدو أن الفوهرر غاضب غضبًا شديدًا، ماذا حدث؟ من الواضح أن هناك خلافًا واقعًا في الاجتماع المنعقد الآن في تمام الساعة الثامنة مساء بين القائد «هتلر» وجنرالاته، والذي يبدو أنه اجتماع لتقييم الحالة، فلقد سئم الزعيم من انتقادات جنرالاته ورفضهم التام لسياسة التوسع الآن، على رأسهم وزير الخارجية «كونستانتين فون نيورات»، والقائد العام للجيش «فيرنر فون بلومبرج».

جلس «هتلر» يشرح للجميع عن مدى تقدمهم ونجاحهم للمُضي قدمًا في تحقيق الحلم الألماني، ولكن عرض عليه جنرالاته وجهات نظرهم المختلفة، مبررين له أن هذا ليس وقته المناسب، بينما هو قاطعهم وأخبرهم بأنه يملك فِطنة ونظرة مستقبلية للأوضاع لم يملكوها هم، وشرح لهم أن إعلان عقد حلف المحور بين ألمانيا وإيطاليا في ٢٥ أكتوبر في ١٩٣٦، هو بداية للتوسع السياسي خارجيًّا، ولا قلق في ذلك ما دام كل شيء مدروسًا، حيث إنه كان بديلًا لعجزه عن تكوين حلفٍ مع بريطانيا، وبالتالي سيكون التوسع فيما بعد هو الحل الأمثل للنجاة بألمانيا اقتصاديًّا، وجلسوا يسترجعون كل ما مضى كتحصيل حاصل.

بعد اتفاقية المحور مع إيطاليا مضى «هتلر» قدمًا نحو إبرام اتفاقياتٍ أخرى كبدائل لعدم تحالفه مع بريطانيا، فبعد شهرين فقط وفي ٢٥ نوفمبر من نفس العام، اقترحت ألمانيا اتفاقية مكافحة الشيوعية، ودعت اليابان للتوقيع عليها، وأثناء التوقيع تم دعوة كل من بريطانيا وإيطاليا وبولندا والصين؛ للانضمام إلى الاتفاقية، ولكن كالعادة رفض الجميع باستثناء إيطاليا التي استجابت ووقَّعت بالفعل، كان «هتلر» يرى أن اليابان ستكون حليفًا ونصيرًا قويًّا في منطقة الشرق، لذلك شرع في تعزيز وتوطيد العلاقات معها، ولكن هناك مشكلة أصبحت عقبة واضحة في التحالف معها، وهي التي طرحها الأمير «تشي تشي بو» شقيق الإمبراطور الياباني «هيروهيتو» عندما زار «هتلر» في مدينة نورنبيرغ عام ١٩٣٧، ليطالبه بوقف تمويل الصين بشحنات الأسلحة الألمانية، وسحب الضباط الألمان الذين يساندون الصين في الحرب اليابانية الصينية الثانية.

وقتها جلس «هتلر» في حيرة شديدة، فهو في الحقيقة يحتاج للتحالف مع الدولتين، وهذا يعتبر أمرًا مستحيلًا؛ فالدولتان الآن بينهما حرب طاحنة، إذ عليه خسارة أحدهما، إن قرر خسارة اليابان فسيخسر حليفًا يعتبر هو الأقوى

في ناحية الشرق، وإن قرر خسارة الصين، فستسفر الخسارة عن ظهور كارثة حقًّا، وهذه الكارثة قد حذره منها رجال القوات المسلحة ووزارة الخارجية الألمانية، فقرار إنهاء الوضع غير الرسمي للتحالف بين ألمانيا والصين القائم منذ العشرينيات، سيشلّ حركة التسليح تمامًا، وسيؤثر على وضع احتياطات العملة الأجنبية، فهناك اتفاقيات اقتصادية عديدة مبرمة بين بلاده وبين الصين، عززت تلك الاتفاقيات الاقتصاد الألماني، ومدَّته بالمواد الخام دون صرف المزيد من العملات الأجنبية، ومن الحماقة خسارة الصين كحليف اقتصادي، فحتمًا ستتخلى الصين عن اتفاقياتها الاقتصادية إن تخلت ألمانيا عنها عسكريًّا.. استمر «هتلر» في التفكير طويلًا في هذا الأمر المعقد، حتى توصل لوجوب عدم خسارة الدعم الصيني، وعدم توقف تمويله للصين بالأسلحة والجنود.

أثناء تفكيره العميق انتبه «هتلر» فجأة وقبض على بطنه؛ بسبب ألم شديد في معدته، هذا الألم الذي تكرر على مدار عامي ١٩٣٦ و١٩٣٧، فلقد اتضح أن الفوهرر يعاني من آلام شديدة في معدته ومن الإكزيما..

أثرت هذه النوبات المؤلمة على نفسية «هتلر»، لدرجة أنه صرَّح لأحد رجاله في أكتوبر من هذا العام ١٩٣٧، أنه مقتنع بأنه سيموت في سنٍّ مبكرة، وكأنها وراثة من والديه اللذين لقيا حتفهما في شبابهما، رغم أن أباه كان رجلًا مسنًّا!، وأعرب عن قلقه بأنه سيعيش لفترة قصيرة لا تكفيه لتحقيق أحلام ألمانيا النازية، وهذا الاعتقاد قد اتضح عندما أخبر «جوبلز» زملاءه أن «هتلر» الآن يحلم برؤية الرايخ الألماني العظيم الذي يقاتل من أجله قبل موته.

لهذا السبب قرر «هتلر» المُضيِّ قدمًا في توسيع المجال الحيوي الألماني في وقتٍ أقل مما خطط له، وفي ٥ نوفمبر من نفس العام أي ١٩٣٧، أمر «هتلر» بعقد اجتماعٍ سري مغلق لم يحضره إلا وزير الحرب ووزير الخارجية، وثلاثة قادة من القوات المسلحة هم المسئولون عن الجيوش، ليعلن أمامهم رغبته في الحصول على المزيد من المجال الحيوي الألماني في أقرب وقت، وبشكلٍ رسمي أمرهم «هتلر» بوضع خطط للحربٍ في منطقة الشرق خلال فترة لا تتجاوز عام ١٩٤٣، ثم توقف عن الكلام قليلًا والتقط أنفاسه، ثم نظر في وجوههم بهدوء، وأخبرهم بأن هذه الأوامر هي وصيته السياسية في حالة موته المفاجئ.

سُجّلت هذه الوصايا في مذكرة عُرفت باسم «مذكرة هوسباتش»، ولحق بهذه الوصية مجموعة توضيحات لهذه القرارات، من أهمها اعتقاد «هتلر» أن الحل من وجهة نظره في تعافي اقتصادهم المهزوز، انتهاج سياسة العدوان والاستفادة من الغنائم أو الضرائب، وأشار إلى أن أولى الأماكن بالاستيلاء

هما النمسا وتشيكوسلوفاكيا.. كما أبرزت هذه المذكرة توضيحًا آخر صرح فيه بأن سباق التسلح أمر يجب الإسراع فيه قبل أن تتصدر فرنسا وبريطانيا هذا السباق، ولأول مرة بدأ يتغير موقف «هتلر» تجاه بريطانيا، فبعد أن كان يحلم بالتحالف معها وسحق الخصوم، الآن أصبحت في تعداد الأعداء، وأظهرت هذه المذكرة صورتها كعدو يثير في نفسه الكراهية، فـ«هتلر» كان يعمل على التوسع حتى وإن كان بدون بريطانيا، حقيقة كان يفضِّل أن يكون معها، ولكن إن استلزم الأمر ربما يكون ضدَّها.

أثارت هذه المذكرة أو تلك الوصايا اعتراضات واضحة بين رجاله في وزارة الحرب والداخلية والجيش، وأبرزهم وزير الخارجية البارون «كونستنتين فون نيورات»، ووزير الحرب الفيلد مارشال «فيرنر بلومبرج»، والقائد العام للجيش «فيرنر فون فريتش»، (الجالسين معه الآن في هذا الاجتماع أيضًا)، والذين أخبروه أن أي عدوان ألماني ستقوم به ألمانيا ناحية الشرق ستكون عواقبه وخيمة؛ بسبب أن الشرق والغرب متحالفان ضدَّه، ففرنسا التي تحدهم من الغرب متحالفة مع أوروبا الشرقية، وسيشعل ذلك الجبهتين، وستُكتب نهايتهم.. أجابهم «هتلر» بأن الاعتداء على كلٍّ من النمسا وتشيكوسلوفاكيا سيعتبر بداية لسلسلة من الحروب الإقليمية في أوروبا الشرقية تؤمِّن وجود ألمانيا في أوروبا، وستمدها وتؤمِّن قوتها قبل الحسم الأخير للصراع مع بريطانيا وفرنسا.. فأجابه رجاله بأن هذا القرار غير المدروس سيجلب عليهم العديد من المخاطر إلى أقصى الحدود، فنشوب حروبٍ إقليمية في أوروبا الشرقية، لا سيما الاتحاد السوفياتي الذي أصبح قويًّا بعد اتحاده سيُدخلهم في حرب ربما ستُهلكهم، والاتحاد السوفياتي باختصار هو الاتحاد الذي وُلِد من رحم الإمبراطورية الروسية بعد ضعفها؛ بسبب كثرة الثورات والتي بدأت في عام ١٩١٧، وتحولت بعد ذلك لحربٍ أهلية دامت لأربع سنوات أي لعام ١٩٢١، وبعد هذا التاريخ تزعمت روسيا قيام اتحادٍ كبيرٍ لمجموعة دول في تشابه كبير لنفس حدود الإمبراطورية القديمة ما عدا الحدود البولندية والفنلندية، وكانت الحدود تتغير كلما انضمت دولة جديدة للاتحاد، وبهذا الشكل كان الإتحاد السوفياتي يزداد قوةً من بعد قوة مع مرور شمس كل نهار..

أعرب المعارضون عن قلقهم حيال التوسع الألماني في هذا الوقت بالذات؛ لأنه سيجبر ألمانيا على الدخول في حرب شاملة قبل أن تستعد لذلك بشكلٍ كامل، فخطة ألمانيا للتسليح لم تنتهِ بعدُ، وقدموا التماسهم للفوهرر بمنحهم المزيد من الوقت لإكمال ترتيباتهم، وأعرب جميع الجنرالات والدبلوماسيين أنهم لا يمانعون احتلال أي دولة، فالمانع ليس أخلاقيًّا، ولكن المانع هو تحديد الوقت المناسب فقط.

وفي نوفمبر من نفس العام، كان حامل الخاتم الملكي البريطاني اللورد «هاليفاكس»، قد وصل قرب حدود ألمانيا كجزء من رحلة صيد يقوم بها، فاستقبله «هتلر» بنفسه، وتحدَّث معه في رغبته بإعادة حدود ألمانيا المفقودة، والتي خسرتها بعد استسلامها في الحرب، فردَّ عليه «هاليفاكس» قائلًا: «تتعلق جميع القضايا الأخرى بالتغيرات المحتملة في النظام الأوروبي، والمتوقع أن تحدث بمرور الوقت، ومن بين هذه الموضوعات ما يتعلق بكل من دانزيج والنمسا وتشيكوسلوفاكيا، وترغب إنجلترا في حدوث هذه التغيرات في إطار نوع من التطور السلمي، مع تجنب الوسائل التي من شأنها إحداث اضطرابات بعيدة الأثر».. وأعاد اللورد تأكيد كلامه على أن التغيرات التي ستتم يجب أن تكون بشكلٍ سلمي، ثم أوضح «هاليفاكس» قائلًا: «إنه بالرغم من عدم تقيد بريطانيا بالتزامات أمنية في أوروبا الشرقية، باستثناء ميثاق عصبة الأمم، فإن بريطانيا لن تسمح بوجود أي تغيرات إقليمية عن طريق الحروب».

لم يفهم «هتلر» مضمون الكلام فيما يبدو، فلقد اعتقد أن بريطانيا ستلتزم الحياد في حالة خوضه بعض الحروب المحدودة في أوروبا الشرقية، أو ربما يكون قد تجاهل هذا الكلام عن عمد، فنوايا «هتلر» باتت واضحة، رغم رفض جنرالاته تنفيذ هذه الأفكار في هذا الوقت بالذات.. أصبح «هتلر» يؤرقه كثيرًا انتقادات جنرالاته، على رأسهم وزير الخارجية، ووزير الحرب، والقائد العام للجيش، ورفضهم التام لسياسة التوسع الآن، وكعادته «هتلر» عند مبدئه الخاص، لا مكان لمعارضي فكره حتى ولو معارضة مفيدة، فالآن يجب التخلص من «فريتش» و«بلومبرج» و«نيورات» الذين خالفوا رأيه مجددًا وبنفس الحدة.. أمر «هتلر» بإنهاء الاجتماع، ثم قرر إصدار قراراتٍ مصيرية جديدة في هذه الساعة.

كانت أوامر «هتلر» هي عزل وزير الخارجية المعترض «نيورات» وقيل بسبب قضية تتهمه بالمثلية الجنسية، ووزير الحرب المعترض «بلومبرج»؛ بحجة أن زوجته الجديدة لها ملف إجرامي قديم، وكذلك تم إجبار قائد الجيش «فريتش» على تقديم استقالته (كما جاء في كتاب «جنرالات هتلر»)، لينتهز «هتلر» الفرصة في إبدال وزارة الحرب بثوبٍ جديد تحت مسمى «القيادة العليا للقوات المسلحة»، ثم أعلن «هتلر» عن توليه قيادة القوات المسلحة؛ وذلك لأنه بالفعل شغل منصب الرئيس بموجب تعديلاته، التي اقتضت بتنصيبه القائد الأعلى للقوات..

فكرة تأسيس القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية كانت بمثابة دليل واضح على نوايا «هتلر»، وإعلان رسمي لخوضه الحرب؛ وذلك لأن هيئات القيادات العليا بالذات لا يتم تأسيسها إلا في أوقات الحرب، وتاريخيًّا يُعتبر هذا العام

١٩٣٨، هو بداية ظهور سياسة «هتلر» الخارجية التي تهدف لإشعال الحرب بدلًا من التفاوض حول السلم، لتكون هذه ساعة الصلبة التي تحدى وعاند فيها «هتلر» الجميع حتى المتخصصين، من الساعات المهمة في تحرك الأحداث المستقبلية، والتي سيكون لها عواقب وخيمة ستؤثر على سياساته القادمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٤)
ساعة التوسع

يجلس «هتلر» الآن مع قادة وأعضاء حزبه في المؤتمر الذي عقده الحزب في يوم ٢٨ مايو ١٩٣٨، ورغم مرور قرابة أربعة أشهر على أزمة الوزراء الثلاثة لم تنقطع أصوات المعارضين بين رجاله، ومن الواضح أن هناك أزمة داخل الهيكل القيادي للحزب، فقد تم عقد هذا المؤتمر ليكون رسالة للردِّ على المعارضين، وكان من بين المعارضين رئيس أركان الحرب نفسه الجنرال «لودفيج بيك» الذي أعرب عن احتجاجه على حرب التوسع الآن في سلسلة مطولة من المذكرات قد قدمها لمكتب الفوهرر، موضحًا أن إشعال حرب عالمية الآن ستخسرها ألمانيا بكل وضوح، هذا الأمر الذي استدعى «هتلر» أن يلقي عليهم خطابًا، ويلمِّح لمعارضة «بيك»، قائلًا: «إن هؤلاء المعارضين لفكرة الحرب يملكون حساباتٍ طفولية».. وفي الحقيقة لولا احتياجه الآن لـ«لودفيج بيك» لكان قد تخلص منه.

كان «هتلر» منذ أزمة «فريتش» و«بلومبرج» قد قرر ألا يصغي إلا لأفكاره الخاصة، ومن يعارضه يتم تسريحه من الخدمة، وبرغم حسمه لكل الأمور بعدها كان لم يزل في حيرة تامة بخصوص مسألة هل سيستمر في التحالف غير الرسمي مع الصين، أم يقوم بإبرام تحالف قوي مع اليابان لفرض نفوذ جديد على منطقة الشرق الأقصى؟ وكانت هذه الحيرة هي أصل مفتاح الأزمة التي ذكرناها؛ بسبب أن الجيش والخارجية قد فضَّلا استمرار ألمانيا في تحالفها مع الصين، وعدم دخول الحرب الآن، إلا أن المُعيَّنين الجدد على رأسهم «جواشيم فون ريبنتروب» الذي عُين في منصب وزير الخارجية، كان لهم رأي آخر، حيث أبدوا تأييدهم التام لليابان دون الصين.

بالفعل قرر «هتلر» إنهاء التحالف مع الصين، مقابل الفوز بتحالف بديل مع اليابان يُعتبر أكثر منه قوة من وجهة نظره.. وكخطوة أولى للتخلي عن الصين، قرر «هتلر» سحب قواته من دعمها، ورفع يده عن مدِّها بالسلاح الألماني، وكخطوةٍ ثانية لدعم اليابان قرر «هتلر» اعتراف ألمانيا بالسيادة اليابانية على ولاية «مانشوكو»، وهي ولاية في منشوريا في الداخل الصيني، قد احتلتها اليابان، وأصبحت لها السيادة الاسمية عليها، وكخطوة ثالثة، تخلى «هتلر» عن المطامع الألمانية في مستعمراتها السابقة في المحيط الهادي.

جاء الرد الصيني الانتقامي المتوقع كما تنبأ رجال «هتلر» المخلوعين بالضبط، حيث أصدر القائد العام الصيني «شيانج كاي شيك»، قرارًا يقضي بإلغاء جميع الاتفاقيات الاقتصادية المنعقدة بين بلاده وبين الرايخ، وإيقاف تصدير المواد

الخام إليهم، وعلى رأس القائمة مادة «التنجستين»، لتكون العواقب وخيمة على الاقتصاد الألماني، حيث سيؤثر ذلك على مشكلة إعادة التسلح بعدما اضطرت الحكومة إلى اللجوء للاحتياطي النقدي للعملة الأجنبية، من أجل شراء المواد الخام المطلوبة من السوق العالمي المفتوح.. أصبح «هتلر» في تخبطٍ واضح، وأصبح هذا عامل ضغطٍ كبير، يُعجِّل من تنفيذ استراتيجيته الاستعمارية من أجل إنقاذ اقتصاده، إذ لا مفر من هذا.. ولأن بريطانيا توقَّعت أنه سيحاول حل مشكلة الاقتصاد بالتوسع والاستعمار، أرسلت السفير البريطاني «نيفيل هندرسون» لمقابلته في ٣ مارس ١٩٣٨ كنائب عن الحكومة البريطانية، ومعه اقتراح جديد لإقامة اتحاد دولي، هدفه الرئيسي السيطرة على معظم القارة الإفريقية، وأن يكون نصيب ألمانيا من الحكم هناك كبيرًا، لكي تُعوِّض عجزها للمواد الخام من هناك بدلًا من الطمع في البلاد الأوروبية، بشرط أن تقدم ألمانيا وعدًا بعدم اللجوء للحرب لتغيير الحدود القائمة.. جاء الرد بالرفض من قبل «هتلر»، ففكرة توسعه في أوروبا الشرقية هي أهم ما يخطط له، بل وأخبرهم بأنه يريد أن تعود تلك المستعمرات تحت سيطرة ألمانيا النازية كلها، بدلًا من تحالفٍ دولي يسمح له فقط بحكم وسط إفريقيا.. ليست هذه هي أسباب الرفض وحسب، بل هناك سبب أكبر، هو غرور «هتلر» وغطرسته، الذي رأى أنه من الإهانة تدخُّل بريطانيا وإملاؤها شروطًا على ألمانيا تُقيد بها إدارتها لشئونها في أوروبا، في مقابل الحصول على منطقة في إفريقيا وكأنه عطفٌ منها.. كان في نهاية هذه المقابلة رسالة واضحة من «هتلر» لبريطانيا بالتحدي التام، خصوصًا بعدما قال «هتلر» للسفير إنه على استعداد تام للانتظار عشرين عامًا قادمة لاستعادة المستعمرات الألمانية المفقودة في إفريقيا، بدلًا من أن يقبل شروط بريطانيا التعسفية الخاصة بشأن تجنب الحرب.

لم يسمع «هتلر» صوت سوى صوت عقله، وكبديل للخسارة الاقتصادية التي حلت بسبب إلغاء الاتفاقيات الاقتصادية مع الصين، شرع «هتلر» في التنفيذ الفوري لسياسة التوسع والاستعمار بعد أسبوعٍ واحدٍ من لقائه بالسفير البريطاني، ليقرر الضغط على النمسا من أجل ضمها لألمانيا بالسلم بدلًا من الحرب في مارس من عام ١٩٣٨، وأطلق على عملية الاندماج اسم «آنشلوس».. استسلمت النمسا بعد تهديدٍ واحد، وسط دهشة وذهول العالم كله حتى «هتلر» نفسه، لا مقاومة ولا معارضة، وفي الحقيقة هذا الاستسلام كان مهيَّأً له من قبل، فإمبراطورية النمسا والمجر التي قد تفككت فور خسارتها للحرب العالمية الأولى، مرَّت عليها فترات عصيبة تغيرت فيها عدة حكومات، وعندما تسلَّم «إنغلبرت دولفوس» الحكم في ١٩٣٢ أصبح ديكتاتورًا مكروهًا من الشعب، وتوحدت المعارضة حول وجوب خلعه، وبحلول عام ١٩٣٤ كان الحزب النازي قد أقام فرعًا جديدًا هناك، وانضمَّ للمعارضة ضده،

وبتحريض من الحزب النازي النمساوي قامت ثورة وتم اغتياله، ولكن لم يتمكن النازيون هناك من امتلاك السلطة ليتسلمها المستشار «كورت شوشنيك»، ومن وقتها والشعب النمساوي يأمل في الانضمام لألمانيا بكل ترحيب.

استجابت النمسا لعملية الاتحاد، وفي ١٤ مارس دخل «هتلر» فيينا للمرة الثانية في حياته، لكن هذه المرة دخل منتصرًا، زعيمًا، على عكس الحياة البوهيمية القديمة، التي أنهكت عظامه بفعل التشرد، إنها فيينا التي رفضته كفنان، الآن جاءها كزعيم.. أصبح لـ«هتلر» السيادة الفعلية على النمسا، وكبداية للتلميح لقرارٍ توسعيٍ جديد، أول شيء طالب به هو ضمُّ إقليم «السوديت» التابع لتشيكوسلوفاكيا؛ بسبب أن غالبية سكانه ألمان.

كان هذا تلميحًا لنية «هتلر» ضمَّ تشيكوسلوفاكيا، وبالفعل فكَّر في الأمر بعد أيامٍ قليلة من ضمِّ النمسا، وكمحاولة للبحث عن خطة للغزو، عقد «هتلر» مجموعة اجتماعات طويلة وسرية ومغلقة، استمرت يومي ٢٨ و٢٩ مارس في برلين، مع «كونراد هنلاين» وهو قائد حزب «الجبهة الداخلية»، أكبر الأحزاب العرقية الألمانية في السوديت التابعة لتشيكوسلوفاكيا، والذي أبدى ولاءه لـ«هتلر»، ليخرجا من هذه الاجتماعات متفقين على أن يقدم «هنلاين» ذريعة تغزو بها ألمانيا تشيكوسلوفاكيا، هذه الذريعة كانت تتلخص في مطالبة السكان الألمان القاطنين في منطقة سوديتنلاند، حكومة «براغ» هناك بحقهم في الحصول على الحكم الذاتي، وهو مطلب من غير المحتمل أن تقرَّه الحكومة.. وبالنسبة لـ«هتلر» لم تكن منطقة سوديتنلاند تعنيه أو ذات أهمية كبيرة بالنسبة له، لكنه كان يريدها قضية رأي عام يبرر بها غزوه لتشيكوسلوفاكيا وتدميرها، كدفاع عن حق أهل هذه المنطقة في تقرير مصيرهم ورفض حكومة براغ تلبية مطالبهم.. استعد «هتلر» لهذا الغزو المرتقب، وأمر بتوافد تعزيزات عسكرية ضخمة على الحدود التشيكية، وقامت وزارة الدعاية الألمانية بشنِّ هجمات دعائية موسعة، تتحدث عن الاضطهاد الذي يعانيه الألمان في هذه المنطقة، بالتوازي مع قيام نشطاء حزب الجبهة الداخلية المتحالف مع «هتلر» هناك، بافتعال الأزمات مع السلطة التشيكية، وبدء المناوشات حتى يتم اعتقال البعض منهم، ليصبح مبرر الغزو الألماني أكبر.

وفي إبريل من عام ١٩٣٨، أمر «هتلر» القيادة العليا للقوات المسلحة بالتحضير لخطة الاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا، والتي أطلق عليها اسم «الخطة الاستراتيجية لغزو تشيكوسلوفاكيا».. وبحلول شهر مايو ظهرت أزمة دبلوماسية جديدة، نتجت عن إنذارٍ كاذب أطلقته شائعات، تُنذر بغزو ألمانيا لتشيكوسلوفاكيا مع نهاية الأسبوع الثاني من هذا الشهر، وهو الأسبوع الذي

ستجرى فيه الانتخابات المحلية في البلاد، وقالت هذه الشائعات إن الجيوش الألمانية واقفة الآن على الحدود التشيكية في حالة تأهب قبل إجراء الانتخابات، بينما «هتلر» كان لم يعدَّ خطة للغزو أصلًا.. نمت الشائعة لدرجة أن تشيكوسلوفاكيا قامت بالتعبئة الجزئية، بل وبريطانيا نفسها تأثرت بتلك الشائعة، حيث أطلقت لندن تحذيرات صارمة بشأن الغزو الألماني لتشيكوسلوفاكيا في نهاية الأسبوع، وذلك قبل أن تدرك عدم صحة هذه الشائعات، وأنه لا وجود لأي غزو ألماني في نهاية هذا الأسبوع، فالألمان فعلًا لم يخططوا للغزو بمايو، حيث كانت تخطيطاتهم تشير للغزو بأكتوبر بعد وضع خطة للتنفيذ.. كانت هذه الشائعة في مصلحة الألمان بدون قصد، فقد تمت وكأنها عملية جس نبض تُظهر ما في كل النفوس، وبالذات ما في نفس بريطانيا، فالكثيرون في لندن كانوا يؤمنون بأن برلين تفكر حتمًا في غزو تشيكوسلوفاكيا.. أما «هتلر» فقد أصابه غضب عارم؛ بسبب اعتقاد الجميع بأنه قرر التراجع عن الغزو في نهاية الأسبوع؛ خوفًا من التعبئة التشيكية، وهلع من إنذارات فرنسا وبريطانيا، ولم يعلم الجميع أنه لم يقرر غزوها هذا الأسبوع أصلًا لكي يتراجع.

كانت أزمة مايو، وهزيمة «هتلر» الدبلوماسية التي لم يكن له يد فيها، قد زادتا من قناعة «هتلر» بصحة المسار الذي اختاره، وخصوصًا غزو تشيكوسلوفاكيا، لكنها على صعيدٍ آخر أقنعته بصعوبة التوسع دون مساندة بريطانيا على الأقل بشكلٍ دبلوماسي، وأن التوسع ضد بريطانيا نفسها كان النهج الوحيد القابل للتطبيق في ذلك الوقت.. ومن نتائج تلك الأزمة إدراك «هتلر» أن التهديدات البريطانية يمكنها توقيفه في أي وقت قادم، ليُصدر أوامره بالإسراع في صناعة بحرية مستقلة بالألمان، أكبر من المشروطة في المعاهدة البحرية بينه وبين بريطانيا(a.g.n.a) التي ذكرناها، ومنذ هذه اللحظة أوصى «هتلر» قواته بالأخذ في الاعتبار أن الأسطول البريطاني هو العدو الرئيسي للقوات البحرية الألمانية، بل وأعلن أمامهم أن قراره بغزو تشيكوسلوفاكيا في بداية شهر أكتوبر القادم لا رجعة فيه، موضحًا أن هذه الطريقة الوحيدة التي يستطيع حيالها تأمين الجناح الشرقي في الجيش، حتى يزحف من ناحية الغرب بارتياح نحو فرنسا وإنجلترا.. كان «هتلر» على ثقة تامة بأن بريطانيا لن تبادر بخوض حرب هذه الأيام؛ بسبب انشغالها بالتحديث العسكري، وإعادة التسليح الجديد، والذي قدر «هتلر» نهايته ما بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٢، ليعطي أوامر حادة لجنرالاته بحتمية سحق فرنسا وحلفائها قبل أن يأتي عام ١٩٤١، لضمان عدم تدخل بريطانيا.

قابلت خطة «هتلر» انتقادات حادة من قِبل قادة الجيش، على رأسهم أركان الحرب الجنرال «لودفيج بيك»، والذي أعرب عن أن هذه الاستراتيجية التي أسماها «هتلر» بخطة «فال جراون» ستتسبب في إشعال حرب عالمية،

سيكون نصيب ألمانيا منها الخسارة الساحقة، ليلتمس من «هتلر» التخلي عن فكرة الحرب، وما كان من «هتلر» سوى أن ابتسم، ليمضي في قراره بكل جرأة، ثم أمر بعقد هذا المؤتمر القائم في هذه الساعة ليجدد فيه رأيه حول غزو تشيكوسلوفاكيا بحلول الأول من أكتوبر القادم، وأوضح أن هذا القرار أصبح «غير قابل للتغيير».. وبعد انتهاء الساعة أمر بعقد اجتماعٍ سري مع جنرالات الجيش؛ للبحث عن خطة مناسبة للغزو، وتعتبر هذه الساعة بداية حقيقية للتوسع الشرقي، وتمديد نفوذ ألمانيا الحيوي، خصوصًا بعد ضمِّ النمسا والتخطيط لغزو تشيكوسلوفاكيا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٥)
ساعة الإحجام

«هتلر» الآن على موعدٍ مع عيش ساعة مملة، كان كارهًا لها من قبل أن تأتي، فهي بمثابة إحجام رسمي يُقيد ويجمد خطته للتوسع الشرقي.. الساعة الآن الواحدة ظهرًا من يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٣٨، حيث بدأت مراسم «معاهدة ميونيخ»، بحضور «هتلر» و«ليفين تشامبرلين» رئيس وزراء بريطانيا، و«إدوارد دلاديبه» رئيس الوزراء الفرنسي، تحت وساطة الزعيم الفاشي «موسوليني».. كان «هتلر» يبتسم رُغمًا عنه برغم أنها معاهدة سلام؛ فهي سبب في وقف ترتيبات «هتلر» لغزو تشيكوسلوفاكيا.

كان «هتلر» قبلها قد قام بتحديد توقيت الغزو، راغبًا في أن يكون أكتوبر من عام ١٩٣٨ دون تراجع، وعندما جاء شهر أغسطس تسللت بعض التقارير إلى اللوبي البريطاني، والتي تفيد بأن «هتلر» بدأ في تدريب جنود الاحتياط، كما أفادت تسريبات أخرى قام بها مجموعة من الألمان المجهولين الرافضين لفكرة الحرب، بأن «هتلر» سيراوغ وسيعطي إشارة بالغزو في وقتٍ غير معلوم من سبتمبر.. أما الداخل التشيكي فطيلة الشهور الماضية غارق في حالة توترٍ عام، فأن تقتلني خير من أن تهددني بالقتل، وأعرب الرئيس التشيكي «إدفارد بينيس» عن قلقه من الحرب عندما استنجد بفرنسا وبريطانيا، لتسفر المفاوضات الدبلوماسية بينهم، عن تهاون الرئيس التشيكي أمام مطالب ألمان سوديتنلاند، حيث أصدر في يوم ٥ سبتمبر قرارًا سُمي بـ«الخطة الرابعة»، وملخصها أنها كانت خطة إصلاحية تم وضعها من أجل إعادة صياغة دستور جديد، يضع في الاعتبار مطالب المواطنين الألمان في سوديتنلاند، وعلى رأس هذه المطالب رغبتهم في الحكم الذاتي التام، ثم صرح الرئيس التشيكي في خطابٍ له أمام العامة، بأنه سيبطل كل الوقائع والذرائع والحجج التي ستمكِّن الألمان من غزو تشيكوسلوفاكيا.

اعتقد الفرنسيون والإنجليز والتشيكيون أن القصة الآن انتهت، وأن مناوشات سوديتنلاند قد أُغلقت دفاترها، ليفاجئوا جميعًا بردِّ فعل المعارضة الغريب بعد هذا القرار، حيث احتجَّ حزب الجبهة الداخلية بقيادة «هنلاين» على ما نصَّت عليه «الخطة الرابعة»، ونظموا مسيراتٍ مناهضة لها، زاعمين أنها مجرد وعودٍ على ورق، أسفرت المسيرات عن سلسلة من الاشتباكات العنيفة والدموية مع الشرطة التشيكية، مما أجبر الحكومة على إعلان الأحكام العرفية في بعض المناطق الحيوية في إقليم السوديت.. وبسبب تفاقم الأزمة رغم محاولات حلها، قرر رئيس الوزراء البريطاني «نيفيل تشامبرلين» تقديم

طلب لـ«هتلر» للسماح له بالسفر إلى ألمانيا ومقابلته في يوم ١٣ سبتمبر؛ بغرض التفاوض معه للتوصل لاتفاقية جديدة تقضي بإنهاء الأزمة، كانت هذه محاولة من «تشامبرلين» لتلطيف الجو بعدما اعترف بأن البريطانيين قد تم خداعهم بمعلوماتٍ خاطئة، التي أنذرت أن «هتلر» ينتوي شنّ غزو على تشيكوسلوفاكيا خلال هذا الشهر، واعترف بأن هذه بدت مجرد شائعة.

تلقى «هتلر» الطلب من القنصل البريطاني، وبصراحة، لم يكن لـ«هتلر» رغبة في مقابلته على الإطلاق، وتمنى رفض هذه المقابلة، لكن ليس بيده أي حيلةٍ سوى القبول، ليثبت مزاعمه التي طالما أخبرهم بها حول أنه رجل سلام لا يتطلع للحرب.. عُقِدت القمة المرتقبة بينه وبين تشامبرلين في منطقة «بيرشتيسجادين»، التي افتُتِحت بعبارات السلام والحب، وخلالها وعد رئيس الوزراء البريطاني بالضغط على الرئيس التشيكي، وإقناعه بتحقيق مطلب «هتلر» بخصوص تحويل تبعية منطقة سوديتنلاند إلى ألمانيا، بشرط أخذ وعدٍ من «هتلر» ألا يمضي قُدما نحو أي تدخلٍ عسكري، لحين تمكن «تشامبرلين» من إقناعه.. أعلن «هتلر» خلال القمة موافقته على مبادرة «تشامبرلين»، رغم أنه متأكد تمامًا من أنه سيفشل في تلك المهمة، وأن حكومة براغ لن توافق على تحويل تبعية سوديتنلاند للألمان مهما حدث.. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فلقد نجحت الجهود البريطانية والفرنسية في تحقيق هذه المبادرة، مما أصاب «هتلر» بحالة إحباط شديدة حيال رغبته في الغزو، فلقد استجابت الحكومة التشيكية لمطلب «هتلر» الذي اعتقد أنه مستحيل.

استمرت المحادثات الدبلوماسية بين «هتلر» و«تشامبرلين» قائمةً بشكلٍ متطور، فرئيس الوزراء البريطاني رجل دبلوماسي من الطراز الأول، ويعلم ماذا يفعل جيدًا، ولكن أظهرت تلك المحادثات المتتالية عن اختلاف وجهات النظر بينهما، واختلاف مفاهيمهما وأفكارهما، فـ«هتلر» كان يرى أنه لا نفوذ إلا بالحرب، أما «تشامبرلين» فكان مخضرمًا، يحاول البحث دائمًا عن سبيل يمكنه من حل المشكلات السياسية خصوصًا مشكلة سوديتنلاند قبل البدء في سياسة ضرب النار.. حاول «هتلر» التملص من إقناعات «تشامبرلين»، والتفكير فيما يريده هو بعيدًا عما يريده العالم، وبعد مرور أيام قليلة أرسل «تشامبرلين» وفدًا بريطانيًّا إلى ألمانيا في ٢٢ سبتمبر؛ لتنفيذ ما نصَّت عليه القمة الأولى، والنقاش مع «هتلر» حول عرض خطة السلام المتمثلة في نقل تبعية سوديتنلاند إلى ألمانيا، في قمة يتم عقدها مع «هتلر» بمنطقة «باد جوديسبيرغ»، ولكن بغرابة شديدة اصطدم الوفد المكلف بالتفاوض برفض «هتلر» تنفيذ الشروط التي أقرَّها بنفسه في القمة الأولى.. وفي محاولة واضحة للقضاء على مساعي ومجهودات «تشامبرلين» نحو عملية السلام الخاصة بهذه الأزمة، وبحدةٍ وغضبٍ تام أمر «هتلر» تشيكوسلوفاكيا بالتخلي تمامًا عن سوديتنلاند وتسليمها للألمان في غضون أسبوعٍ واحد؛ لكي تقي

بلادها الحرب، دون أي نقاش أو تفاوض بين براغ وبرلين، بَل ودون تدخَّل أي دولة أخرى في هذا الشأن، بل ودون تفويض دولي لمراقبة عملية النقل، بل وطالبهم بعدم إجراء أي استفتاءات في المناطق التي سيتم نقل تبعيتها إلى ألمانيا.. وفي تحدٍّ للجميع أعلن «هتلر» أن ألمانيا لن تتخلى عن خيار الحرب، إلا بعد أن تتوصل تشيكوسلوفاكيا إلى حلول لادِّعاءات بولندا والمجر ضدها.

قوبلت هذه القرارات بالاحتجاج البريطاني، وأعرب «تشامبرلين» عن رفضه للهجة الإنذار التي اتسمت بها هذه المطالب، ليأتي الرد من «هتلر» محاولًا إقناع «تشامبرلين» بأنه ليس تهديدًا وأنه أساء الفهم، وما يثبت حسن نيته أن الوثيقة المدون بها مطالبه، نُعتت بالمذكرة، فهذا يعني أنها ليست إنذارًا.. كان لهذه التهديدات أثر كبير في النفس البريطانية التي لا تريد فقدان هيبتها، وبعد ثلاثة أيام فقط من إعلان «هتلر» عن مطالبه الجديدة، قامت بريطانيا برفض مذكرته، وبدأت في الاستعداد للحرب، وكمحاولة أخيرة للتحذير زار «سير هوريس ويلسون» مساعد «تشامبرلين» والمستشار الصناعي الأول في الحكومة البريطانية ألمانيا، ليخبر «هتلر» رسالة أخيرة تنبيهية، وهي أنه في حالة هجوم ألمانيا على تشيكوسلوفاكيا، يجب الأخذ في الاعتبار أن فرنسا ستتدخل فورًا؛ لتنفيذ التزامها بالتحالف بينها وبين تشيكوسلوفاكيا، والذي تم في عام ١٩٢٤، وبناءً على ذلك سيدخل الحرب كل من الاتحاد السوفياتي؛ لالتزامه بمساعدتها كحليف، أي أن الحرب ستكون في النهاية بينه وبين فرنسا والاتحاد السوفياتي، وأن يضيف إلى ذلك دخول بريطانيا بالذات.

لم يهتز «هتلر» أمام هذا التهديد، وبات يفكر طيلة ليلتي ٢٧ و٢٨ سبتمبر، في كيفية الهجوم على تشيكوسلوفاكيا، والذي أصرَّ على أن يُنفذ بعد ثلاثة أيام.. جلس «هتلر» يفكر طيلة يومين كاملين، كيف سيغزو تشيكوسلوفاكيا رغم التهديدات البريطانية والفرنسية، كيف سيُعلن الحرب والأسطول البريطاني قد تحرك بالفعل، وأصبح على أهبة الاستعداد ليضرب بلاده، بل وصرحت قواته البحرية بأنها لن تستطيع اختراق الحصار الذي فرضه الأسطول البريطاني البحري عليها الآن.. هل ينفذ خطة «فول جراون» والتمدد الحيوي ناحية الشرق رغم كل هذه التحديات؟ هل هو مستعد بالفعل لشن حربٍ إقليمية واسعة المدى والتي حذره منها مستشاروه سابقًا، حينما صرحوا بأن ألمانيا غير مستعدة لخوض حرب عالمية على الصعيدين العسكري والاقتصادي؟ الآن الأمر أصبح أكثر خطورة؛ فالتحذيرات لم تأتِ من مستشاريه فقط، بل تلقى العديد من التحذيرات من بعض الدول التي اعتبرها دولًا حليفة له، فلقد أعلنت كل من إيطاليا واليابان اعتراضهما على خطته، وأنهما لن تخوضا حربًا عالمية بالنيابة عنه، لم تأتِ التحذيرات من الدول الحليفة وحسب، بل أعرب غالبية الشعب الألماني عن عدم رضاه على فكرة الحرب بشكل عام.. هل سيتحدى «هتلر» كل هذه المعوقات ويحارب بيده؟

ثم ماذا عن الاقتصاد الألماني، الذي بدا عليه الضعف الشديد؛ بسبب نقص الإمدادات الكافية من الزيت وغيره من المواد الخام الأساسية؟ ثم ماذا عن مصانع النفط الحربية المتوقفة، والتي أجبرتهم على الاعتماد لدرجة كبيرة على الواردات من الخارج؟ هل بعد معاداة الجميع سيجد من يُصدِّر له؟ وإن وجد من أين سيجلب العملة الصعبة؟! ألمانيا الآن لم يكن لديها أي مخزون احتياطي من الزيت، وهذا سبب كفيل لخسارتها أي حرب ستخوضها في غضون أيام، فكل ما تملكه ألمانيا من الزيت الآن هو ٢.٦ مليون طن، أما في حالة دخول حرب ضد الوحشين بريطانيا وفرنسا يستلزم ما لا يقل عن ٧.٦ مليون طن من الزيت.. لم تكن مشكلة نقص الزيت هي الأبرز، بل زاد الأمر تعقيدًا عندما حظرت بريطانيا إمداد بلاده بالمعادن، ثم أوقفت المعاهدة البحرية، ومنعت سفنها البريطانية من الإبحار إلى ألمانيا، ثم جاءت الضربة القاضية باحتجاز بريطانيا ناقلة البترول «إنفرشنون» التي كانت ستزود ألمانيا بـ٨٦٠٠ طن، واحتجازها يُنذر عن أزمة اقتصادية قادمة بكل المقاييس، فألمانيا كليًّا تعتمد على استيراد النفط، واحتمالية دخول ألمانيا في حرب مع بريطانيا، يجعلها في حصار بحري تام سيقطع عنها إمدادات النفط التي تأتيها من الكثير من الدول، وهذه هي أكبر الكوارث التي أرعبت «هتلر».. حقًّا لقد تمكن البريطانيون من تحجيمه.

صمدت رأس «هتلر» أمام كل هذه الصواعق طيلة يومين كاملين، وبعد تفكيرٍ عميق قرر التراجع مؤقتًا عن ضربته، ووافق على اقتراحٍ قدَّمه صديقه المقرب «موسوليني»، أبدى فيه رغبته للقيام بدور الوسيط للتنسيق مع «تشامبرلين» رئيس وزراء بريطانيا، و«إدوارد دلاديبه» رئيس الوزراء الفرنسي؛ لدعوتهما لعقد مؤتمر في ميونيخ؛ للبحث عن حل لأزمة تشيكوسلوفاكيا بوساطة إيطالية.

بالفعل تم عقد المؤتمر في ميونيخ اليوم الموافق ٣٠ سبتمبر ١٩٣٨، والمقرر عقده ليومٍ واحد، وحضر الجميع، وجلسوا يتشاورون حول نصِّ المعاهدة، التي استجابت لطلباته الظاهرية، والتي لم يعلم الجميع بأنها كانت مجرد حجج أرادها أن تكون بوابة عبورٍ للغزو.. على كل حال الآن قد آلت تبعية المناطق الموجودة في سوديتنلاند إلى ألمانيا.. وقَّعت الأطراف جميعها على المعاهدة، وتحدث النظيران البريطاني والفرنسي حول الإجراءات الفنية لتنفيذ عملية نقل التبعية، وقد طالبوا «هتلر» بتنازلٍ بسيط، طالبين منه الموافقة على أن تتم عملية نقل التبعية في غضون العشرة الأوائل من شهر أكتوبر، وبتفويض دولي يراقب عملية النقل، ومطالبين إياه بالانتظار بعض الوقت حتى يتم تسوية الادِّعاءات المجرية والبولندية.

بعد موافقة جميع الأطراف والانتهاء من المحادثات، عرض عليه رئيس الوزراء البريطاني «تشامبرلين» توقيع معاهدة صداقة بين البلدين.. وافق «هتلر» وتم التوقيع عليها، الأمر الذي رأى فيه «تشامبرلين» نصرًا عظيمًا لتحقيق عملية السلام، لدرجة أنه صرَّح بأن هذا المؤتمر قد ضمن تحقيق السلام في الوقت الراهن.. لكن في الوقت نفسه لم يكن لهذا المؤتمر أي أهمية في نفس «هتلر»، فـ«أدولف» ما كان يتمنى التوقيع على معاهدة الصداقة، ولا على معاهدة ميونيخ نفسها، ولا حتى كان يتمنى مجيئهم من الأساس، فهذه الساعة لم تكن إلا إحجامًا لحلم «هتلر» الاستعماري، وتعطيل زحفه وإقدامه نحو حلمه المعهود.. الآن تم تقييده بشكل دبلوماسي، فهتلر الآن بداخله غضب شديد؛ بسبب اضطراره التخلي عن الحرب التي تطلع لربحها، ورغم عدم الرضا عن كل ما يحدث من مفاوضات، فاز «هتلر» في استفتاء مجلة «تايم» بلقب رجل العام ١٩٣٨.

(١٦)

ساعة العزم

نحن الآن في يوم ١ فبراير ١٩٣٩، وفي وقتٍ متأخرٍ من النهار بعد قضاء الفوهرر سلسلة اجتماعات مفصلة مع قادة قواته على مدار أربعة أيام كاملة، حيث قد عقد اجتماعًا مفصلًا مع قادة قوات «الفريمخات» (قوات الدفاع النازية)، واجتماعًا آخر مع قادة قوات الجوية، وآخر مع قادة قوات البحرية، واليوم قد اجتمع مع نخبة من الصحفيين، والآن هو في اجتماع مطول مع كل قادته جميعًا، يبدو أن «هتلر» عازم على بدء الحرب، ولكن كيف سيحدث هذا بعدما أجبروه على توقيع معاهدة ميونيخ!

كان قد نتج عن توقيع معاهدة ميونيخ سعادة وترحيب بالغ لدى «تشامبرلين» رئيس الوزراء البريطاني، الذي صرح في المحافل الدولية بأن هذه المعاهدة بمثابة نصرٍ جديد سيقي المنطقة شر الحروب، وكخطوة مهمة لكسب «هتلر» غضَّ البريطانيون الطرف عن تشيكوسلوفاكيا، وكذلك فعلت فرنسا، وتركوها تحت رحمة «هتلر» يباغتها سياسيًّا كيف يشاء.. أما «هتلر» فحاول التظاهر بغير الحقيقة، واهمًا المجتمع الدولي بمدى سعادته تجاه تلك المعاهدة التي حققت انتصارًا لمطالبه الظاهرية، أما ما في القلب فظل كما هو، فلقد عقد الفوهرر عزمه على عدم التفريط في أي فرصة مستقبلية للغزو دون انتظار ولو لساعة واحدة، فبالنسبة له لم تكن معاهدة ميونيخ للسلام سوى هزيمة دبلوماسية لبلاده، وقد أوضحت تلك التجربة تأكيدًا عميقًا للحقيقة التي آمن بها من قبل، وهي أن أحلامه لتوسيع مجال بلاده الحيوي في الشرق، لن تتحقق إلا بمواجهة بريطانيا نفسها، بل وسحقها، فبريطانيا الآن أصبحت شبحًا يهدد مساعي «هتلر» الاستعمارية، فهي قد قطعت عليه

كل الطرق، حيث رفضت عقد تحالف عسكري معه، ربما يكون هذا مقبولًا بعض الشيء لدى «هتلر»، إنما غير المقبول بالنسبة له عدم التزامها الحياد، وبسبب تحجيمها لتصرفاته وتدخلها في كل شيء، أصبحت عائقًا صلبًا يصدُّ طموحات الرايخ التوسعية في القارة الأوروبية.

ازدادت كراهية «أدولف» للبريطانيين في هذه اللحظة أكثر من أي وقتٍ مضى، لقد أدرك أنه لا توجد دولة غير بريطانيا كأكثر تهديد لبلاده، وأصبحت في المرتبة الأولى للعداء لتتخطى عدوه التاريخي روسيا.. قرر «هتلر» تعديل سياساته ومعاملاته تجاه الجانب البريطاني، وأصبح يجهر بمعاداته لهم في العلن، ففي خطبةٍ له في مدينة «ساربروكين» يوم ٩ أكتوبر عام ١٩٣٨، أعرب عن ندمه على توقيع معاهدة ميونيخ، ووصفها بأنها لم تفِد السلام في شيء، وأوضح أن السبب في تغير موقفه هذا، خروج بعض الأصوات من الداخل البريطاني لرجال لا يحبون السلام، وصفهم بمثيري الحروب والفتن، وقال إنهم لا يسعون أبدًا إلى تهدئة الأوضاع، وذكرهم بالاسم: «وينستون تشرشل»، و«أنتوني إيدن»، و«ألفريد داف كوبر»، وصرح بأن هؤلاء الرجال سيهاجمون ألمانيا في أول فرصة تأتيهم، وقال إنهم إن تولوا مقاليد الحكم سينسفوننا، ثم أردف قائلًا بالحرف الواحد: «نحن الألمان لن نتحمل بعد اليوم هذا التدخل الذي يفرض سلطته علينا، يجب على بريطانيا أن تلتفت لشئونها هي فقط، وتهتم بحل مشكلاتها هي فقط».

كان هذا الخطاب إعلانًا رسميًا من «هتلر» للعداء مع بريطانيا، وبعد مرور شهرٍ على هذا الخطاب، أمر باستخدام سلاحه المهم الذي أصبح مؤثرًا بفضل «جوبلز»، ألا وهو سلاح الدعاية، فانطلقت حملة دعائية كبرى ضد بريطانيا، وكان عنوانها «بريطانيا المنافقة»، بالإضافة إلى الكثير من العبارات التجريحية، ليوضح فيها صفة النفاق التي ظهرت على سياسة بريطانيا، حيث تسعى للحفاظ على إمبراطوريتها في كل بقاع الأرض، وفي المقابل تحرِّم ذلك على الألمان، واقفةً في وجههم حيال تحقيق حلمهم.. وأوضحت الدعاية النازية عن بروز سياسة النفاق التي تتبعها بريطانيا حينما اعترضت على انتهاكات الألمان ضد اليهود في «عملية البلور» أو الزجاج المكسور، بينما هي في نفس الوقت تقوم بانتهاكات لحقوق الإنسان في تعاملها مع انتفاضة العرب في فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني، وكذلك في الهند.. والانتداب البريطاني على فلسطين باختصار، أو بالمسمى الأصح «الاحتلال البريطاني لفلسطين»، هو نظام السلطة الحاكم في فلسطين والأردن حينها، ومنذ عام ١٩٢٠، كان ذلك من ضمن تقسيم تركة الحرب العالمية الأولى بين إنجلترا وفرنسا، فور سقوط الدولة العثمانية بموجب «معاهدة سيفر»، وكانت بريطانيا وفرنسا قد اتفقتا منذ وقتٍ مبكرٍ على تقسيم بلاد الشام بينهما في اتفاقيةٍ سريةٍ في ١٦ مايو ١٩١٦.. وقع هذا الانتداب على كل ربوع

دولة فلسطين العربية، ومنطقة شرق الأردن، ومع حلول عام ١٩٢١، خرج شمال الأردن من تحت وطأة الاحتلال، طبقًا لمذكرة شرق الأردن، حيث تمتعت بحكمٍ ذاتيٍ ولم تخضع لمبادئ الانتداب أو لـ«وعد بلفور».. سكن الحاكم العسكري البريطاني وحكومة الانتداب في مدينة القدس الشريف، وجعلوا منها عاصمتهم، ومع بداية الانتداب أعلنت بريطانيا دعمها لليهود، وتحقيق وعد بلفور الذي كان بمثابة تعهُّد منهم لإقامة دولة خاصة على الأراضي الفلسطينية، وفتحت لهم أبواب التوافد ليهاجروا إليها من شتى بقاع الأرض.. وفي الثلاثينيات قررت بريطانيا تغيير سياستها وحاولت منع توافد اليهود بشكلٍ أكبر بعدما ظهر الكثير من التطاولات من قبل الجانب اليهودي، خصوصًا بعدما أنشأوا منظماتٍ عصابية كـ«الهاجاناه»، واستمر الفلسطينيون في الاحتجاج ضد اليهود وضد البريطانيين الداعمين لسياستهم، فقابلهم البريطانيون بسلسلة من الانتهاكات والتصفيات، على رأسها قتل الشيخ «عز الدين القسام» على أيدي الشرطة البريطانية بالقرب من جنين في نوفمبر ١٩٣٥، وبعد أشهر قليلة، دعت اللجنة القومية العربية إلى الإضراب العام الذي استمر حتى أكتوبر ١٩٣٦، والذي صحبه الكثير من المقاومة ضد المحتلين، وفي عام ١٩٣٧ اقترحت بريطانيا تشكيل لجنة «بيل»، التي كان هدفها تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية في جزء من الأراضي كان السكان العرب يشكلون فيها الأغلبية، ودولة عربية أخرى مدمجة مع الأردن، ليتم رفض المقترح من قبل العرب، وتندلع المقاومة المسلحة بشكلٍ موسع خلال الأشهر التالية، ليفقد البريطانيون السيطرة على القدس ونابلس والخليل.. وبعد ذلك مباشرة شنَّت بريطانيا واحدة من أعنف الحملات الدموية ضد الشعب الفلسطيني، في انتهاكٍ واضحٍ لحقوق الإنسان، حيث قمعت القوات البريطانية أعمال المقاومين بمساعدة ٦٠٠٠ شرطي صهيوني، بل ونظمت فرقًا ليلية بريطانية خاصة مؤلفة من جنود بريطانيين ومتطوعين صهاينة، للإغارة على قرى عربية في الجليل وفي مرج بن عامر، لتُسفر هذه الثورة عن مقتل الآلاف من المجاهدين الفلسطينيين دون ذنب.

هذا هو الانتهاك الذي يُعاير به الألمان بريطانيا المنافقة، أما قصة «ليلة الزجاج المحطم» التي عاير بها البريطانيون الألمان، فكانت قد وقعت في يومي ٩ و١٠ نوفمبر من عام ١٩٣٨، وهي عمليات تطهيرية قام بها النازيون ضد الممتلكات اليهودية في ألمانيا أينما كانوا، لتطول هذه الهجمات بيوتهم ومصالحهم ومتاجرهم وكنائسهم اليهودية، وبعد النهب أتى دور الحرق، وسُمِّيت هذه الليلة باسم الزجاج المكسور، لكثرة الزجاج الذي تكسر فيها.. كان السبب الرئيسي وراء انطلاق هذه الحملة، إعطاء الحكومة إشارة البدء بعدما أشعلت شرارة الهجمات، فور اغتيال الدبلوماسي الألماني «إرنشت فوم راث» في باريس على يد مراهق يهودي بولندي مولود في ألمانيا يُدعى

«هيرشل غرينزبان».. وحصيلة هذه الهجمات هي قتل ٩١ يهوديًّا، والقبض على أكثر من ٣٠ ألفًا، وإحراق جميع بيوتهم، وإحراق أكثر من ألف كنيس يهودي، وإتلاف أكثر من ٧ آلاف منشأة مملوكة لليهود.

هاتان هما القضيتان اللتان تم ذكرهما في دعاية «هتلر» ضد البريطانيين، دعاية «هتلر» التي انتبه من خلالها الشعب الألماني للتحول التام في سياسة الزعيم، ففي السنوات الأولى من عهد الرايخ الثالث كانت وسائل الإعلام الألمانية تقدِّم الإمبراطورية البريطانية بصورة مثالية، فماذا حدث الآن!، اضطر «هتلر» لتوضيح هذا التحول في خطاباته، محاولًا تثبيت فكرة أنه اكتشف أن بريطانيا هي عدوهم الحالي.. ثم أصدر «هتلر» أمرًا مباشرًا لوزير خارجيته في يوم ٩ نوفمبر ١٩٣٨، طلب فيه تحويل اتفاقية مكافحة الشيوعية إلى تحالف عسكري مفتوح، يدعو لمناهضة بريطانيا، بحيث يكون بمثابة مقدمة لإعلان الحرب على كلٍّ من بريطانيا وفرنسا.. أصبحت معاداة «هتلر» واضحة ومحاولة استدراجه لخصومه أصبحت في العلن، ومنذ الأمس قد استشعر رجاله بأنه عازمٌ على بدء الحرب، حيث أمر بعقد سلسلة من الاجتماعات مع قادة قواته، كلّ قوةٍ على حدة، كان أول اجتماع منذ ثلاثة أيام في ٢٧ يناير ١٩٣٩، مع قادة القوات البحرية، والذين عرضوا عليه «الخطة زي»، وهي خطة تهدف للتوسع البحري خلال فترة لا تزيد على خمس سنوات فقط، والتي وضحت أنه بحلول عام ١٩٤٤ ستملك ألمانيا قوة بحرية ساحقة، مكونة من ٢٤٩ غواصة ألمانية، و ٦٨ مدمرة، و١٠ بوارج، و٤ حاملات للطائرات، و٣ طرادات مقاتلة، و٤٤ طرادة خفيفة، و٨ طرادات ثقيلة، وبعد كل هذا ستستطيع قواتهم البحرية سحق القوات البحرية البريطانية.

وأما اجتماعه مع قواته الجوية، فقد أصدر «هتلر» فيه أوامره للقوات بالبدء في بناء قوة استراتيجية جبارة، مكونة من قاذفات القنابل، والتي تتمكن من الوصول إلى أعماق لندن، كما طلب منهم التنسيق والتدريب مع قوات الأسطول البحري على سلاح هجومي مشترك؛ اعتقادًا منه أن من أجل إخضاع بريطانيا يجب ضرب موانيها وسفنها من أجل قطع الإمدادات عنها، فلو تم حصارها بحريًّا ستستسلم فورًا، فالمواطن البريطاني المدلل لن يستطيع البقاء ولو ليلةٍ واحدة نازحًا في إحدى الجزر الإنجليزية، هاربًا من القصف وخاضعًا للحصار والمجاعة.

وجاء الاجتماع الذي تلا ذلك مع الصحافة في ظهيرة اليوم الحالي، ليخاطب فيه «هتلر» الرأي العام، مُعلنًا أنه لم يحلم يومًا بعقد اتفاقية سلامٍ مع مثل هؤلاء، هو فقط كان يراودهم لحين الانتهاء من مسألة إعادة التسلّح، ولولا ضرورة الغاية ما استخدم هذه الوسيلة، وأعلن بشكلٍ رسمي أنه لا مجال للحديث حول مسألة السلام، وأن دعايته الداخلية للسلام التي انطلقت منذ

خمس سنوات يجب نسيانها، ويجب على الشعب الألماني الآن استيعاب فكرة القدوم على الحرب، ثم خاطب «هتلر» الصحفيين أنفسهم بشكلٍ شخصي غير رسمي، وأخبرهم بأنه يجب وجود نوع جديد من الصحافة، تنقل للشعب وقائع معينة من السياسة الخارجية، ومع بعض الإحكام والإقناع يترتب على ذلك أن يتولد في الشعب نفسه حمية على وطنه، تدعوه للهتاف بضرورة استخدام الحرب والقوة مع الخصوم دون السلام، لينتج عن ذلك مطالبة الشعب بأخذ خطوة الحرب قبل الحكومة.

وجاء اجتماع «هتلر» مع مستشاريه الواقع الآن في هذه الساعة، ليوضح فيه عن أسفه الشديد على أخذه بنصائحهم دائمًا، ليبرر بأنهم هم من أهم الأسباب التي أخرته عن تنفيذ سياسته التوسعية، وألقى باللوم بشكلٍ مباشر على الدكتور «هيلمار شاخت»، والجنرال «لودفيج بيك»، والخبير الاقتصادي «كارل فريدريش»، والدبلوماسي «أولريش فون» ورجل الاقتصاد «ردولف برينكمان»، حيث سخر منهم قائلًا إنهم يمثلون «دوائر التفكير الحريص أكثر من اللازم»، فكانوا دائمًا ناصحين له ومطالبين إياه بتوخي الحذر، لدرجة أنهم نزعوا من داخله الكثير من الثقة، وبصراحة، لولا حاجة «هتلر» لخبراتهم ومهاراتهم، لكان من المعتقد أنه قد تخلص منهم.. انتهى الاجتماع خلال هذه الساعة، الذي أسفر عن معاداة «هتلر» لبريطانيا وعزمه محاربتها، بالإضافة لعدم سماع أي رأي من مستشاريه سوى ما يحلو له، مما سيؤثر في الأحداث القادمة التي سيمضي فيها «هتلر» بقراراته الخاصة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٧)
ساعة الغزو

الساعة الآن الثالثة من مساء يوم ١٦ مارس ١٩٣٩، في مشهدٍ مماثل لما حدث في فيينا النمساوية يقف الزعيم النازي على دَرجٍ قلعة براغ بالعاصمة التشيكية، يتلقى تحية جنوده المنتصرين بعد نجاحهم في غزو تشيكوسلوفاكيا أخيرًا، وقف «هتلر» رافعًا رأسه ويده ملوحًا بالنصر المبين، يبدو أن الزعيم كان على حق، فقد أصبحت ألمانيا قوةً لا يجوز تجاهلها، وقف الرجل ينظر لجموع جنوده وقواته وكأنه يقول لهم: ها أنا «هتلر» وهذه تخطيطاتي.. كان نصرًا قد خطط له «هتلر» رغم أنف الجميع، منذ أن بدأ في مناوشة جميع القوى العظمى.

في الماضي كان «هتلر» قد خطط ودبر لغزو تشيكوسلوفاكيا، ونسف معاهدة ميونيخ للسلام، وبرغم ذلك لم يغضّ الطرف ولو لساعة واحدة عن الداخل الألماني، فقد قابلته تحديات كبيرة في الشأن المحلي، بل لم يتوقف ليوم واحد عن إصدار قراراته المصيرية الجديدة، وبينما هو جالسٌ في مكتب المستشارية في ذات يومٍ من أيام ديسمبر ١٩٣٨ حدث شيء غريب، استأذنه رئيس مكتبه «فيليب بوهلَر» بالدخول لكي يعرض عليه البريد اليومي، ثم قام بلفت نظر الفوهرر إلى خطاب يتعلق بطفلة ألمانية صغيرة تُدعى «صوفيا كناور» والمقيمة في «لايبزيغ»، حيث التمست أسرتها دعم الزعيم ومساعدته من أجل شفائها؛ لأنها مصابة بعجز بدني وذهني بشكلٍ كلي، قرأ «هتلر» الخطاب بتمعُّن من أجل التعرف على التشخيص الخاص بالحالة، ووعد «بوهلر» مدير مكتبه بالبحث في الأمر، وحينها استدعى «هتلر» طبيبه الشخصي الدكتور «كارل براندت»، ووجَّه إليه أمرًا عاجلًا بإنقاذ الطفلة في الحال، لم يكن هذا الأمر معناه طلب «هتلر» من الدكتور «كارل» بالسعي حول شفائها، على الإطلاق، لكن الإنقاذ من وجه نظر «هتلر» هو القتل الفوري للطفلة.. بالفعل قتلها الدكتور «براندت»، وبعد أيامٍ قليلة أصدر «هتلر» أمرًا لكلٍّ من الدكتور «براندت» ومدير مكتبه «بوهلر»، بإجراء حملة مكثفة وضخمة من أجل قتل جميع المعاقين على أرض ألمانيا، وأطلق على ذلك القرار لقب برنامج «القتل الرحيم».. نفَّذ الرجلان أمر «هتلر» بحذافيره دون توقف، وبدآ في البحث والتشخيص والتنفيذ دون الرجوع إليه من أجل كسب رضائه، وأعدَّا خطة موسعة لبرنامج «القتل الرحيم»، بدأت بالتخلص من المعاقين حديثي الولادة والأطفال، تمهيدًا لتنفيذ المرحلة الثانية، وهي قتل جميع المعاقين البالغين.

استمرَّ «هتلر» في متابعة الأوضاع الداخلية بعد بدء برنامج «القتل الرحيم»، ليصطدم بأزمة اقتصادية جديدة مع بداية هذا العام ١٩٣٩، والتي نتجت عن نقص العملة الصعبة التي تحتاجها البلاد؛ من أجل شراء المواد الخام بعد إلغاء الاتفاقيات الاقتصادية مع الصين، ليتوقف مشروع إعادة التسلح مرة أخرى كالعادة.. هذا ما أوضحته التقارير الجديدة التي أُعدَّت مع بداية العام الجديد، والتي أفادت بأن تنفيذ الجدول الزمني المقرر لخطة السنوات الأربعة أصبح شبه مستحيل، ليضطر «هتلر» حينها لإصدار حزمة قرارات جديدة كتخفيض حصص المواد التي تلزم قوة الدفاع، فمادة الصُّلب مثلًا تم تخفيضها بنسبة ٣٠٪، ومادة الألومنيوم تم تخفيضها بنسبة ٤٧٪، ومادة الأسمنت بنسبة ٢٥٪، وكذلك المطاط بنسبة ١٤٪، والنحاس بنسبة ٢٠٪.، ومع تداعيات تلك الأزمة التي حلَّت ببداية العام الجديد، خرج «هتلر» على الشعب ليلقي فيهم خطبة تاريخية، حملت عدة أسماء منها «خطبة النبوءة» و«التصدير أو الموت»، كانت مقدمتها عبارة عن الحثِّ على الإنتاج والعمل، والمساعدة في بناء اقتصاد قوي للرايخ، وأخبرهم بأن الحل الشامل لتلك الأزمة هو التصدير؛ لأنه هو القناة الوحيدة التي ستجلب لهم العملة الصعبة التي تحتاجها البلاد، وبالتالي ستتوفر كل المواد الخام التي يحتاجها التجهيز العسكري لحماية بلادهم وتوسيع نفوذهم، وهتف فيهم قائلًا: يجب خوض معركة التصدير، ثم في نهاية خطابه أخبرهم بأنه سيكشف عن بعض تنبؤاته، وحينها قال حرفيًّا:

«هناك شيء واحد أود أن أقوله في هذا اليوم، وأود أن يبقى محفورًا في ذاكرة الآخرين، وفي ذاكرتنا نحن الألمان.. على مدى مشوار حياتي، أتاحت لي الظروف في أحيان كثيرة أن أتنبَّأ ببعض الأمور التي سخر مني الآخرون عندما صرحت بها، وأثناء كفاحي للوصول إلى السلطة كان اليهود هم أول من قابل نبوءاتي بقدرٍ من السخرية، خاصة عندما صرحت بأنني سأتولى زعامة الدولة في يوم من الأيام، بل وزعامة الأمة بأسرها، وإنني سأتمكن حينها من تسوية مشكلة اليهود وأقوم بالكثير من الأمور الأخرى، كانت ضحكاتهم صاخبة، ولكنني أظن إنهم يسخرون منذ فترة طويلة من الوقت على ما لا ينبغي السخرية منه.. اسمحوا لي اليوم بأن أخبركم مرة أخرى بواحدة من نبوءاتي، إذا نجحت القوى المالية اليهودية خارج أوروبا في إقحام الأمم مرة أخرى في حربٍ عالمية جديدة، فإن النتيجة لن تكون سيادة البلشفية في كل أرجاء الأرض، وبالتالي تحقيق اليهود للنصر، لا بل العكس، ستكون هلاك العرق اليهودي في أوروبا».

نشب حول هذا الخطاب اختلافات تفسيرية عديدة، فهل بالفعل «هتلر» يعني ما يقوله الآن حرفيًّا؟ هل هذا الخطاب اعتُبِر إشارة بدءٍ لتنفيذ العمليات التي توعد بها سابقًا لإبادة اليهود، أم إنه سيتم بالفعل لكن بمجرد إعلان أي حربٍ قادمة؟ على كل حال «أدولف» في هذه الفترة كان نشطًا في كل الاتجاهات،

سواء داخلية أم خارجية، فما زالت قصة غزو تشيكوسلوفاكيا برأسه لا تغيب، نادم وآسف على توقيعه معاهدة ميونيخ التي قامت بتحجيمه، برغم ذلك كانت درسًا مهمًّا استفاد منه «هتلر» كثيرًا، وأهم ما فيها من إيجابيات أنها أثبتت نفوذ «هتلر» خارجيًّا وقلق الجميع حيال دهائه، وبسببها استطاع «هتلر» كشف كل الوجوه.. فكر «هتلر» مرارًا وتكرارًا في مشكلته الاقتصادية راغبًا بشكلٍ كبير في المضي قدمًا نحو ضمِّ تشيكوسلوفاكيا، خصوصًا بعد إعلانه عدم احترام أي مفاوضات دخلت فيها بريطانيا المنافقة على حد تعبيره.. جلس يحاور نفسه عما يمنعه من دخول تشيكوسلوفاكيا الآن، بعد ما بات واضحًا تخلي بريطانيا وفرنسا عنها أصلًا، إذًا ما المانع من دخولها للحصول على مصادر جديدة للثروة والقوة التي ربما تساعد في حل مشكلة الاقتصاد؟ أهي معاهدة ميونيخ؟ قام «هتلر» من مقامه قائلًا لنفسه: فلتذهب المعاهدة إلى الجحيم.

أعطى «هتلر» أوامره للقوات بالاستيلاء على النصف التشيكي من تشيكوسلوفاكيا في مارس من عام ١٩٣٩، وهو النصف الأقوى والأغنى والأهم من الجمهورية التشيكوسلوفاكية الأولى، التي كانت قد تشكّلت مباشرةً بعد الحرب العالمية الأولى، والتي كانت من الدول الناتجة عن سقوط إمبراطورية النمسا والمجر، لم تهدأ هذه الجمهورية الوليدة؛ بسبب المضايقات التي شهدتها خلال الثلاثينيات من قِبل «هتلر» والنازيين، والتي بدأت بمطالبته بإقليم السوديت ذي الأغلبية الألمانية، لتتنازل عنه بالفعل، وتقوم ألمانيا بضمِّه بحسب معاهدة ميونيخ في ٣٠ سبتمبر ١٩٣٨، فهم لم يعلموا الآن أن رغبة «هتلر» في غزوهم ما زالت على المحك، فهم الآن مشغولون بمحاولة استقلال سلوفاكيا عنهم، وهي في الحقيقة كانت الفرصة الذهبية التي استغلها «هتلر»؛ بسبب تركيزهم بهذا الشأن، فـ«هتلر» الداهية لم يقبل بضم قواته النازية للمناطق الحدودية الشمالية والغربية «السوديت» وحسب، فهذا لم يكن مبتغاه بعد كل هذا التخطيط الطويل، والذي بدأ بالترتيب مع حزب الجبهة الداخلية هناك بقيادة «هنلاين»، وذريعة الادّعاءات المزعومة بالحرمان والتهميش من ساكني هذه المناطق من الأقليات العرقية الألمانية، ومن ثم دفع الغاضبين والحانقين إلى رفض كل قانون وكل محاولة للتفاوض، بحجة أن التفاوض هو خدعة من الحكومة التي أقنعتهم الشائعات الزاحفة من مكتب المخابرات النازي بأنها خائنة وعميلة، وكذا وكذا.. لم يتخلَّ «هتلر» عن فكرة غزو تشيكوسلوفاكيا، فبرغم ضمِّه للنمسا بشكلٍ سلمي في العملية التي سميت بـ «الأنشلوش» ليس عنده أي مانع الآن للغزو بشكلٍ غير سلمي، فالانقضاض على النمسا لم يرهقه إطلاقًا، حيث كانت النمسا شبه راغبة في الانضمام ولم، تكن بعناد تشيكوسلوفاكيا على الإطلاق، فغزو النمسا كان مجرد عملية عسكرية سلمية كُلفت بها القوات لضمِّ جمهورية

النمسا إلى ألمانيا الكبرى في ١٢ مارس من العام الماضي.. الآن تشيكوسلوفاكيا العنيدة أصبحت ضعيفة بعد تجاهل بريطانيا وفرنسا لطلباتها، وبعد انفصال مناطقها الحساسة في السوديت، وبعد انفصال النصف السلوفاكي العميل عن النصف التشيكي، الآن أصبحت غير قادرة على مواجهة أي خطر داهم.

منذ أيام كان قد انشغل الجميع بإعلان المجلس التشريعي السلوفاكي عن الاستقلال والانفصال، استغل النازيون الفرصة ليُفاجئوا الجميع بزحف قواتهم ناحية العاصمة التشيكية «براغ»، بعدما تمكَّن الجيش النازي من السيطرة على العاصمة بعد القضاء على التحصينات العديدة المنتشرة على الحدود بين تشيكوسلوفاكيا وجيرانها (ألمانيا النازية ومملكة المجر)، والتعامل مع قوات المقاومة فيها وسحقها في صمتٍ تام من المجتمع الدولي، خصوصًا بريطانيا وفرنسا، حيث توقع «هتلر» احتجاجهما، والآن قد دخل «هتلر» بنفسه للعاصمة براغ في هذا اليوم ١٩ مارس ١٩٣٩، في مشهدٍ تاريخي لن يُنسى، لتكون ساعة الغزو هذه من أكثر الساعات أهمية، من ناحية تحقيق أهداف «هتلر» الوصولي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٨)
ساعة الاستدراج

اليوم هو ٣١ أغسطس ١٩٣٩، «هتلر» يجتمع الآن مع مستشاريه في مكتبه بالمستشارية في الصباح، للتناقش حول التقارير التي جاءت أول أمس من الحكومة البولندية، كردٍّ على المقترح الذي نادت به بريطانيا لحقن الدماء وحل المشكلة التي تلت مشكلة غزو التشيك، حيث شرع الفوهرر في أن تكون بولندا هي الضحية الجديدة لغزوه، وجاءت هذه التقارير برفض مقترحات «هتلر» بتحدٍّ تام من الجانب البولندي، ويبدو أن غزو «هتلر» لبولندا أصبح وشيكًا.

كان «هتلر» قد خطط لغزو بولندا بعدما غزا النمسا والتشيك، فحينها قد علا نجمه وزادت الحماسة بداخله، وشعر أن الأوضاع تتحرك كما يريد هو، فلا مجال في رأسه لمحاولات سلام أو غير ذلك، فقد رأى أنه لا بديل عن تنفيذ النفوذ التوسعي لألمانيا الكبرى.. لم تتوقف أحلامه تجاه التوسع الشرقي عند هذا الحد، بل جلس يخطط فيما هو قادم، وفي هذه الأثناء شهد الحزب النازي سلسلة من الاجتماعات السرية، لتنفيذ مخططٍ جديد تجتاحه السرية التامة، ليبدأ الفوهرر ورجاله في وضع مخطط جنرال «بلان أوست»، وهو عبارة عن خطة نازية سرية وخطيرة، بمثابة دستور يضع مجموعة من القواعد والأسس للمضي قدمًا نحو استعمار شرق أوروبا بأسره، وكانت الخطة تحتوي على حتمية تنفيذ أعمال الإبادة الجماعية والتطهير العرقي على نطاق واسع، في الأراضي التي استولت أو ستستولي عليها ألمانيا في منطقة أوروبا الشرقية بداية من هذا العام ١٩٣٩وحتى الأعوام القادمة، ومنطقة أوروبا الشرقية كانت مكونة من بلاد كان معظمها يخضع لسيادة الإتحاد السوفياتي ويوغسلافيا، وبالنسبة لحدودنا الحالية أوروبا الشرقية كانت هي: (بولندا - التشيك - سلوفاكيا - المجر - كرواتيا - سلوفينيا - البوسنة والهرسك - الجبل الأسود - ألبانيا - اليونان - أرمينيا - أذربيجان - روسيا البيضاء - بلغاريا - جورجيا - مقدونيا - مولدوفا - رومانيا - صربيا - أوكرانيا - البلقان - تركيا)، كل هذه القائمة كانت في خطة التطهير العرقي التي وضعها النازيون، وتمثلت الخطة في التركيز على إبادة الغالبية العظمى من الشعوب السلافية في أوروبا، والتي تبنَّت روسيا قيادتهم، والسلاف باختصار كانوا ولا يزالون أكبر مجموعة عرقية لغوية في أوروبا، وهم مقسمون في ثلاثة أنحاء: السلاف الشرقيون (الغالبية من البيلاروسيين - الروس - الروسينين - الأوكرانيين) والسلاف الغربيون (الغالبية من التشيك - الكاشوبيون - المورافيون - البولنديون - السيلانيون - السلوفاك - الصوربيون)، والسلاف الجنوبيون (الغالبية من

البوشناق - البلغار - الكروات - المقدونيون - الغوراني - المونتينيغريون - الصرب - السلوفينيون).

وضع النازيون هذه الخطة بداية من هذا العام ١٩٣٩، وتم اعتبارها بمثابة عقيدة ألمانية من أجل المسير نحو الشرق.. أسفرت هذه الخطة عن رغبة الألمان الملحة في شن حربٍ عالمية شاملة، معتمدة على التطهير العرقي ونصرة عرقهم الآري دون أي عرقٍ آخر.. وفي الحقيقة لم يكن الجانب النازي هو المتجه نحو حربٍ شاملة فقط، بل العالم أجمع أصبح حاله مريبًا، الكل يمضي نحو الدمار إلا من رحم ربي، فخلال الأربع سنوات الماضية فقط كان الكل يسارع من أجل الدمار والخراب، وتوحي لك هذه السنوات الأربعة منذ ١٩٣٥ حتى العام الحالي ١٩٣٩، بأن الحرب العالمية الشاملة قد بدأت بالفعل، وذلك نتيجة لمجموعة أحداث دموية قد جعلت الكون محتقنًا ومختنقًا، غاضبًا من ساكنيه.. فقد بدأ الدمار منذ أن قامت إيطاليا بغزوها السافر على إثيوبيا، في الفترة ما بين أكتوبر ١٩٣٥ ومايو ١٩٣٦، بغرض ضمِّ إثيوبيا المهمة إلى المستعمرات الإيطالية في الشرق الإفريقي، حدث هذا ومجلس عصبة الأمم الذي تم تأسيسه أصلًا بغرض الحد من الحروب الدولية غارق في سُبات عميق، فعصبة الأمم لم تتخذ أي قرارٍ تجاه هذا الاعتداء المخالف برغم أن إيطاليا وإثيوبيا كانتا عضوين فيه.

وعندما جاء عام ١٩٣٦ حل على العالم خرابٌ جديد، بعد نشوب الحرب الأهلية الإسبانية، والتي شهدت العديد من المواقف الهزلية، بعدما قامت كل من ألمانيا وإيطاليا بتحدي عصبة الأمم والمجتمع الدولي، حينما قدمتا الدعم للجنرال «فرانسيسكو فرانكو» المتمرد والمنقلب على الشرعية هناك، مما أبرز إسبانيا كمسرح كبير للفتن والصراعات، بعد تدخل الاتحاد السوفياتي هو الآخر لمساندة الحكومة القائمة وقتها لمجرد أنها ذات اتجاه يساري، لتُصبح إسبانيا حقلًا لتجارب الطرفين المتضادين، واختبار أسلحتهما الجديدة وخططهما الحربية الحديثة على أرضها، وعلى رأسهم «هتلر» نفسه الذي كان قد أمر قواته هناك المسماة بـ «فيلق الكندور» بقصف قرية «غرنيكا» الواقعة في إقليم الباسك يوم ٢٦ إبريل ١٩٣٧، وكان قصفًا جويًّا مدمرًا نسف القرية دكًّا، بناء على طلب من الجبهة القومية الإسبانية، وهي العملية التي أطلق عليها اسم «عملية روغن».. كانت العمليات التي تتم بالداخل الإسباني مؤشر خطير، يوضح أن الإنسان الحالي لا يرى أي مشكلة في استباحة قتل أي مدنيين داخل بيوتهم، ليعلن هذا عن أن الحروب القادمة ستتسم بالطابع الإرهابي ضد المدنيين.. بالطبع انتصر الألمان هناك، وأصبح «فرانكو» دكتاتورًا جديدًا في إسبانيا، بعد نجاح مساعي «هتلر».

ثم بعد ذلك أتى الغزو الياباني للصين في يوليو من عام ١٩٣٧، بعدما استغلّت اليابان حادثة «جسر ماركو بولو» لغزو الصين، وقصتها أن بعض الجنود اليابانيون كانوا يتدربون قرب جسر ماركو الواقع على بعد ١٦ كم من بكين، وعلى حد زعم اليابانيين أن هؤلاء الجنود قد اختفوا، فاتَّهم اليابانيون الصينيين بخطف جنودهم، وبعد إنكار الصينيين هذا الفعل، طلب اليابانيون تفتيش المنازل القريبة، شعر الصينيون بالإهانة، وأعلنوا رفضهم لهذا الطلب؛ لتتسبب هذه الحادثة في الحرب اليابانية الصينية الثانية، ومع بداية الغزو عرض الاتحاد السوفياتي المساعدة على الصين، وقام بتوقيع «ميثاق عدم الاعتداء» كمبرر لتقديمه الدعم العسكري لها، هذا الميثاق كان بديلًا مهمًّا لتخلي «هتلر» والنازيين عن دعم الصين بعدما تركوها وأبرموا تحالفًا بديلًا مع اليابان، وبرغم الدفاع المستميت سقطت المدينة خلال ثلاثة أشهر فقط، واستطاعت القوات اليابانية غزو العاصمة «نانجينغ»، وقامت فيها بمذبحة شنيعة سُمِّيت بـ«مذبحة نانجينغ».. استمر الوضع تحت قبضة اليابانيين لشهور عديدة، قاموا فيها بانتهاكات واضحة ضد حقوق الإنسان على مرأى ومسمع المجتمع الدولي وعصبة الأمم، وبرغم هذا التقدم لم تتوقف المقاومة الصينية، وفي يونيو ١٩٣٨ استطاعت القوات الصينية إيقاف تقدُّم الغزاة، بفضل صدِّهم للمعتدي، وبفضل فيضان النهر الأصفر الذي عطل احتلال مدينة «ووهان» لمدة أربعة أشهر، ولم تعلن الصين الاستسلام على الإطلاق، وقامت بنقل عاصمتها من «نانجينغ» المحتلة إلى «تشونغ تشينغ»، واستمرت حالات الكرِّ والفرِّ قائمة.

ثم بعد ذلك وفي نفس العام ١٩٣٨، قامت اليابان أيضًا بغزو الإتحاد السوفياتي نفسه، ومنغوليا، كان هذا نتاجًا لسلسلة من النزاعات الحدودية المسلحة، والتي وقعت بينهما خلال الفترة ما بين عامي ١٩٣٢ و١٩٣٩، والتي بدأت بعدما احتلّت اليابان «مانشوكو» الصينية التابعة لمنشوريا الواقعة على الحدود مع الاتحاد السوفياتي، لتعقد العزم على اختراق الأراضي السوفياتية، فدارت العديد من الاشتباكات العسكرية على المنطقة الحدودية بمنشوريا لعدة سنوات.. وعندما جاء يوم ٢٩ يوليو من عام ١٩٣٨، تمكنت اليابان من اختراق المنطقة الحدودية في محاولة صريحة لغزو الاتحاد السوفياتي.. انتصر السوفيات في أولى المعارك التي وقعت، حاولت اليابان الردَّ على الهزيمة في ١١ مايو ١٩٣٩ حيث اشتبكت للمرة الثانية مع السوفيات في معركة «خالخين غول»، ولكن انتصر فيها الجيش السوفياتي مجددًا بشكلٍ ساحق، لتتولد قناعة عند اليابانيين بأن الدب الروسي لا يمكن أن يُستهان بهِ، بل من الواجب إبرام اتفاقية صلح معه؛ من أجل ألا يتدخل لنصرة الصين في الحرب الواقعة معهم مرة أخرى، مما تطلب من اليابانيين توقيع اتفاقية للهدنة بين

البلدين، وفي هذه المعارك علا نجم القائد العسكري السوفياتي «غيورغي جوكوف» والذي سيلعب دورًا مهمًّا في الأحداث المستقبلية.

بهذا الشكل كان عند جميع القوى رغبة تامة لخوض حربٍ من أجل فرض النفوذ وكسب مستعمرات جديدة، فعلى سبيل المثال الآن أصبحت ألمانيا وإيطاليا أكثر نفوذًا وجرأةً، بعد ضمِّ إثيوبيا من قبل «موسوليني» الحليف، وبعد ضمِّ التشيك والنمسا وفرض التبعية على سلوفاكيا من قبل الألمان.. لم تتوقف مطامع الفوهرر، ليقرر استكمال خطة المسير نحو الشرق بكل تحدٍّ، وبالترتيب مع صديقه وحليفه «موسوليني» قررت إيطاليا غزو ألبانيا.. بالفعل غزت إيطاليا ألبانيا في ٧ إبريل ١٩٣٩، وسيطرت على البلاد، ونصب «موسوليني» نفسه ملكًا عليها، بالرغم من وجود بعض قوى المقاومة هناك، وخصوصًا في «دوريس»، اعتبر «موسوليني» وحزبه الفاشي أن ألبانيا جزء تاريخي من الإمبراطورية الرومانية القديمة صاحبة التاريخ العريق، وأخضع «موسوليني» السكان الألبان لسياسته القيصرية، وعيَّن على ولاياتها حكامًا مستبدين، كما شجع الطليان على السفر إليها واستعمارها.

الآن توسعت جبهة الحلف المحوري بعد ضم ألبانيا، ليبدأ بالنظر ناحية بولندا، فنفس «هتلر» تحمل لبولندا ضغينة خاصة.. في بادئ الأمر استهلَّ «هتلر» مناوشاته حينما طلب من بولندا تسليم مدينة «دانزيغ» التابعة لها، رغم أنه يعي تمامًا أن هذا سيجلب له المتاعب؛ بسبب أن بولندا قد أقامت تحالفًا عسكريًّا مع بريطانيا مدعومًا من فرنسا، وعندما غزت إيطاليا ألبانيا كانت فرنسا وبريطانيا قد ضيقتا عليه الخناق بعقدهما تحالفًا عسكريًّا مماثل مع اليونان ورومانيا؛ لضمان استقلالهما، ولحمايتهما من هجمات «هتلر» التي باتت متوقعة؛ من أجل صد عملية التوسع التي بدأ بها.. بعد وقت لاحق خرج «هتلر» بمجموعة اتهامات وتجريحات لفرنسا وبريطانيا، متهمًا إياهما بمحاولة تطويق ألمانيا، وجعل من هذا الأمر حجة لإلغاء معاهدة «عدم الاعتداء»، والتي كان قد وقَّعها بين البحرية الألمانية والبولندية؛ لضمان حفظ السلام بينهما، بل وساقته شجاعته لإلغاء المعاهدة المشتركة التي وُقِّعت بين البحرية الألمانية والبريطانية من قبل، وكذلك معاهدة الصداقة.. وفي تهديدٍ واضح للبولنديين، عهد إليهم بميثاقٍ جديد يضمن عدم الاعتداء عليهم بشرط إرغامهم على الموافقة على اتفاقية ترسيم حدود جديدة، على رأسها ضم مدينة دانزيغ لألمانيا، ولكن قوبل عرضه بالرفض، حيث اعتبر البولنديون وجود مدينة دانزيغ في حدودهم ضرورة أمنية لا غنى عنها.

أصبح غزو بولندا مطلبًا «هتلريًا» لا غنى عنه، ولكن آن الأوان أن يسعى جاهدًا لعدم الاشتباك مع الاتحاد السوفياتي الذي بدا وكأنه في حالة تأهب؛ خوفًا من

دخول «هتلر» لحدود نفوذه، شعر «هتلر» بأنه يجب عليه التحالف مع عدوه التاريخي الاتحاد السوفياتي ولو بشكلٍ مؤقت، لم يكن هذا تناقضًا جديدًا في شخصية الفوهرر، لكنه كان على استعدادٍ تام لتنحية كراهيته للشيوعية جانبًا؛ من أجل تحقيق مكاسب استراتيجية توسعية، ومن أجل تنفيذ حلمه المنشود، بعد القليل من التمهيدات بالفعل وقَّع الطرفان على ميثاق «عدم الاعتداء السوفياتي- الألماني النازي» في شهر أغسطس ١٩٣٩، والذي سُمِّي «حلف مولوتوف ريبنتروب».. كان هذا الاتفاق بمثابة انتصار استراتيجي محدود لـ«هتلر» النازي، حيث أُلحِق بالاتفاق توسيع مناطق النفوذ لكلا الطرفين دون تعدِّي أحدهما على نفوذ الآخر، ونصَّ الاتفاق على أن حدود نفوذ ألمانيا مكون من غرب بولندا وليتوانيا، أما حدود نفوذ الاتحاد السوفياتي مكون من شرق بولندا وفنلندا وإستونيا ولاتفيا وبيسارابيا، ورغم عدم التساوي في القسمة، إلا أن «هتلر» رأى أن في ذلك ضمانًا مؤقتًا لتعطيل أي اعتداء من قبل السوفيات، كما قدَّم هذا الاتفاق ضمانًا مهمًّا كان يبتغيه «هتلر»، وهو التكاتف ضد استقلال بولندا المكفولة من قبل فرنسا وبريطانيا بموجب الاتفاقيات الموقعة، كما قدَّم له أيضًا الضوء الأخضر لاحتلال بولندا، وضمان عدم تدخل الاتحاد السوفياتي لصد الغزو.

بعد التوقيع على هذا الميثاق زادت جرأة «هتلر» المتغطرس، وبعد أيام قليلة أمر قواته بالحشد ومحاصرة الحدود البولندية، وتبنى «موسوليني» فكرة الغزو بكل قناعة، وشارك في الحرب النفسية التي سبقت الحشد، حيث قال وزير خارجيته «غالياتسو تشانو» في لقاءٍ خاص: «إننا مقتنعون بفكرة «هتلر» التي طرحها عليهم، والتي أثبتت عدم حياد بولندا، ولذلك يجب إعلانها الاستسلام، وإلا ستتعرض للتصفية التامة، فلن يقبل «هتلر» بوقوفها في وجه ألمانيا مستقبلًا، في حالة إن نشبت حرب بينه وبين الديمقراطيين الغربيين (بريطانيا وفرنسا)، لذا فيجب عليها إلغاء اتفاقاتها معهما والاستسلام»، وعندما سُئل عن تدخل بريطانيا وفرنسا لنصرتها، قال إنه لا يتوقع ذلك.. بالفعل ما قاله الوزير الإيطالي هو ما كان في نفس «هتلر»، وكأنها رسالة قد أمره بتوصيلها؛ فـ«هتلر» حقًّا كان يعتقد في عدم تدخل الحلفاء لنصرة بولندا.. وفي ليلة ٢٣ أغسطس اجتمع «هتلر» مع مستشاريه من أجل إعطائهم الأمر بتحرُّك القوات للداخل البولندي بعد ليلتين، أي في يوم ٢٦ أغسطس، ولكنه في اليوم التالي سمع ردَّ بريطانيا على تصريح وزير الخارجية الإيطالي، والتي أكدت فيه شروعها في تنفيذ اتفاقية المساعدة المتبادلة مع بولندا، وأنها ستحارب بجوارها فور بدء أي اعتداء عسكري سيُفرض عليها، وعندما تحاور «هتلر» مع «موسوليني» أخبره الثاني بأنه غير مستعد للحرب الآن، وأنه سيقف على الحياد بشكلٍ مؤقت، فأخبر «هتلر» قواته بتجميد الخطة وتأجيل تنفيذ الهجوم.

نادت بريطانيا بالتفاوض المباشر حول الأزمة البولندية، واختيار خيار السلام دون الحرب في يوم ٢٩ أغسطس، فاستجاب «هتلر» لاقتراحها، وصرح بأنه لا مانع من ذلك، واستعمل أسلوبه التعقيدي المعتاد، حيث طالب الجانب البولندي بإرسال مفوض من الحكومة؛ للنقاش حول تسليم مدينة دانزيغ والممر البولندي لألمانيا، رغم اعتراض بولندا على ذلك من قبل، بالإضافة إلى أنه أمرهم بالموافقة على حماية الأقلية الألمانية هناك.. كما هو متوقع تم رفض هذه الطلبات من قبل البولنديين رفضًا تامًّا، وأول أمس قد جاء لـ«هتلر» الرد، أما الآن فهو جالس مع مستشاريه من أجل الإعلان عن الرفض البولندي وغضب ألمانيا من عرقلة الحكومة البولندية لعملية السلام، وفي الحقيقة «هتلر» ومستشاروه كانوا سعداء من هذا الرفض، الذي سيعطيهم المبرر لإعلان الحرب على بولندا.

قرر «هتلر» في هذه الساعة خروج إعلان رسمي إلى المجتمع الدولي يُندد برفض بولندا لمطالبه، لتكون هي ساعة الاستدراج للحرب، التي ستكون هي البداية الرسمية للحرب العالمية الثانية، حيث قرر «هتلر» غزو بولندا فعليًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٩)
ساعة المقامرة

مرَّت الأيام حتى جاء شهر ديسمبر ١٩٤٠ وتحديدًا في اليوم الثالث عشر، لقد غزا «هتلر» بولندا بالفعل منذ ١ سبتمبر.. وكانت تجربة غزو بولندا مقامرةً منه، تراهن فيها مع نفسه على أن الحلفاء الديمقراطيين لن يتدخلوا لنصرتها، ولن يتحركوا مثلما حدث بعد غزو النمسا والنصف التشيكي وألبانيا، وحتى هذه الساعة فلح رهان «هتلر»، كان «هتلر» قد تمكَّن من غزو بولندا بعدما تظاهر بالغضب الشديد فور رفض الحكومة البولندية مطالبه الظاهرية، والتي كانت في مضمونها الباطني تعقيدية، وما هي إلا ذريعة لتبرير غزوها.. كان الديمقراطيون الغربيون قد علموا قبل الغزو بتوقيع حكومة ألمانيا مع حكومة الاتحاد السوفياتي اتفاقية «عدم الاعتداء»، مما أثار دهشتهم؛ بسبب توقعهم عجز الألمان عن قيام أي تحالفات مع الروس مهما حدث، ولم يكونوا يعلمون ما احتوته هذه الاتفاقية من بنودٍ سرية، أهمها البند الخاص بتقسيم بولندا بين الدولتين في حال احتلالها.

كان قد أعطى «هتلر» أوامره للجيش النازي بالاستعداد لشنِّ حملة على بولندا، وكان قوام الجيش الألماني وقتها ٦٣ فرقة عسكرية، منها ٦ «فرق بانزر»، والبانزر كانت عبارة عن فرق مدرعة تضم واحدت عسكرية مشتركة، تعتمد على قوات من المشاة والدروع كركائز، مضاف إليهم وحدات دعم من مدفعية الميدان، والمدفعية المضادة للدروع، والمدفعية المضادة للطائرات، ووحدات الإشارة، والهندسة العسكرية والوحدات الإدارية، وكأنها جيش مكتمل مستقل بذاته.. وقد تشكلت كل هذه الفرق وانقسمت إلى جبهتين، جيش الشمال بقيادة «فيدور فون بوك» المكون من (الجيش الثالث - الجيش الرابع - أسطول جوي بقيادة «ألبرت كسلرنغ»).. أما الجبهة الأخرى وهي جيش الجنوب بقيادة «غيرد فون رونتشتيت» المكون من (الجيش العاشر - الجيش الرابع عشر - أسطول جوي بقيادة «ألكسندر لوهر»).. كان في حوزة ألمانيا: ٢.٤٠٠ دبابة من طرازات بانزر-١ وبانزر-٢ وبانزر-٣ وبانزر-٤ وبانزر ٣٥ وبانزر ٣٨، والدبابة طراز بانزر كانت دبابة ألمانية الصنع تم تصنيعها في فترة إعادة التسليح خلال الثلاثينيات، وكانت تتسم بخفة الوزن وسرعة الحركة، أما سلاح الجو الألماني في هذه الفترة فكان يملك ١٩٢٩ طائرة، منهم ٨٩٧ طائرة قاذفة صواريخ.

تسللت القوات داخل الحدود البولندية الساعة ٤:٤٥ من فجر يوم ١ سبتمبر، وبدأ الهجوم الألماني العنيف، الذي بررره النازيون بأنه ليس هجومًا، بل ردٌّ على هجوم قيل إن بولندا قد قامت به على موقع ألماني في اليوم السابق

على حد زعمهم.. نتج عن الضربة الجوية الأولى تدمير جزء كبير من سلاح الجو البولندي، وبرغم ذلك لم يستسلم البولنديون للألمان رغم تفوقهم العسكري الهائل والفرق الواضح في التسليح، فالجانب البولندي لم يعلن حالة التعبئة العامة سوى قبل الغزو بساعات قليلة، لهذا السبب لم تكن بولندا مستعدة نوعًا ما للصد، ولم تتمكن من حشد القوات الاحتياطية، ليأتي اليوم الأول عليها وهي تدافع بـ١٧ فرقة مشاة فقط.. كان الجيش البولندي يمتلك نحو ٩٠٠ طائرة بينها ١٥٠ طائرة قاذفة للصواريخ، أما أسطولهم البحري فكان متواضعًا، مكونًا من عدة مدمرات وغواصات وعدة سفن إسناد صغيرة، وليس أكثر من ذلك، وللعلم كان مقدرًا أن تمتلك القوات المسلحة البولندية قرابة المليون جندي في ٣٩ فرقة و١٦ لواء في حالة تنفيذ التعبئة العامة.

دخل الألمان لبولندا بخطة عسكرية سهلة؛ وذلك لأن بولندا في ذلك الوقت كانت على شكل نتوء داخل الأراضي الألمانية، فالجغرافيا القائمة مكَّنت الألمان من الالتفاف حولها من الجانبين في خطوةٍ سهلةٍ جدًّا، وما جعل الأمر أكثر سهولة موافقة حكومة سلوفاكيا المنحازة للألمان بمرور قوات من أراضيها بغرض الالتفاف أكثر وتطويق بولندا.. استنجدت بولندا بفرنسا، فاقترحت الأخيرة على لسان رئيس الأركان الفرنسي، الانسحاب إلى مواقع أخرى داخل بولندا؛ للهروب للداخل من التطويق الحدودي، وتقلص المسافة المطلوب الدفاع عنها على الحدود من ٢٠٠٠ كم إلى نحو ٦٧٠ كم، لكن بولندا اعترضت جدًّا على هذه الخطة المقترحة، وأوضحت أنها لن تتراجع لتترك للألمان حق التصرف في تلك المناطق الحدودية الملاصقة لهم بعد التخلي عنها، حيث إنها تضمُّ أقاليم صناعية وزراعية مهمة، علاوة على أن بولندا لن تستطيع الاستمرار في الحرب طويلًا بدونها.. رغم استغاثات البولنديين للحلفاء إلا أنهم كانوا على قناعة تامة أن الإغاثة ستأتيهم متأخرة، وكان هذا المبدأ راسخًا في أذهانهم أثناء تسليحهم، حيث قال القائد البولندي «كوترزيبا» في أوائل عام ١٩٣٨، إنه يجب على الجيش البولندي التدريب المكثف للاعتماد على قوامه الذاتي عند نشوب أي حرب، لمدة لا تقل عن ستة أشهر حتى وإن استجاب الفرنسيون في وقتٍ أقل.. مع بداية الغزو في يوم ١ سبتمبر، دعا الدوتشي «موسوليني» لعقد مؤتمر حول إيجاد حل للأزمة، وحدد توقيته بأن يُعقد في يوم ٥ سبتمبر، جاء الرد في اليوم التالي ٢ سبتمبر من قبل الحلفاء بأنهم موافقون شريطة إيقاف الهجوم والتعمق في الحدود البولندية، والانسحاب التام من كل أراضيها، لم يُعطِ «هتلر» أي اهتمام لهذا الطلب، واستمر في استكمال حملته، ليفشل عرض «موسوليني» بخصوص التفاوض، وفي اليوم الذي يليه ٣ سبتمبر أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا.

كان «هتلر» مقتنعًا بأنه مجرد تهديد وحسب، فلم يُبدِ «هتلر» لهذا الإعلان أي اهتمام، رغم أنه تصريح رسمي بإعلان الحرب على بلاده إن لم يتوقف هذا الغزو، والانسحاب بشكل تامٍّ من الأراضي البولندية.. كان «هتلر» يقامر على أن الحلفاء الديمقراطيين الغربيين لن يتدخلوا كما حدث مع تشيكوسلوفاكيا، وكان يتعامل مع الأمور من هذا المنطلق، فكان يرى أن البريطانيين لن يحاربوا من أجل أحد، ولن يفعلوا شيئًا غير الشجب والتنديد والتهديد.. لكنه تفاجأ بالفعل بالتحرك البريطاني في نفس اليوم وهو ٣ سبتمبر ناحية الأراضي الفرنسية، وبدا الأمر لـ«هتلر» أنه ربما سيخسر مقامرته على توقعاته، فبريطانيا أعلنت الحرب، ومعها دول «الكومنولث البريطاني»، وهي عبارة عن اتحاد عسكري مكون من ٥٢ دولة جميعها من الدول والولايات الخاضعة للإمبراطورية البريطانية، إنه لأمر مخيف، ولقد أعلنت أيضًا أستراليا ونيوزيلندا مشاركتهما في الحرب على ألمانيا في نفس اليوم، وتلتهما جنوب إفريقيا التي أعلنت عن مشاركتها في يوم ٦ سبتمبر، ثم بعد ذلك أعلنت كندا في يوم ١٠ سبتمبر، وكأن العالم كله قد تكاتف على سحق «هتلر».. برغم خطورة الموقف كان «هتلر» يشعر بأنها مجرد مناوشات، رغم التحرك الفعلي للقوات البريطانية، والقوات التابعة لها نحو الأراضي الفرنسية من أجل ضرب ألمانيا، وتأكيدًا لتوقُّع «هتلر» ونجاح رهانه تفاجأ البولنديون بأن هذه القوات لم تقدم لهم أي دعم على الإطلاق، بل ورغم الحصار البريطاني على الحدود الألمانية بقيت الحدود هادئة طوال الوقت، لتبدأ حرب تُعرف باسم «الحرب الزائفة» أو «الحرب المضحكة» أو «الحرب المتوقفة»، وكلها مصطلحات تُشير إلى وصف حالة الحدود الألمانية الفرنسية منذ تحرك القوات البريطانية من أجل ضرب ألمانيا في ٣ سبتمبر ١٩٣٩، وهو نفس يوم إعلان بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا حتى يوم ١٠ مايو ١٩٤٠، ولم تشهد هذه الفترة سوى اشتباكات محدودة تمت على استحياء في البداية، ثم بعد ذلك ظلت القوات المتخاصمة تنظر في وجه بعضها دون أي قتال طيلة شهور، وظلت كل قوة متأهبة داخل حصنها، فالحدود الألمانية كانت محصنة بخط «سيغفريد»، وكان عبارة عن خط دفاعي مجهز بالكثير من المدافع والدبابات والملاجئ الحصينة، المكونة من مئات المعاقل والدشم، والمثبتة خلف عوائق طبيعية أو نتوءات من الخرسانة المسلحة، أطلق عليها اسم «أسنان التنين»، وكان قد أنشأه الألمان من الأساس في فترة الحرب العالمية الأولى، لكن كل هذه التحديثات تم إدخالها على يد النازيين بعدما تم تطويره وتجهيزه عام ١٩٣٠؛ لاستخدامه في الحرب ليكون مقابلًا ومضادًا لخط «ماجينو» الفرنسي.

أما خط «ماجينو» الفرنسي التي تحصنت فيه قوات التحالف في الناحية الموازية، فقد تم إنشاؤه بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وكانت فرنسا قد أنشأته كقاعدة صدٍّ استراتيجية، ليساعدها في الدفاع عن الحدود حيال أي

محاولات مستقبلية للألمان، وهذا الحصن يعتبر نموذجًا متميزًا للتحصينات الدفاعية الثابتة، ورأى مؤسسوه أنه قد بُني بطريقة ناجحة تُمكِّن الفرنسيين من وقف أي تقدم للقوات الألمانية، حيث سيغوصون فيه وينهكون، ومن ثم يتسنى للفرنسيين ضربهم بسهولة بالضربات المضادة، وكأنهم يصطادون طيرًا، خصوصًا بسبب أن الشكل الطاغي على هذا الحصن هو شكل الدفاع الدائري.

لم تشهد الحرب الزائفة سوى هجوم واحد فقط، والذي شنَّه الحلفاء في يوم ٧ سبتمبر، حيث استطاعت قواتهم التقدم في العمق الألماني ١٢ كيلومترًا، واحتل الفرنسيون بعض القرى الصغيرة، ثم استردَّ الألمان هذه القرى في وقت لاحق.. بعد مرور ستة أيام وفي ١٣ سبتمبر، توقف الهجوم الفرنسي، وانسحبت القوات للخلف تحت حجَّة أن هزيمة بولندا قد تحققت، رغم أن المقاومة البولندية مستمرة، ولم تعلن بولندا الاستسلام! عادت القوات للتحصينات جالسين في حالة تأهب تُثير للسخرية والضحك، ولم تقع بعد ذلك أي مناوشاتٍ تُذكر، رغم أن حالة الحرب مُعلنة من جميع الأطراف.. كان «هتلر» يتابع الموقف في ثقةٍ تامة من نجاح مقامرته على تدخُّل البريطانيين والفرنسيين في أي حرب من أجل آخرين، وقرر أن يحاول التملص من فرض الحصار الاقتصادي الذي نفذه الحلفاء على بلاده، مما دفعه للتفكير في مهاجمة السفن التجارية المتوجهة لدعم بريطانيا في المحيط الأطلسي.

كانت قد مرَّت الأيام الأولى من غزو ألمانيا لبولندا، لتسفر عن ضعف جبهة البولنديين تمامًا، وفي يوم ٦ سبتمبر استطاع الألمان عبور نهر «الفيستولا»، والانقضاض على مواقع استراتيجية مهمة.. كان الاتحاد السوفياتي يتابع ما يدور بتركيزٍ تام، وقد شعر بأن دوره قد حان، حيث كان يرى أن له حق التقاسم في بولندا بموجب البنود السرية الموجودة في اتفاقية عدم الاعتداء التي أبرمها مع «هتلر»، لكن ظهر شيء تعجيزي، فالسوفيات كانوا مرتبطين باتفاقية عدم اعتداء أخرى مع البولنديين، والتي وُقّعت في عام ١٩٣٢ لتمدَّد لعام ١٩٤٥، والآن هم في عام ١٩٣٩ ولم تنتهِ بعدُ، ليقرر الاتحاد السوفياتي إلغاء تلك الاتفاقية في الحال يوم ١٧ سبتمبر ، وقالوا إنها فقدت صلاحيتها؛ بسبب سقوط بولندا كدولة ومؤسسات، ليُعلنوا هم أيضًا الغزو عليها في نفس اليوم، واقتحامها في المساء في حملة عسكرية موسعة، لتنتهي بولندا تمامًا بعد القضاء على كل جيوب المقاومة فيها.. بعد يومين من الدخول السوفياتي وتحديدًا في ١٩ سبتمبر استسلم القائد البولندي المهم «بورتنوفسكي» مع ١٧٠.٠٠٠ جندي في قطاع كونتو، واستمر الغزاة في توغلاتهم للقضاء على ما تبقى من جنود حتى يوم ٢٨ سبتمبر، والذي شهد الاستسلام التام والنهائي بعدما سقطت مدينة «مودلين» ثم العاصمة البولندية «وارسو» واستسلام قوات القائد «يوليوس رومل»، وانتهت القصة

باستسلام الأميرال «جوزيف أونرو» في شبه جزيرة «هل» في منطقة الشمال.

أعلنت بولندا الاستسلام التام والنهائي في يوم ٦ أكتوبر ١٩٣٩، بعد خسارتها آخر المعارك، وهي معركة «كوك»، وبداية ترحيلها قرابة مائة ألف جندي إلى رومانيا ودول البلطيق، ثم بدأ الألمان والسوفيات توزيع الأراضي البولندية عليهما في يوم ١٢ أكتوبر، وفي نفس يوم التقسيم عرض «هتلر» على بريطانيا وفرنسا القيام بمعاهدة سلام مع بلاده، وقال في غرورٍ تام: «إن بولندا قد انتهت، وإذا أراد أحد التحدث عنها مستقبلًا، فليخاطِب ألمانيا والإتحاد السوفياتي».. جاء الرد على مقترحه لتوقيع معاهدة السلام على لسان رئيس الوزراء البريطاني «تشامبرلين»، بأنه لا يمكن قبول شروط السلام والتغاضي عن العدوان.. لم يعطِ «هتلر» لردِّه أي اهتمام، ماضيًا في مقامرته التي راهن نفسه عليها، وبدأ في الانشغال بترسيم الحدود الجديدة لمنطقة بولندا مع السوفيات.. بعد التوزيع أجبر الاتحاد السوفياتي دول البلطيق (وهي الدول الواقعة على سواحل البلطيق، وهم إستونيا ولاتفيا ولتوانيا وفنلندا) على استضافة قواعده العسكرية على أراضيها، ضمن مواثيق المساعدة المتبادلة، ولكن قامت فنلندا برفض الأمر، وتحدَّت قوة الإتحاد السوفياتي، واعترضت على تسليم أي جزء من أراضيها، فقرر السوفيات غزو فنلندا، لتبدأ «حرب الشتاء» في يوم ٣٠ نوفمبر، وهي الحرب التي وقعت لمدة ثلاثة أشهر من المعارك الشديدة، والخسائر الفادحة التي لحقت بالطرفين، وبعد الوقوع في هذا المستنقع تخلى السوفيات عن فكرة الغزو، وقاموا بإصدار قرار يقضي بإيقاف الحرب، وقررت توقيع معاهدة «سلام موسكو» في ١٢ مارس ١٩٤٠ بينها وبين الجانب الفنلندي، الغريب في تلك المعاهدة تنازل فنلندا عن جزء كبير من أراضيها لصالح الاتحاد السوفياتي أكثر مما خسرت في أثناء المعارك!

على كل حال، كانت قد نجحت مقامرة «هتلر» ونظريته حول السكوت البريطاني والفرنسي حتى هذه اللحظة الحالية، أي يوم ٨ إبريل ١٩٤٠، ولكن الآن جاء للفوهرر خبر جديد قلَب الطاولة، وحوَّل الأحداث عكس ما تمنى، خبر سيئ ربما سيؤدي لخسارته مقامرته على توقعه، ففي هذه اللحظة وقعت أولى المعارك البحرية بين الحلفاء ودول المحور، حيث جاءه تقرير بأن سفينة «أدميرال غراف» الألمانية تلقَّت هجومًا عنيفًا من قوات البحرية البريطانية قرب سواحل الأرجنتين، وتم إغراق السفينة بأمر من قائدها؛ حتى لا يستولي عليها البريطانيون، وليس هذا كل شيء، بل وقامت بريطانيا ببدء عملية أطلقت عليها اسم «عملية ويلفريد»، والتي تهدف لقطع خط الحديد الخام القادم من السويد والمارِّ بالنرويج والدنمارك إلى ألمانيا، أيضًا لم يكن

هذا كل شيء، بل وبدأت بريطانيا عملية زراعة الألغام في المياه الإقليمية النرويجية؛ لتتسبب في نفس اليوم بغرق عدة سفن ألمانية.. انتهت هذه الساعة المهمة لتُسدل الستار على مقامرة «هتلر»، والتي كان نتاجها الفشل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢٠)
ساعة الانتقام

اليوم ٢٩ مايو ١٩٤٠ والساعة الآن العاشرة صباحًا، السعادة تعمُّ وجه الفوهرر ووجوه مستشاريه الجالسين معه في مكتبه، ماذا حدث؟ يبدو أن هناك نصرًا عظيمًا قد تم، الأمر الذي استدعى الإتحاد السوفياتي نفسه للاحتفال، وإرسال برقيات تهنئة، فلقد استطاع «هتلر» غزو فرنسا، وإجبارها على توقيع اتفاقية استسلام، وبشكلٍ انتقامي أجبرها على توقيعها في نفس المكان الذي وقَّع فيه الألمان اتفاقيتهم للاستسلام في الحرب العالمية الأولى، بل وتمكن أيضًا من دحر الحلفاء واستولى على هولندا وبلجيكا والدنمارك والنرويج ولوكسمبورج! بالفعل هو انتصار تاريخي، ولكن كيف حدث؟

في الماضي كان قد علم «هتلر» أن مقامرته قد خسرت، وأن هناك حربًا ساخنة قد بدأت رحاها تدور بالفعل، واستمر «هتلر» في تحديه للجميع محاولًا كسب خطوات سريعة نحو التوسع، واستغلال كل دقيقة من أجل حصاد انتصارٍ جديد، وكاستعداد لصدِّ أي ضرب بريطاني محتمل أمر قواته في صباح ٩ إبريل ١٩٤٠ بمهاجمة الدنمارك والنرويج، كمناورة وقائية ضد أي خطة هجوم ربما سيشنُّها البريطانيون والفرنسيون عليه مستقبلًا؛ بغرض عزله عن السيطرة على الأطلسي، وإيقاف تصديه للسفن القادمة لبريطانيا، أضف إلى ذلك قيامه بهذا الغزو من أجل تأمين خام الحديد لمصانع الأسلحة الألمانية من مدينة «كيرونا» السويدية، والذي يمر عبر «نافاك» النرويجية، وإعادة إصلاح الخطوط التي ضربها البريطانيون.. عرض «هتلر» على الدنمارك والنرويج الاستسلام الفوري، وضمان بقائهما على الحياد، مقابل تأمين سلامتهما وحفظ استقلالهما السياسي، لكن طلبه قوبل بالرفض، فقرر التدخل العسكري.

لم تتمكن الدنمارك من الصمود، حيث سيطرت عليها القوات الألمانية بعد أربع ساعات فقط من بدء الهجوم، أما النرويج فقد سقطت عاصمتها ومناطقها الجنوبية، ورغم ذلك أعلنت المقاومة، واستمرت في الصمود لمدة ٦٣ يومًا، وكانوا قد هزموا الألمان هزيمة ساحقة بمساعدة القوات البريطانية في معركة «نارفيك»، لكن الجيش الألماني تمكَّن من توحيد صفوفه والعودة بكل قواه، وتمكَّن من إخماد المقاومة والانتصار عليها، لتُعلن النرويج الاستسلام في يوم ١٠ يونيو ١٩٤٠.. كانت القوات البريطانية قد تكبَّدت خسائر فادحة في هذه المواجهة ولم تحقق أي انتصارات باستثناء معركة «نارفيك»، مما دفع برئيس الوزراء البريطاني «نيفيل تشامبرلين» إلى

الاستقالة، واستلام «وينستون تشرشل» المنصب في ١٠ مايو ١٩٤٠، ذلك الرجل السكير المشاغب الذي امتلأ قلبه بالكراهية لـ«هتلر»، والذي حذَّر «هتلر» منه سابقًا، الآن قد دخل اللعبة متعطشًا للانتقام.. احتفل «هتلر» بمنصب «تشرشل» الجديد على طريقته الخاصة، حيث فاجأه بصفعةٍ مفاجئة شنَّت فيها قواته حملة عسكرية على فرنسا، بالتزامن مع الحملة النرويجية، وكان غزو فرنسا من ضمن الحملة الموسعة التي شنَّها الألمان على هولندا وبلجيكا ولوكسمبورج وفرنسا.

كانت عملية غزو فرنسا قد بدأت يوم ١٠ مايو ١٩٤٠، لتكون نقطة فاصلة ما بين الحرب المزيفة والحرب الطاحنة الجديدة بين فرنسا وجارتها ألمانيا، وبدأت تلك الحملة باستراتيجية ألمانية وُضعت لتكون على شكل مرحلتين أساسيتين:

العملية الأولى «العملية الصفراء»:

وهي العملية التي نفّذتها القوات الألمانية من أجل ضرب هولندا، وبلجيكا، ولوكسمبورج؛ بهدف استدراج قوات الحلفاء الذين بالفعل أكلوا الطُّعْم، وقاموا بتحريك خيرة قواتهم وأفضلها نحو بلجيكا؛ لصدِّ العدوان الألماني من ناحية الشمال، وأثناء تحرُّك القوات تفاجئوا بوقوعهم في فخٍّ مُحكم، حيث قُطع عليهم الطريق من خلال قوات مدرعة ألمانية عالية الكفاءة، كانت مختبئة خلف أحراش غابات «أردين» (منطقة غابات، وهي موقع استراتيجي مهم، حيث تقع على الحدود المشتركة ما بين بلجيكا ولوكسمبورج وفرنسا) وبدأت القوات الألمانية في اقتناص قوات الحلفاء وسحقها، كان هذا التوغل الألماني نتيجة خطأ فادح من الفرنسيين؛ لأن غابات «أردين» كانت تُعتبر منطقة مهمة على حدودهم، وقد أهملوا حمايتها، فكان يتوجب عليهم دراستها، لكنهم تجاهلوها؛ بسبب أنها مجاورة لدول محايدة، ولاعتقادهم أن طبيعة هذه المنطقة الجغرافية تجعل من المستحيل أن تتحرك بها الدروع الحربية الألمانية مهما حدث، لكن حدث هذا بسبب خفة السلاح الألماني، وسهولة نقله وتحريكه بسرعة.

كانت هذه العملية بمثابة صفعة قوية على وجه البريطانيين والحلفاء أجمعين، وخرج العنيد «ونستون تشرشل» ليعرب عن أسفه تجاه هذا الحادث المؤسف الذي كبَّدهم الكثير من الخسائر، والذي سماه باسم «ضربة المنجل» التي فصلت قوات الحلفاء الرئيسية عن بقية القوات، وتسببت في قطع جميع خطوط الاتصالات والإمدادات منها وإليها، وعزلها عن الحرب وتطويقها من قِبل الجيش النازي.. بدأت القوات المحاصَرة بالانسحاب رويدًا رويدًا باتجاه البحر إلى ميناء مدينة «دونكيرك»، وبدأت الحكومة البريطانية ترتيباتها للإسراع في إخلاء قواتها المحاصرة والمنهزمة، ومعها بعض الفرق

الفرنسية، سُمِّيت عملية الإخلاء باسم «عملية دينامو».. تجمعت القوات في ميناء «دونكيرك» وكان الانسحاب بمثابة عملية إعجازية، فهذه القوات كانت تربو على مائتين وخمسين ألف عملية لوجستية معقدة، بالإضافة للقطع البحرية البريطانية الثقيلة، وتمت عملية دينامو بمساعدة المواطنين المدنيين الذين يملكون قوارب، ولولا هذا الانسحاب الناجح لتغيرت كل موازين الحرب القادمة لصالح الألمان.. كان من المفترض ألا يعطيهم الألمان فرصة للانسحاب، ولكن توقفت المجموعة (أ) الألمانية بقيادة «رونتشتيت» عن الهجوم، وهو قرار غامض ومثير للريبة، لماذا توقفوا؟ ومن صاحب أمر إيقاف الهجوم؟! لم يُعرف إلى الآن من هو صاحب أمر التوقف، هل هو «هتلر» أم «رونتشتيت»؟ يُقال إن «هتلر» هو الذي أمر بإيقاف وحدات المدرعات استنادًا إلى نصيحة وزير الجو، والذي نصح «هتلر» بإيقاف الهجوم؛ لإعادة تهيئة الوحدات بعد استهلاكها.. على كل حال الهجوم قد توقف ليُقدِّم للحلفاء فرصة جديدة للهروب، حيث كان أقصى ما يحلمون به هو إجلاء ٢٠ ألف جندي من قواتهم المحاصرة قبل تعرضهم للأسر من قِبل الجيش الألماني الشرس، وبسبب فرصة توقف الهجوم الذهبية تمكنوا من إجلاء أكثر من ٣٣٨ ألف جندي، في الفترة من ٢٧ مايو إلى ٤ يونيو، تاركين خلفهم معداتهم الثقيلة، أما الجيش الفرنسي الأول فما زال محاصرًا بأكمله في مدينة «ليل».

في الوقت الذي انشغل فيه الحلفاء في ترميم ما أصابهم من سوء، كان الألمان قد أحكموا قبضتهم على الشمال، واستمرارًا لنجاحهم وتقدمهم تمكنوا من غزو بلجيكا في يوم ٢٨ مايو بعد إعلان البلجيكيين الاستسلام.. نجحت العملية الأولى أو العملية الصفراء نجاحًا ملحوظًا، برغم أنه كان من الممكن أن تكون حاملة لنتائج وانتصارات أعظم من ذلك، لتأتي المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية، أو «العملية الحمراء»:

كانت هي الموجة الثانية للمواجهة، من أجل سحق صفوف المقاومة الفرنسية التي نجت من العملية الأولى، وكانت عبارة عن هجوم حاد وسريع بالقوات الجوية وقوات المدرعات التي صُنعت بألمانيا على كفاءة عالية من السرعة والتحرك، واستهدف الهجوم قوات الحدود الفرنسية المحصنة بخط «ماجينو».. تمكَّن الألمان من اجتياز تحصينات «ماجينو» القوية، وزجَّت بقواته للخلف، واستمرت في دفع الجيش الفرنسي للداخل، وتقدم الألمان ناحية الداخل الفرنسي حتى وصلوا إلى العاصمة الفرنسية باريس بنفسها في يوم ١٤ يونيو.. كان هذا بمثابة نصر تاريخي للألمان، ودخل «هتلر» بنفسه ليتفقَّد جنوده أمام «برج إيفل»، لتتحقق نبوءته، ويشاهد حلمه على أرض الواقع،

بعدما فرَّ أعضاء الحكومة الفرنسية وانتهاء المقاومة العسكرية تمامًا في ١٨ يونيو.

وبعد تنفيذ الحلم النازي الكبير، لهث الفرنسيون من أجل عقد هدنة مع «هتلر»، ووقف الدمار الذي حلَّ، على رأسهم الماريشال «فيليب بيتان»، والذي أصبح منذ هذه اللحظة بمثابة رئيس البلاد بعد حلِّ الدولة بسبب الغزو، واستقالة رئيس الوزراء الفرنسي الأسبق «بول رينو» في ١٦ يونيو.. وفي المقابل لم يهدأ القادة القدامى الفارون، حيث قام الجنرال «شارل ديغول» بتنصيب نفسه رئيسًا لحكومة فرنسا الحرة في منفاه بلندن، رافض اقتراح الماريشال «فيليب» بالصلح والهدنة، ودعا المواطنين في الداخل الفرنسي إلى استكمال القتال والمقاومة ضد الألمان، وكان هذا في خطابٍ له بثته إذاعة «بي بي سي» في ١٨ يونيو، والذي قال فيه حرفيًّا:

«هذه الحرب لا تقتصر على خسارة إقليم في بلادنا، هذه الحرب لم تنتهِ بخسارة معركة فرنسا، هذه الحرب هي حرب عالمية واسعة.. أيًّا كان ما سيحدث، فإن شعلة المقاومة الفرنسية لا يجب أن تنطفئ، ولن تنطفئ».

لم يستجب الفرنسيون لحثه؛ بسبب عجزهم الشديد عن صدِّ القوة النازية، ورأى الماريشال فيليب عدم وجود خيار بديل للهدنة الآن، وكثف دعواته للزعيم النازي بإقامة هدنة لوقف القتال.. وافق «هتلر» على توقيع الهدنة، لكنها كالمعتاد حُملت بشروطه الخاصة، وبالفعل تمت في يوم ٢٢ يونيو في نفس المكان، ونفس العربة التي وقَّع فيها الألمان معاهدة استسلامهم في الحرب العالمية الأولى، يا لغرائب القدر! هكذا قال «هتلر»، هذه ساعة الانتقام، وردِّ الذلِّ بذلٍّ أكبر.

نتج عن تلك الهدنة تقسيم فرنسا، لتمتلك ألمانيا الجزء الذي احتلته، وهو الجزء الشمالي والغربي، وفي أثناء هذا الغزو كانت إيطاليا قد تمكَّنت من احتلال جزء من الجنوب الشرقي، وعندما جاءت هذه الهدنة ملَّكته لها، أما الأجزاء المتبقية فأطلق عليها «المنطقة الحرة»، وتم تأسيس حكومة جديدة فيها تحت رئاسة القائد الجديد «فيليب بيتان»، وجعلوا من «فيشي» عاصمة لفرنسا الجديدة.. استمرت فرنسا تحت رحمة ألمانيا الغازية، بالإضافة إلى منطقة الشمال حيث كانت قد استسلمت لوكسمبورج ظهر يوم ١٠ مايو، واستسلمت هولندا فور قصف العاصمة «روتردام» في ١٤ مايو بعد مقاومة عنيفة، كذلك استسلمت بلجيكا التي صمدت حتى ٢٨ مايو، وسمح الألمان ببقاء الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط تحت تصرف حكومة «فيشي».

بعد هذا النصر الكبير، يجلس «هتلر» الآن مع مستشاريه بمكتبه ليحتفل معهم، وفي الحقيقة كان غرضه من هذا الاحتفال التأكيد على صحة قراراته،

وإرضاء ذاته وغروره، بعدما قرر ألا يستجيب إلا لتخطيطاته، والجدير بالذكر أن الجانب السوفياتي هو أيضًا قد احتفل بهذه الانتصارات، حيث قال «فياتشسيسلاف مولوتوف» رئيس الوزراء في الاتحاد السوفياتي:

«إن القيادة السوفياتية تبعث بأحر التهاني إلى ألمانيا؛ وذلك لنجاحها في حملاتها، إن الدبابات الألمانية التي غزت شمال فرنسا كانت معبأة بالبنزين السوفياتي، وإن القاذفات الألمانية التي سحقت روتردام كانت مليئة بيروكسلين السوفياتي، إن الرصاص الذي قتل الجنود البريطانيين كان بارودًا سوفياتيًّا».

انتهى الاحتفال بعد مرور هذه الساعة السعيدة، التي اعتبرها «هتلر» ساعة الانتقام للذلِّ الألماني، والتي أعطته دافعًا مهمًّا للتقدم وعدم الاستسلام، والإيمان الكامل بمبدأ الحرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢١)
ساعة باربا‌روسا

الساعة الآن التاسعة من صباح يوم ٢٢ يونيو ١٩٤١، يستعد الآن «أدولف هتلر» للتحدث عبر بثٍ إذاعي في الراديو إلى الشعب الألماني، يبدو أن هناك خبرًا مهمًّا، ويتم الآن التنسيق مع وزير الدعاية النازية «جوزيف جوبلز» النشط، حول كيفية إعلانه، إنه خبر الحرب على الاتحاد السوفياتي!، حقًّا إنه قرار عنتري جديد.

بعد انتصار مخططات «هتلر» التوسعية في الماضي زاد نفوذه بشكلٍ أكبر، وأصبحت خطوات الجيش المحوري محسوبة بكل ثقة وحماسة، من الناحية الأخرى كانت قد بدأت بريطانيا في جمع صفوفها بعد خسارة ذراعها اليمنى فرنسا، بالإضافة لحزمة من دول الجوار، وفي يوم ٣ يوليو ١٩٤٠ قامت البحرية البريطانية بشنِّ هجوم على سفن حليفتها فرنسا نفسها في ميناء المرسى الكبير في خليج «وهران» بالجزائر، لم يكن ذلك انقلابًا على فرنسا، ولكنها فعلت ذلك بغرض تحييد الأسطول الفرنسي؛ حتى لا يستولي عليه الألمان، ثم استكملت بريطانيا في أخذ استعداداتها بغزوها كلًّا من جرينلاند وأيسلندا وجزر فارو التي تتبع الدنمارك في يوم ١٠ مايو، بغرض عمل حائط صد هناك للغزو الألماني المحتمل، أما في البقعة الشرقية قام الاتحاد السوفياتي أيضًا بغزو دول البلطيق (لاتفيا وإستونيا وليتوانيا)، ثم غزا مناطق بيسارابيا وبوكوفينا الشمالية وهرتزا الواقعة جميعها تحت السيادة الرومانية؛ من أجل توسيع الجبهات؛ تحصينًا لأي هجماتٍ قادمة.

لم يتوقف «هتلر» ولو للحظة واحدة عن التفكير في التمدد والتوسع، فها هي أحلامه تتحقق أمامه، لكنها تحتاج للكثير من الصمود، وكحيلة جديدة من حيله عرض على بريطانيا السلام في يوم ١٩ يوليو، وبعد ثلاثة أيام جاء الرد على لسان وزير الخارجية البريطاني «إيرل هاليفاكس» بالرفض التام، وبرر ذلك قائلًا إن «بريطانيا لن تقبل إلا السلام العادل الذي يضمن حق الدول الأوروبية في تقرير مصيرها».. غضب «هتلر» من تزمُّت الجانب البريطاني، وردَّ على هذا الرفض أمر بتوجيه سلاحه الجوي ناحية شمال فرنسا، من أجل الاستعداد لتنفيذ ضربة جوية موجهة للعمق البريطاني نفسه، وأطلق عليها خطة «أسد البحر»، والتي سُمِّيت من الجانب البريطاني «معركة بريطانيا»، بدأت الضربة الجوية للألمان من القواعد الألمانية الموجودة في الشمال الفرنسي؛ بغرض قصف السلاح الجوي البريطاني في مطاراته، ولكن شدة الضرب جعلتهم غير محددين للأهداف بالضبط، ليصبح القصف قائمًا على المدن البريطانية وعلى المدنيين كمحاولة استدراج لخروج السلاح الجوي للدفاع.. طال التدمير غالبية

المدن البريطانية الصناعية الكبرى، على رأسهم العاصمة لندن، والتي باتت تحت القصف كل ليلة لمدة شهرٍ كامل، وركز الطيران الألماني على قصف المواقع الاستراتيجية المهمة، مما أدى إلى عدم مواجهة جيوش المشاة، واستهدف القصف في البداية قوافل الشحن البحري ومراكز الشحن والموانئ، واستطاع سلاح الألمان الجوي تعطيل عمل سلاح الجو الملكي البريطاني، وبعد مرور ١٢ يومًا استهدفت الهجمات المطارات والبنى التحتية التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني، ثم بعدها تطور الأمر لتستهدف المصانع المشاركة في إنتاج الطائرات والبنية التحتية الاستراتيجية ومناطق ذات أهمية سياسية، ثم في النهاية قصف الألمان المدن والبيوت وما فيهما من مدنيين.. استطاع الألمان السيطرة على الجزر والبلدان الحدودية لبريطانيا، وفي ١٦ يوليو أمر «هتلر» بتنفيذ المرحلة الثانية من خطة أسد البحر، ليبدأ الزحف البرمائي ناحية بريطانيا بعد سيطرة سلاح الجو الألماني على نظيره البريطاني، والذي بدا وكأنه اختفى، ولكن في هذه اللحظة ظهر العجز الفني وقلة الخبرة لدى القيادة الألمانية التي بدأت في خوض أول معركة بحرية في تاريخها، ففي المقابل كانت البحرية البريطانية ذات خبرة وكفاءة عالية؛ بسبب هيمنتها على البحار لعقود.

كان «هتلر» لا يصغي لآراء جنرالاته، متمسكًا بقرارته التي تنم عن قلة خبرته العسكرية، حيث إنه عندما أمر سلاح الجو بتغيير أهدافه وقصف المدن بدلًا من استمرار الضرب في سلاح الجو البريطاني، ترك للقوات الجوية البريطانية بعض الوقت لالتقاط الأنفاس، لتظهر بعد ذلك بشكل مفاجئ، وتقوم بشنِّ غارات مباغتة عطلت التحضيرات الألمانية للحملة، مما أجبر النازيين على تأجيل الحملة، ومن ثم إلغائها.. لفتت هذه الحرب أبصار وأسماع العالم؛ بسبب شدَّتها، واستمر سلاح الجو الملكي البريطاني في الصمود والنجاة من التحطيم بعد ظهوره المفاجئ على الساحة، في أول حملة كبرى في التاريخ تخاض بالكامل من قبل قوات الجوية، والتي فشلت فيها القوات الألمانية الجوية عن الصمود في ساعات النهار، على عكس عمليات القصف الليلي المستمرة على بريطانيا، والتي أصبحت تُعرف باسم «ذا بليتز».

كان الغرض الأساسي من قصف الألمان للندن، محاولة إجبارها على الموافقة على تسوية سلمية حسب الشروط النازية، وبما أن السلاح الجوي البريطاني لم يُدمَّر رغم هذا القصف العنيف، فقد اعتبرت محاولات الألمان فاشلة، خصوصًا أن الاستسلام البريطاني الذي انتواه الألمان لم يتم، لتُصنَّف هذه الحرب كأول هزيمة كبرى لألمانيا النازية في الحرب العالمية الثانية، ونقطة تحول حاسمة ومهمة في الصراع.. وعلى صعيدٍ آخر كان قد بدأ ضعف الطيران الإيطالي في محاولة «حصار مالطا» يوم ١٢ يونيو، والذي تم وصفه بالحصار غير الناجح، كان كل هذا على عكس اعتقاد «هتلر» الذي كان يثق

بالطيران الفاشي، وعلى عكس تفاؤله الذي زاد بعد ضمِّ فرنسا المتطورة (حكومة الفيشي الموالية له) لقوات المحور، حيث كان قد توقع أن الأسطولين الإيطالي والفرنسي سيقدمان بطولاتٍ مذهلة في معارك البحر المتوسط، لكنه اكتشف أنه كان مخطئًا بعدما نال منهما الأسطول البريطاني القوي ونظيره الأسترالي، وكبداهما خسائر كبيرة، وانتصرا عليهما في معركتي «المرسى الكبير» التي وقعت في ٣ يوليو، و«تارانتو» التي وقعت في ١١ نوفمبر.

زاد غرور «هتلر» وثقته في تحقيق انتصارات أخرى بديلة لغزو بريطانيا، ليلقي نظرة على الناحية المعاكسة، وهي ناحية الشرق، ومحاولة تنفيذ غزوٍ جديد في اليونان، بعد فشل قواته المحورية هناك بقيادة الطليان، فوجد المملكة اليوغسلافية التي سيطر عليها الفاشيون في تخبطٍ واضح؛ بسبب عدم وجود قيادة موحدة عليها، وبعد التدخل في شئونها انتظر حتى تم تنصيب الأمير «بافل كارادوفيتش» وصيًّا على العرش، وقدَّم وعدًا لهم ينصُّ على أنه سيعطيهم مناطق مهمة من شمال اليونان بما فيهم المدينة الاستراتيجية «سالونيك»؛ إثر مساعدتهم له والسماح بمرور القوات الألمانية في أراضيهم لتطويق اليونان، وبالفعل أقنع الأمير «بافل» وعقد معه اتفاقية في ٢٥ مارس ١٩٤١، لكن هذه الاتفاقية كانت بمثابة خراب قد حل على الأمير، فبعد عقدها مباشرة احتجَّ الرأي العام عليه، وخرجت المظاهرات في كل مكان مناهضةً له، وترتب على ذلك قيام انقلاب عسكري على الأمير «بافل»، بقيادة الجنرال «دوسان سيموفيتش» ليحكم البلاد بدلًا منه، ويخلصها من الوصاية الفاشية.

بعدما فشلت محاولة التفاوض مع يوغسلافيا، اضطرَّ «هتلر» للتدخل السريع؛ من أجل دعم القوات الإيطالية التي تحاول غزو اليونان دون المرور بيوغسلافيا، بعدما بدا أن انتصار اليونان على الطليان سيقترب، ودخلت القوات الألمانية والبلغارية والمجرية لتعزز موقف القوات الإيطالية هناك في يوم ٦ إبريل عام ١٩٤١، وحسموا الحملة على اليونان بشكلٍ سريع، وبنفس السرعة تمكنوا أيضًا من غزو يوغوسلافيا.. في هذه الأثناء حاولت قوات الحلفاء (بريطانيا وأستراليا ونيوزيلندا) نجدة اليونان، بحيث أرسلوا أعدادًا غفيرة من الجنود من مصر إلى اليونان، لكن بسبب عدم التنسيق وافتقار القيادة الموحدة، انتصرت دول المحور بقيادة ألمانيا رغم هذا الدعم، وتراجعت قوات التحالف بقيادة بريطانيا إلى كريت، لتسقط أثينا في قبضة الجيش المحوري في ٢٧ إبريل عام ١٩٤١.

بعد ذلك تقدم الجيش المحوري لملاحقة باقي القوات المتراجعة ناحية كريت، وتمكَّن من هزيمتهم، وتمكَّن وغزو كريت في ١ يونيو.. على عكس ما توقع الجميع أن غزو كريت سيكون بريًّا، قامت ألمانيا باستخدام الغارات

والمظليين، وبرغم النصر اتضح للألمان أن السلاحين لم ينجحا في تطبيق أهداف المعركة بشكلٍ نموذجي، ومن وقتها قرر الألمان ألا يستخدموا سلاح المظليين مرة أخرى.. أدى غزو كريت إلى إجبار قوات الحلفاء على الهروب، بما فيهم الملك «جورج الثاني» اليوناني وحكومته اليونانية الذين فروا جميعهم هاربين إلى مصر.

نجح «هتلر» في غزو دول البلقان (يوغسلافيا واليونان)، مما زرع ضغينة في نفوس السوفيات بقيادة «جوزيف ستالين»، على كل حال كان في نفوس الطرفين غل وحقد متبادل، فالاتحاد السوفياتي ذو النظام الشيوعي يعتبر صاحب نصيب كبير من الكره لدى «هتلر»، فلو رجعنا للوراء سنرى أن الدعاية النازية كانت قد صوَّرت أن من يسكن الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية، مجرد شعوب طفيلية أدنى من الجنس الآري، ويحكمها بلاشفة يهود متآمرون يجب تطهير الأرض منهم، وبناءً على ذلك كانت سياسة النازية على مرِّ سنواتها السابقة، تهدف بوضوح إلى قتل وترحيل واستعباد الروس وغيرهم من السكان السلافيين؛ بسبب اعتقاد الألمان بتفوقهم العرقي، لكنها السياسة يا عزيزي، تفرض على الشخص ما تقتضيه مصلحته على حساب مشاعره، وبما أن مصلحة «هتلر» قد اقتضى منها الجزء الكبير، اتجهت عيناه نحو الدب الروسي، خصوصًا بعدما أبدى غضبه من «هتلر»؛ بسبب غزوه لدول البلقان، التي كان يرى فيها أنها تخصه هو.

بدأ «هتلر» في التفكير حول كيفية التملُّص من معاهدة «مولوتوف ريبنتروب» ١٩٣٩، والتي بفضلها قد تقاسم بولندا مع الاتحاد السوفياتي، فقد قرر التخلي عن المعاهدة التي كونت لهم علاقات دبلوماسية ممتازة، وقامت بتوطيد علاقاتهما الاقتصادية، حيث ربطتهما باتفاقية ١٩٤٠ التجارية التي نصَّت على تزويد ألمانيا للسوفيات بمعدات عسكرية وسلع تجارية، مقابل المواد الخام للصناعة مثل النفط، والمواد الغذائية مثل القمح؛ لمساعدة النازيين في فترة الحصار البريطاني الحاد عليهم، كل ذلك تخلى عنه «هتلر».

على كل حال، الصدام بين الطرفين كان متوقعًا، وكلاهما يعلم ذلك، فبالرغم من العلاقات الودية الظاهرية، ظل ما في القلب كما هو، فـ«ستالين» و«هتلر» كل شخص منهما كان يشك في نوايا الآخر، ففي الفترة الماضية كان كلاهما ينتقد الآخر بحجة تدخُّل الأول في نفوذ الثاني الحيوي والعكس، كان هذا ظاهرًا بوضوح عندما عقدت ألمانيا اتفاق المحور مع اليابان وإيطاليا، وبذلت جهدها في إمكانية ضم السوفيات في الميثاق، وبعدما انتصر «هتلر» لرغبته قدم اقتراحًا خطيًّا لدخول الاتحاد إلى المحور، لكن جاء الرد في ٢٥ نوفمبر ١٩٤٠ برفض الاتحاد للدخول، قائلًا: سننضم فقط إذا امتنعت ألمانيا

عن التدخل في مجال نفوذ الاتحاد السوفياتي، صُدم «هتلر» بعدما وصلته هذه الرسالة، وقرر ألا يردَّ.. كان «جوزيف ستالين» رئيس الاتحاد ديكتاتورًا سيئ السمعة، لا يقلُّ غرورًا عن «هتلر»، كان يرى في بلاده القوة، حيث إنه كان مقتنعًا بأن إجمالي القوة العسكرية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية تجعله لا يخشى شيئًا، بل وجعلته يتوقع أنه إن قابل ألمانيا في حرب سيسحقها، وسيهزمها في انتصارٍ سهل وسريع، فلماذا يخشى «هتلر» أو حتى يقاتل من أجله!، كما أنه كان غير متوقعٍ أن «هتلر» سيحاول الغدر به في هذه الفترة على الأقل؛ لأنه ما زال متورطًا في حربه الغربية وقتاله العنيف ضد بريطانيا والحلفاء، فبديهي لن يفتح «هتلر» جبهة أخرى شرقية للقتال، فهو ليس مغفلًا.. على كل حال تمنى «ستالين» التخلص من تلك الاتفاقيات أكثر من «هتلر» نفسه، فهو أيضًا كانت له نوايا سرية نحو المُضي قدمًا في حملته ضد ألمانيا، وفرض نفوذه على باقي أوروبا فيما بعد.

في هذه اللحظات آمن «هتلر» بوجوب شنِّ هجومٍ عسكري على الجانب السوفياتي، لكنه قرار يبدو متهورًا، كيف سيحارب في الشرق، وهو لم يحسم إلى الآن معارك الغرب؟! تم التحضير لعملية الغزو التي أطلق عليها اسم «عملية باربروسا»، تيمُّنًا باسم الإمبراطور الألماني «فريدريك الأول باربروسا»، حيث تقول الأسطورة «إن باربروسا سيستيقظ من سباته، وينقذ ألمانيا حينما تحتاجه»، استدعى الألمان روح «باربروسا»، وقرروا تنفيذ أيديولوجيتهم النازية، والتي تقودهم لسحق غرب الاتحاد السوفياتي، واستيطان المواطنين الألمان فيه كسادة آريين، وتسخير الجنس السلافي كخدم وعبيد في المجهود الحربي لقوات المحور، ومن أجل الاستيلاء على احتياطي النفط من القوقاز، والموارد والمحاصيل الزراعية التي تمتلكها الأراضي السوفياتية الشاسعة.

وفي يوم ٢١ يونيو تلقت القيادة النازية لمجموعة الجيوش الشمالية في الساعة ١:٠٠ «شيفرة دوسلدورف»، وهي شفرة عسكرية تم الاتفاق عليها من قبل، لتكون البداية لتنفيذ البدء بعملية باربروسا في صباح اليوم التالي، فردَّت القيادة على الشيفرة بأن الأمر عُلِم وسيُنفَّذ من خلال شيفرتها الخاصة «دورتموند»، وبدأ الهجوم في ٢٢ يونيو ١٩٤١ بمشاركة ٤.٥ مليون جندي من قوات المحور على جبهة بطول ٢.٩٠٠ كم، في أضخم حملة عسكرية في تاريخ الحروب بجبهة طولها ٢.٩٠٠ كيلومتر، بالإضافة إلى ذلك فقد استخدم الفيرماخت (قوات الدفاع النازية) نحو ٦٠٠ ألف عربة، وما بين ٦٠٠-٧٠٠ ألف حصان للعمليات غير القتالية.

ومع بداية هذا اليوم الحالي، وفي هذه الساعة بالأخص أعلن «جوزيف جوبلز» أن الرئيس الألماني «هتلر» سوف يتحدث للجماهير عبر الإذاعة بعد قليل،

وكان «هتلر» في هذه اللحظة جالسًا مع مساعديه يتحدث بسعادة، ثم أنهى كلامه معهم قائلًا: «قبل انقضاء ثلاثة أشهر من الآن سنشهد انهيار روسيا انهيارًا لم يُرَ مثلُه في التاريخ»، ثم قام في شموخٍ واضح ليعلن قرار الحملة للشعب، وقال فيه:

«في هذه اللحظة، تمضي مسيرتنا وتمتد، ومقارنة مع ما هو أعظم ما شهده العالم على الإطلاق، لقد قررتُ اليوم أن أضع مصير ومستقبل الرايخ وشعب الرايخ في يد جنودنا، فليساعدنا الله في تلك المعركة!».

وبهذا الشكل كانت هذه الساعة بداية خطة باربا‌روسا، كبداية لغزو الألمان لجيرانهم السوفيات، والتي ستحول الأحداث القادمة تمامًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢٢)
ساعة التخبط

نحن الآن في ٢ فبراير ١٩٤٣، الساعة الآن الحادية عشرة قبل منتصف الليل، إنها ليلة ممطرة غيَّم على أجوائها الكآبة، يبدو أن الفوهرر الآن على موعدٍ مع انتكاسة جديدة، فيده اليسرى ترتجف بشكلٍ ملحوظ، ويبدو أن وجهه حزين وشاحب، جلس يسترجع كل ما مضى لاكتشاف أخطائه، وتذكَّر ما حدث منذ بداية تنفيذ عملية باربروسا بالضبط.

في تمام الساعة ٣:١٥ من يوم ٢٢ يونيو ١٩٤١، بدأت قوات المحور في تنفيذ أوامر «هتلر» نحو غزو الاتحاد السوفياتي، وبدأت الخطة بقصف المدن البولندية الواقعة تحت الاحتلال السوفياتي (والتي كانت من نصيب السوفيات بموجب قسمة اتفاقيتهما الملغاة)، وتحطيم التحصينات السوفياتية هناك بقوات المدفعية، وشنِّ غارات جوية موازية على بيسارابيا وسيفاستوبول ولينينغراد، وبعد تنفيذ المهمات بنجاح جاء دور القوات البرية التي زحفت إلى الداخل بمساعدة الكثير من المواطنين العملاء من أهالي أوكرانيا وليتوانيا، واستطاعت القوات اختراق النفوذ السوفياتي دون مقاومة تُذكر من جانبه.. زحف الألمان بعد استدعاء روح باربروسا؛ لتنفيذ استهدافهم لإخضاع العالم.. كان «هتلر» قد أعطى الأمر في هذا اليوم بالذات، كخطوة استباقية؛ تحسُّبًا مما هو قادم، حيث إن «تشرشل» قد انتوى ضمَّ الاتحاد السوفياتي لقوى الحلفاء في الفترة القادمة، بعدما علم أنه رفض محالفة ألمانيا، واعتقد «هتلر» أن غزو الاتحاد السوفياتي بمثابة تحجيم لنفوذ بريطانيا، حتى تفقد كل آمالها في النصر، وتعلن استسلامها أمام «هتلر»، كان يرى «هتلر» أن قرار غزو الاتحاد لم يكن قرارًا متهورًا، ولكنه قد أجبِر عليه الآن؛ لإيمانه الشديد بأن «ستالين» كان يخطط هو الآخر لغزو ألمانيا، لذا يجب أن تكون خطوة التقدم في السباق من ناحيته.. كان «هتلر» يراها حربًا وقائية، في الوقت الذي رأى فيه الجميع بما فيهم غالبية مستشاريه أنه قرار خاطئ.

تقدَّمت قوات «هتلر» بكل قوة وشجاعة، وتمكنت من غزو دول البلطيق في أوروبا الشمالية كلها، بالإضافة إلى روسيا البيضاء وأوكرانيا، بعدما ألحقت بالجانب السوفياتي خسائر فادحة، وبرغم الخسارة لم يتوقف الجيش الأحمر «السوفياتي» عن المقاومة، وأمرهم «ستالين» بالصمود وعدم الاستسلام، وألا يُخلوا مواقعهم حتى آخر قطرة دم، واستمرت الحرب طوال فترة صيف ١٩٤١، وعندما دخل الشتاء الروسي القارص، وجدت القوات الألمانية نفسها مجبرة على توقف الزحف في ديسمبر من نفس العام؛ بسبب ظروف الطقس والمقاومة العنيفة، رغم الاقترِاب الشديد من حدود العاصمة موسكو

وقرب تنفيذ الخطة.. كان الألمان قد تأخروا من الأساس في دخول موسكو، وقد ضيَّعوا أسابيع من الصيف، حيث إن القوات كانت قد تقدمت قبل ذلك، وكانت على مقربة ٣٥٠ كم من حدود موسكو، ثم جاءهم قرار غريب من جملة قرارات «هتلر»، حيث أمرهم بتغيير المسار والاتجاه نحو العاصمة الأوكرانية «كييف»؛ من أجل السطو على محاصيلها من القمح؛ حتى لا يجوع الشعب الألماني كما حدث في الحرب العالمية الأولى.. كان هذا القرار قد عطَّل خطة الزحف، وأضاع أسابيع كان من الممكن استثمارها في غزو موسكو قبل قدوم الشتاء، وهذا القرار كان من أسوأ قرارات «هتلر» العسكرية، حيث أدى لخسارة أسابيع حاسمة في فصل الصيف؛ بسبب مساعدته لـ«موسوليني» في اليونان، ومن ثم التأخر؛ بسبب توريد القمح الأوكراني، مما تسبب ذلك في إعطاء فرصة ذهبية للسوفيات من أجل الاستعداد لمعركة موسكو، واستدعاء القوات الخاصة المتمركزة ناحية سيبيريا، وذلك بعد تأكيد أشهر جواسيس الحرب العالمية «ريتشارد سورج» بأن القوات اليابانية لن تتدخل من ناحية الشرق حيث حدود اليابان؛ لأن عداءها المباشر مع أمريكا، ولا تنتوي الانضمام لقوات «هتلر».

فرح هتلر فرحة عارمة بعدما وقع النصر في معركة كييف بمابين يومي ٧ و ٢٦ يوليو ١٩٤١، عندما تمكن الجنود الألمان من تطويق وإعتقال أعداد كبيرة جداً من القوات السوفيتية هناك، لتصبح أكبر عملية اعتقال لجنود في التاريخ العسكري، حيث حاصروا ٤٥٢.٧٠٠ جندي و٢.٦٤٢ مدفع و٦٤ دبابة، ولم تتمكن سوى مجموعات صغيرة تبلغ ١٥.٠٠٠ جندي من الفرار من الحصار بشكل إعجازي، وأعلن هذا الإنتصار على سيطرة الألمان للجبهة الجنوبية الغربية، ولكن هذا النصر العظيم كان سريع والخسارة ستأتي بسبب دخول الشتاء القاسي، فهذه الأسابيع الأربعة كانت بمثابة طوق نجاة للجيش الروسي الذي حاول التعافي فيهم.

ومن أهم قرارات «هتلر» التخبطية، قرار آخر في منتهى السذاجة، حدث عندما دخل الألمان للنفوذ السوفياتي وخاصة أوكرانيا، تعامل مع السكان بقسوةٍ بالغة، فكان سهلًا عليه تمامًا كسب سكان أوكرانيا كحليف له؛ وذلك لأنهم كانوا كارهين لـ«ستالين» أشد الكره، ولكن بعدما رأوا معاملة «هتلر» انضموا للجيش الأحمر، وقاتلوا الألمان بشراسة.

زادت عملية باربروسا صعوبةً بسبب فشل شرطها الأول، وهو تحقيق النصر السريع والمفاجئ في وقتٍ قياسي، حتى ينتبه الألمان للحرب الواقعة مع بريطانيا في الناحية الغربية، لكن الشتاء والجليد وتحويل المسار، وكل ما ذكرناه من أسباب عطل الخطة بأسرها، وبرغم صعوبة العملية كان الألمان

صامدين إلى حدٍّ ما وقتها؛ بسبب سيطرتهم على معارك الأطلسي، وحينها كان «هتلر» يحث القوات على الصمود طوال فترة الصقيع؛ تفاؤلًا منه بأنه بعد انقضاء الشتاء سيسيطر كليًّا على الجيش الأحمر، فقوات الجيوش الوسطى التي تعاني وقتها في غرب موسكو بسبب الطقس، ما هي إلا ٣٥٪ من قوات جيشه، أما بالنسبة لمجموعة الجيوش الشمالية ومجموعة الجيوش الجنوبية فلم تواجهها أي ضغوط شديدة خلال فصل الشتاء، علاوةً على أن بقية الجيش كان يُجري إعادة تجهيزه، في حين أن القوات السوفياتية قد خسرت إلى الآن نحو ٢٥٩٪ من قوتها العادية والاحتياطية، الأمر الذي أحدث ارتباكًا كبيرًا في تلك القوى العسكرية الضخمة، مما حثَّ «ستالين» على إصدار القرار رقم ٢٢٧ تحت عنوان «لا خطوة إلى الوراء»، وبدأ يضع في أولوياته أنه بمجرد حلول الصيف سوف يهاجم «هتلر» العاصمة موسكو.

في هذه الأثناء وفي بقعة أخرى على الكرة الأرضية، قررت قوات الإمبراطورية اليابانية البحرية شنَّ غارة جوية مباغتة على الأسطول الأمريكي القابع في المحيط الهادئ، في القاعدة البحرية الأمريكية الموجودة في ميناء «بيرل هاربر» بجزر هاواي في ٧ ديسمبر ١٩٤١.. فُسِّر هذا الهجوم بأنه ضربة وقائية الغرض منها تدمير الأسطول البحري الأمريكي، بحيث لا ينضمّ إلى أسطول الحلفاء هناك؛ نظرًا لأن اليابان كانت قد عزمت ضرب القواعد البحرية البريطانية والهولندية في جنوب شرق آسيا.. أضرَّت الغارة بالقاعدة الأمريكية ضررًا بالغًا، حيث تمكَّن اليابانيون من إغراق ٤ بوارج حربية بحرية، وإحراق ٤ أخرى، وإغراق ٣ مدمرات، و٣ طرايد، وتدمير ١٨٨ طائرة في قواعدها، بالإضافة لقتل ٢.٤٠٢ شخص، وجرح ١.٢٨٢ آخرين.. قُبيل هذا الهجوم كانت الولايات المتحدة الأمريكية منعزلةً بشكلٍ كبير عما يحدث في أوروبا من حروبٍ مدمرة، لكن هذه الحادثة كانت بمثابة بداية مباشرة للمشاركة في الحرب العالمية، بعدما انقلب الرأي العام الأمريكي مطالبًا بالثأر، لتستجيب الحكومة، وتقرر إعلان الحرب ضد اليابان.. في اليوم التالي ١١ ديسمبر ١٩٤١ جاء الردُّ المباشر من «هتلر» بإعلانه الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية في اليوم الرابع بعد وقوع الهجوم؛ لأن اليابان كانت ظاهريًّا تُعتبر منضمَّة لقوات المحور رغم عدم توقيع أي معاهدات بذلك، وهذا كان قرارًا خاطئًا جديدًا انضمَّ لمجموعة القرارات السيئة التي تزمَّت بها «هتلر».

«هتلر» الآن أصبح سقف غروره قد وصل عنان السماء، فبعد هذا الإعلان أصبح يُعادي أكبر ائتلاف مكون على أرض البسيطة حينها، حيث حارب الإمبراطورية البريطانية التي تُعتبر أكبر إمبراطوريات الأرض حينها، ثم أكبر جيش اتحادي في العالم المتمثل في الاتحاد السوفياتي، وحديثًا قد أعلن الحرب على أكبر قوة مالية وصناعية في العالم، وهي الولايات المتحدة الأمريكية.. امتدَّ الصراع لأماكن متفرقة على الكرة الأرضية، وأصبح الكل

يضرب في مستعمرات الكل وقواعده الحربية، ومن ضمن هذه الحروب الفاصلة «معركة العلمين الأولى»، والتي وقعت قرب قرية العلمين الواقعة في الكيلو ٩٠ من حدود غرب مدينة الإسكندرية المصرية، بين الجيش الثامن البريطاني وبين قوات المحور، في الفترة من ١ يوليو إلى ٢٦ يوليو ١٩٤٢، وانتهت بانتصار الجيش البريطاني في تلك المعركة، التي وقعت بعد معركة مرسى مطروح..

تقابل الفريقان مجددًا في «معركة علم حلفا» جنوب قرية العلمين، وانتصر فيها الجيش الثامن البريطاني أيضًا على قوات المحور في الفترة من ٣١ أغسطس إلى ٧ سبتمبر ١٩٤٢، ثم تقابل الفريقان مرة رابعة في «معركة العلمين الثانية»، والتي وقعت في ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢؛ من أجل السيطرة على الصحراء الغربية، والتي انتصر فيها الحلفاء للمرة الأخيرة انتصارًا ساحقًا، لينهوا هذه الحروب العديدة..

كانت منطقة شمال إفريقيا مسرحًا للأحداث الحاسمة للحرب العالمية الثانية، وكانت جزيرة مالطة (التابعة للسيادة البريطانية آنذاك) تشكل عائقًا أمام وصول الإمدادات إلى قوات المحور في شمال إفريقيا، بحيث كان يتم نهب وتدمير أي سفينة مارَّة تحمل المدد، مما جعل هذا سببًا مهمًّا في هزيمة الألمان.. كانت كل هذه المعارك قد خاضها الجانبان من أجل السيطرة على الشمال الإفريقي كله، لذلك كان يتوجب على الحلفاء وقف وصول الإمدادات لقوات المحور التي تقدمت في البداية، خصوصًا بعد انتصار الجيش المحوري من قبل في «معركة عين غزالة» في برقة بالأراضي الليبية في إبريل، حينما أمر «هتلر» «إرفين روميل» (قائد قوات المحور في شمال إفريقيا) بالهجوم على برقة، ثم احتلال طبرق على الساحل الليبي؛ تمهيدًا لاحتلال مالطة، ولكن بعد كل ذلك ضحك الحلفاء في النهاية.

فشلت محاولات «هتلر» والجيش المحوري في الشمال الإفريقي الذي أصبح في قبضة الحلفاء في أواخر عام ١٩٤٢، حيث كانت معركة العلمين الثانية بمثابة نهاية مأساوية لحلم توسعه هناك، الذي كان مُخططًا للاستيلاء على ليبيا ومصر وقناة السويس والشرق الأوسط..

لم تكن هذه الهزائم المؤثرة في مسار الحرب سببها ضعف الألمان، أو حتى تعبيرًا عن قوة الحلفاء، رغم انضمام الولايات المتحدة الأمريكية إليهم، بقدر ما كانت القوات الألمانية على الأرض ضحية لأخطاء القيادة العليا، التي اعتمدت بشكل كبير على القوة الإيطالية المتخبطة، فإيطاليا الحليف لم تكن دائمًا عونًا لألمانيا بقدر ما كانت تمثل عبئًا ثقيلًا عليها، فقادتها كانوا مفتقرين للخبرة القتالية وكأنهم جهلة عسكريًّا، يعتمدون على أساليب قتالية قد عفا

عنها الزمن، علاوةً على قِدَم الأسلحة الإيطالية، فالألمان كثيرًا ما كانوا يُصلحون ما أفسده الطليان، وفي مرات عديدة فرض «هتلر» على قادته النازيين إرسال قوات ألمانية لتحرير الأراضي التي تخسرها إيطاليا، كالذي حدث في البلقان وشمال إفريقيا لاحقًا، مما أضعف القوات الألمانية وشتتها في جبهاتٍ متناثرة، في الوقت الذي كانت تحتاج فيه المدد في مواجهتها للدب الروسي، حيث أصبح الوضع هناك في غاية السوء، فانقطاع المدد عن قواته التي تقاتل من أجل الدخول لموسكو، جعل هناك مشكلة واضحة؛ بسبب نقص الطاقة والمحروقات، فالدبابات الألمانية هناك قد تعطلت لأيام بسبب نقص الوقود، وجاء هذا الخلل بسبب تعهد القوات الإيطالية سابقًا التكفل بالحرب في منطقة شمال إفريقيا، وتمويل القوات هناك بالدعم اللازم، وعدم طلب مدد من القوات الموجودة على الجبهة السوفياتية، ولكن تعطل هذا المدد؛ بسبب قصف البريطانيين بطيرانهم الملكي المتفوق الموانئ الإيطالية والذين دمروا نصفه تقريبًا، وكذلك إغارات جزيرة مالطة، لتجد إيطاليا نفسها في موقفٍ تُرثى له، فكل الموانئ في الشمال الإفريقي قد دُمِّرت، ولم يتبقَّ سوى ميناء طبرق الصغير الذي لا يسع غير الحمولات والمعدات الثقيلة، والذي يبعد ٥٠٠ كم عن ساحة المعارك.

كان «هتلر» يعتقد أن القوة الألمانية في هذا الوقت لا مثيل لها على الإطلاق، وكان يرى أن خططه جهنمية، مما أغراه بعدم الإنصات لجنرالاته كالمعتاد، لدرجة أن شيفرة الاتصالات الألمانية لم تتغير لمدة ٦ سنوات! وهذا كان خللًا كبيرًا في ذكاء تلك القوة الصاعدة، التي اعتقدت أن هذه الشيفرة معقدة غير قابلة للكشف، وفي أثناء حروب الشمال الإفريقي استطاع البريطانيون فكّ تلك الشيفرة، وأصبحت قيادات الحلفاء على علمٍ سابق بكل التوجهات والتحركات الألمانية قبل حدوثها، فكل اتصالات القائدً «رومل» كانت مراقبة! كان انتصار العلمين الأخير من أسباب تغيُّر مسار الحرب، وكان بمثابة بداية النهاية لإيطاليا و«موسوليني» وحزبه الفاشي، حيث تجرأ الحلفاء، واتجهوا بأنظارهم نحو صقلية، ليقرروا البدء في وضع خطة لضربها، والدخول إلى العمق الإيطالي، بغرض تحجيم «هتلر» والجيش المحوري أكثر فأكثر.

حلَّ الصيف وقرر «هتلر» استكمال حملته على الاتحاد السوفياتي، وكان يتوجب عليه السيطرة على الجبهة الجنوبية والشرقية، برغم قلة الموارد في وقتٍ قياسي قبل التدخل الأمريكي المتوقع، بالإضافة إلى السيطرة على نفط منطقة القوقاز لصالحه، وحرمان السوفيات منه، ليجد «ستالين» نفسه تحت ضغطٍ هائل؛ بسبب خسارة الموارد، فأمر بتجنيد كل من لديه المقدرة على حمل السلاح، لكن تحركاته كانت بطيئة مقارنة بخفة ورشاقة القوات الألمانية، ولكن برغم ذلك، فقرار «ستالين» لم يكن سيئًا؛ لأنه غيَّر شكل القتال عندما شارك المواطنون في الحرب، حاملين الأسلحة الفردية بالشكل

الذي أظهر ضعف تعامل الجيش الألماني النظامي، فالقوات الألمانية لم تُجِد حرب الشوارع، بل كانت مدربة وخبيرة في أداء التحركات والهجمات السريعة الخاطفة بدبابات البانزر خاصتها.

ومع حلول يوم ٢١ أغسطس ١٩٤٢، هاجم الألمان مدينة «ستالينجراد» بالسلاح الجوي الذي كثف القصف، ودمر المدينة، وحوَّلها إلى أنقاض على رؤوس ساكنيها؛ تمهيدًا لدخول القوات البرية، وكانت هذه الخطة مخالفة لخطة الألمان الاستراتيجية التي تدربوا عليها، فكما ذكرت أن الجيش الألماني يعتمد على الضرب الخاطف والسريع الذي شبَّهه بالبرق، المكون من سلاح الدبابات والمدافع، فقد أودت به الاستراتيجية الجديدة إلى غرق قواته البرية في حرب شوارع جديدة، في كل مدينة وقرية وشارع وحي وبيت، وبعد إدراك الخطأ تدخلت قوات الدفاع المكونة من الدبابات والمدرعات والمدافع، ليشتبك الفريقان في مطحنة بمعنى الكلمة، غاب فيها التمييز بين المدني و العسكري، ليسقط آلاف الضحايا من المدنيين.. أخضع الألمان المدينة بالكامل بعد تصديهم لمقاومتها العنيفة، لكنهم حتى هذه اللحظة لم يتمكنوا من القضاء على الخطوط الدفاعية للجيش الأحمر الذي تمركز في الضفة الغربية لنهر «الفولجا».

استعاد الجيش الأحمر قوامه نوعًا ما، وبدأ في شنِّ حملة عسكرية سُمِّيت بـ«عملية أورانوس» من أجل تحرير ستالينجراد في ١٩ نوفمبر ١٩٤٢، واستهدفت العملية شنَّ هجومين متزامنين، الأول: استهداف الجناح الأيمن للجيش السادس (المسئول عن تطويق المدينة)، والثاني: استهداف الجناح الأيسر له.. نجحت العملية بعد مرور أربعة أيام من القتال المتواصل، واستطاعوا محاصرة نحو ٢٥٠ ألف جندي من قوات الجيش السادس، والفيلق رقم ٤ التابع للجيش الرابع بانزر داخل المدينة، وعزلهم عن باقي القوات الألمانية.. بعد أيام من الحصار زحف الشتاء الجديد الذي أرعب الألمان من قبل، وبدا الضعف على القوات الألمانية في كل الأماكن، فالصقيع جلب معه الجوع والإنهاك، وقلة الوقود وتعطل المعدات، وتحت الحصار الشديد اقترحت قيادة الجيش السادس كسر الحصار والانسحاب وترك ستالينجراد، لكن «هتلر» رفض بشدة، وأمرهم بعدم الانسحاب مهما كلفهم الثمن، وأخبرهم بأنه سيؤمِّن لهم جسرًا جويًّا لإيصال الإمداد والتموين اللازم.. باءت محاولة تأمين الجسر الجوي أو ما سُميت بـ«عملية عاصفة الشتاء» بالفشل في الوصول إلى القوات القابعة في ستالينجراد، فلقد قابل الجيش الأحمر هذه العملية بعملية أشرس استهدفت المطارات التي تستعملها القوات الألمانية سواءً التي بداخل المدينة أو القريبة منها، فانفصل الجيش الألماني السادس عن القيادة العليا، وأعلن استسلامه رسميًا في ٢ فبراير ١٩٤٣ بعد تصفية من بقي من قياداته في المقاومة، ليُسدَل الستار على

أشرس مواجهة بشرية حدثت في الحرب العالمية، بل صُنفت كأكبر المعارك الدموية في التاريخ، حيث بلغ عدد القتلى فيها مليوني قتيل من العسكريين والمدنيين.

كانت هذه الحرب ثاني أكبر هزيمة لـ«هتلر» في الحرب بعد هزيمة حروب شمال إفريقيا، والتي أسفرت عن تدمير قوة الألمان التي أصبح من المستحيل استعادتها، وضياع حلم التوسع في الشرق، وبعد هذه الساعة ستصبح قرارات «هتلر» العسكرية فيما بعدُ غريبة الأطوار بشكل متزايد، والآن أصبح الوضع العسكري والاقتصادي لألمانيا آخذًا في التدهور، كذلك تدهورت حالة «هتلر» الصحية، فقد كانت يده اليسرى ترتجف ووجهه دائم شاحب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢٣)
ساعة المؤامرة

اليوم ٢٢ يوليو ١٩٤٤، يتم الآن تجهيز قاعة الاجتماع، لمقابلة «هتلر» مع قيادات الجيش النازي؛ لمتابعة ما يحدث على الجبهة، لم يكن هذا الاجتماع في مكتب المستشارية، ولكنه في مقر قيادة القوات الذي اتخذه «هتلر» مقرًا دائمًا لمتابعة الحرب منذ يوم ٢٣ يونيو ١٩٤١، وكان في غابة قرب قرية «غيرلوز» على بُعد مسافة ٥ كم شرق مدينة رستنبورج الصغيرة، وقد أطلق على هذا الوكر «حجر الذئب» أو «وكر الذئب»، وكان مكونًا من سلسلة من الحصون والمنازل المخفية، حيث كانت أسقفها مغطاة بالعشب ومدفونة في الغابات الكثيفة التي تحميها الأسلاك الشائكة، وتحدُّها حقول الألغام والمواقع الدفاعية.. كان هذا الاجتماع الغرض منه دراسة أحوال القوات على الجبهة، بعدما أصبح وضعهم مزريًا منذ فترة طويلة.

ففي الماضي كانت الهزيمة الألمانية على المحك، فقواته التي كانت منذ سنوات تحارب بريطانيا في الشمال الفرنسي أصبحت متخبطة، بعدما تبادل البريطانيون والأمريكان القصف عليهم، فكان القصف الأمريكي ليلة والبريطاني ليلة، علاوةً على القوات الغارقة في المستنقع الروسي.. واستكمال لمسلسل الهزائم تمكَّن الحلفاء بقيادة بريطانيا وأمريكا، من غزو صقلية الإيطالية، وإسقاط الحزب الفاشي فيها، فيما عُرف بـ«عملية هاسكي»، في ١٧ أغسطس ١٩٤٣، وتعاون الحلفاء مع العصابات الخارجة على القانون هناك «المافيا»؛ أملًا في دعمها لهم خلال الغزو، ورحب الصقليون بالحلفاء المنتصرين، آملين في التخلص من الحزب الفاشي، لتُشعل الثورة هناك ضد «موسوليني»، ويقوم «بييترو بادوليو» بعزله وإعلان الاستسلام التام لقوات الحلفاء.. تم القبض على «موسوليني» بأمر من الملك الشرفي، وكان سجنه عبارةً عن فندق في منتجع للتزلج في أعالي الجبال، ومنذ هذه اللحظة قرر الطليان انسحابهم من الجيش المحوري، ووقتها وصلت هذه الأخبار لـ«هتلر» الذي حزن حزنًا شديدًا، وشعر باختناقٍ شديد مع تزايد ارتجاف كفِّ يده اليسرى.

بعد مرور شهور استمرَّت القوات السوفياتية في قهقرة قوات «هتلر» للخلف بثقة بالغة، ومع دخول صيف ١٩٤٤ استطاعوا تحرير الدول والمدن الشرقية التي قد غزاها مع دخوله هناك.. واستكمالًا للانقضاض على القوة الألمانية التي بدأت سكراتها، في نفس الوقت قرر الحلفاء الغربيون بدء ساعة الصفر لعملية «إنزال النورماندي» في تمام الساعة ٦:٣٠ من يوم الثلاثاء ٦ يونيو ١٩٤٤، وهي عملية تستهدف استرداد ساحل «نورماندي» الفرنسي من قبضة

الألمان، ومن ثم الزحف لتحرير مناطق شمال غرب أوروبا وفرنسا، ثم استهداف ألمانيا ضمن خطة كاملة سُميت بـ«خطة أوفرلورد»، وكانت هذه العملية بمثابة أكبر عملية غزو بحري في التاريخ.. كان من ضمن المباغتات الموضوعة فيها تنفيذ أولي لخطة «الحارس الشخصي»، وهي خطة كانت تهدف إلى تضليل الألمان عن مكان وتاريخ الإنزال، وهذه التضليلات كانت قد استدعت من «هتلر» تعيين ثعلب الصحراء الفيلد مارشال «أروين روميل» في قيادة القوات الألمانية على الشاطئ الأطلسي كله، والذي استطاع في وقتٍ قياسي تطوير التحصينات؛ تحسّبًا للغزو الذي احتاروا في تحديد موعده بالضبط، حيث أمر بوضع العوائق والتحصينات والأسمنت المسلح، وزراعة ملايين الألغام على طول الساحل كله، كما أمر بنشر ثلاثة جيوش كاملة على الشاطئ، فيما يُقارب ١.٥ مليون جندي، ووضعت هذه الجيوش تحت إمرته الشخصية.

كانت هناك أسباب جعلت «هتلر» لم يتوقع الهجوم، من أهمها أن المنطقة شديدة التجمُّد؛ مما جعله يتوقع أن الهجوم سيكون في الشهور الصيفية القادمة، والسبب الآخر أن استخباراته الألمانية قدمت له تقريرًا يفيد بأن الحلفاء لن يقوموا بعمليتهم التي بيَّتوا النية لها، إلا في حالة أن قام السوفييت بشنِّ هجوم مماثل من ناحية الشرق من أجل التشتيت، والجبهة الشرقية هناك كانت هادئة نوعًا ما في هذه الأثناء.. كان الثعلب «رومل» قد وضع خطة نموذجية لصدِّ أي محاولة إنزال يشنها الحلفاء مهما كانت، والتي نصَّت على تحرك أقوى خمس فرق مدرعة قد قام بتدريبهم خصيصًا للوصول إلى نقطة الإنزال أينما كانت في مدة لا تزيد على ٣ ساعات من بدء الإنزال، ثم يتم تلاحم باقي القوات في حركات نظامية معقدة للزج بالعدو في البحر، لكن «هتلر» الذي أصبح غريب الأطوار رفض الخطة بشكلٍ غريب، وأمر بتمركز هذه الفرق بعيدًا عن الشاطئ، وصمم على عدم تحرك هذه القوات مهما حدث، إلا بإشارة شخصية منه هو فقط، مما أغضب «رومل» كثيرًا.

كانت عملية إنزال النورماندي مُقرر تنفيذها في يوم ٥ يونيو ١٩٤٤، وجاء سوء الطقس ليجبر الحلفاء على التأجيل لمدة يوم واحد، ولكن سوء حظهم قد طغى بعدما أظهرت التوقعات الجوية أن غدًا لن يتحسن الجو أيضًا، فأصبحوا في حيرة بالغة، فالتأجيل مرة أخرى قد يتطلب إلى ما لا يقل عن أسبوعين من أجل انتظار ظروفٍ جيدة، وهذا التأجيل قد يمثل خطورة شديدة نحو إتمام العملية، فربما تكتشف الاستخبارات الألمانية أسرار العملية، لاحقًا قرروا بدء الاجتياح كما قُدر له في يوم ٦ يونيو، وبدأ الأسطول الضخم تحركه في مياه شبه مجمدة، وعند قرابة الوصول بدأ السلاح الجوي في القصف المكثف والعنيف القادم من الأساطيل الجوية بحمولاتها المدمرة، والتي انطلقت من القواعد البريطانية لضرب مصانع الإمدادات والوقود والمطارات

الخاصة بالقوات الألمانية، تمهيدًا لعمليات الإنزال البرمائي، كانت العملية تحتوي على أكبر حشد عسكري في التاريخ متجهًا نحو الشواطئ الفرنسية، حيث استطاع الحلفاء حشد ثلاثة ملايين جندي بدعم أمريكي هائل، وكانت العملية التي خطط لها وقادها الجنرال الأمريكي «أيزنهاور»، تحتوي على ٥٠ ألفًا من الدبابات والشاحنات والسيارات النصف مجنزرة وسيارات الجيب، و١١ ألف طائرة قد تم بناء ١٦٣ مطارًا جديدًا لها خصيصًا ببريطانيا، بالإضافة لـ٧ آلاف سفينة، ومليوني طن من العتاد والتموينات.

بعد القصف الجوي بدأت عملية الإنزال في منتصف الليل، ورغم عدم تهيئة القوات الألمانية لهذا الهجوم، إلا أنها أبلت بلاءً حسنًا، وقاومت مقاومة عنيفة أجبرت الفيلق الأمريكي السابع على عدم التقدم لمدة يوم كامل من القتال أكثر من ١٥٠٠ متر عن الشاطئ فقط، وبرغم ذلك اعتبر الحلفاء موقفهم هو موقف القوة بعدما تمكنوا من وضع أقدامهم على الحدود بشكلٍ مؤقت وقد أعلنت لندن بيانًا بهذا بعد ثلاث ساعات فقط.. تدفقت الإمدادات والجنود والعتاد إلى الشاطئ بكميات كبيرة في محاولة للزحف نحو أوروبا المحتلة وتحريرها، واشتملت الخطة على البدء بفرنسا وهولندا وبلجيكا وصولًا إلى احتلال قلب العاصمة الألمانية برلين.. مع حلول اليوم الثاني عشر من الحملة استطاع ٦٠٠ ألف جندي وأكثر من ٩٠ ألف مركبة الوصول للشاطئ، تمهيدًا لتنفيذ العمليات البرية في الداخل، ولكن لاحقًا هدأت المعارك إلى حدٍّ ما على طول الجبهة، بعدما أُرهق الحلفاء من شدة المقاومة النازية الحادة التي سدَّت عليهم الطريق.

برغم هذه المقاومة الحادة إلا أن هناك مجموعة كبيرة في الجيش الألماني قد توقعت أن الهزيمة حتمية، حتى وإن تأخرت قليلًا، وأيقن بعضهم أن الخراب سيحل بالبلاد بفضل لعب «هتلر» بالنار، كانوا جميعًا يعلمون أن كل هذه الحروب أقيمت من أجل «هتلر»، وإن تم إقصاء «هتلر» ربما سينجون، فتمنى الكثير من الضباط الانصراف عن أوامره، بل وتمنى بعضهم قتله، على رأسهم جيش الاحتياط الذي احتوى على مصابي الحملات الخارجية أو من قلص «هتلر» نفوذهم، مما جعلهم جميعًا حاقدين عليه، بالإضافة إلى تسببه في تحقيق الهزائم المتتالية التي أتت بسبب قراراته الديكتاتورية غير المدروسة والمتهورة، والتي تسببت في إزهاق مئات الأرواح من الجنود المخلصين، وتردي أوضاع ألمانيا الداخلية التي أصبحت سيئة جدًّا، فجاءت الفكرة للعديد من القادة والضباط لتكوين حلف، والتفكير في الإطاحة بـ«هتلر» والنازيين، وعقد صلح مع الألمان يقضي بإنقاذ ألمانيا، ووضعوا خطة لِاغتياله عُرفت بعد ذلك باسم «مؤامرة يوليو»، أو «عملية فالكيري»، والتي

أسند تنفيذها إلى الضابط الألماني «كلاوس فون شتافونبرغ»، وهو أحد الضباط المصابين من حملات شمال إفريقيا؛ إثر انفجار لغم في سيارته هناك، وترتب على ذلك فقدانه لعين وفقدان معصمه وإصبعين من يده اليسرى، وبعدها عاد إلى برلين، وتم تعيينه في منصب رئيس أركان الجيش الداخلي..

اتفق قادة الجيش الداخلي الاحتياطي على الخلاص من «هتلر» والنازيين بواسطة «شتافونبرغ»، والذي اقترح عليهم في البداية تنفيذ هذه العملية بشكلٍ انتحاري مضحيًا بنفسه من أجل التأكيد على قتل «هتلر»، لكنهم رفضوا الفكرة، وأقنعوه بأن وجوده بعد الاغتيال سيكون ضروريًّا؛ للتمكن من نزع سلاح الصاعقة، وحل الجمعيات والمنظمات النازية السرية التي كان على علم بها.

كانت الخطة قائمة على اغتيال «هتلر» بمتفجرة مزروعة في حقيبة، خلال اجتماع للضباط الكبار معه في مركز القيادة، لضرب عصفورين بحجرٍ واحد، الغرض الأول: التمكّن من قتل «هتلر» أولًا. والثاني: افتعال وقيعة بين قادة النظام النازي أنفسهم، والادِّعاء بأنهم من قتلوه وقاموا بالانقلاب عليه، وبالتالي يتم تحريك جيش الاحتياط لإنقاذ النظام منهم، واعتقالهم ومحاكمتهم وتصفيتهم، ثم تسلُّم السلطة والتفاوض مع الحلفاء، ولكي تنجح الخطة كان يقتضي وجود معظم قادة القوات الألمانية أثناء التفجير، ما عدا طبعًا جيش الاحتياط ليكون بعيدًا عن الأعين، وبريئًا من الشكوك.

بدأ تنفيذ الخطة في المحاولة الأولى التي وقعت في ١١ يوليو من عام ١٩٤٤، عندما تم استدعاء «شتاوفنبرج» (المتطوع لقتله) لحضور اجتماع «هتلر» في وكر الذئب، فذهب بصحبة مساعده «كلاوزينج»، وكل واحدٍ منهما يحمل حقيبة تحتوي على قنبلة ثقيلة، وفي الخطوة الثانية يقوم «شتاوفنبرج» بتوصيل فتيل قنبلته، ووضعها في أي ركن بقاعة الاجتماع، ثم يتذرع بأي سبب يمكِّنه من الخروج ومغادرة الاجتماع، والإسراع نحو مساعده الذي ينتظره في السيارة متأهبًا للهروب؛ من أجل الفرار إلى المطار، والعودة إلى برلين، وتنفيذ مؤامرة «فالكيري»، والاستيلاء على الحكم، ولكن فسدت الخطة بعدما علم «شتاوفنبرج» بأن «هتلر» لن يحضر الاجتماع من الأساس، ليعود بعدها بالقنابل دون إحداث شيء.. بعد أربعة أيام قرر المتآمرون تنفيذ المحاولة من جديد بنفس الشكل، ولكن للمرة الثانية تم إلغاء اجتماع الفوهرر أيضًا بشكلٍ مفاجئ، لتأتي المحاولة الثالثة والتي فشلت أيضًا بالصدفة، بعدما تعثر المكلَّف بتنفيذ تلك العملية وهو النائب الاشتراكي السابق «يوليوس لبير»، حينما تخبط أثناء نزع فتيل القنبلة، لتغيّر القنبلة اتجاهها تمامًا، وبعد وقوع الانفجار اتصل بقيادة الجيش الاحتياط قائلًا بفرح: «لقد مات هتلر»،

لكن تفاجأ الجميع بنجاة الفوهرر، وكشف الخطة، والقبض على «يوليوس»، لتأتي الفرصة الأخيرة لـ«شتاوفنبرج» الآن وفي هذا الاجتماع الذي يتم التجهيز له، والذي بدأت مراسمه.

قرر «شتاوفنبرج» استعمال قنبلتين من أجل حسم المهمة، فوصل هو ومساعده حاملين القنابل، ولكن بسبب عجزه لم يستطع إدخال القنبلتين، ارتضى بالأمر الواقع حاملًا حقيبة واحدة، واتجه ناحية غرفة الملابس وحطّم كبسولة الحامض، وبعدها اتجه إلى قاعة الاجتماع، وجلس على الطاولة لتبدأ الجلسة، وحين النقاش قام بدسِّ الحقيبة بإحدى الدعائم الخشبية القوية، التي تحمل الطاولة من الجهة الداخلية، لتكون مباشرةً أمام «هتلر» وجهًا لوجه، ثم استأذن بحجَّة عمل اتصال مهم؛ لمتابعة ما يدور في الجيش الداخلي أثناء غيابه، وخرج بعد بضع ثوان، وانفجرت القنبلة، وهرول «شتاوفنبرج» ومساعده ناحية المطار، واتصل هاتفيًا من هناك بالجنرال «أولبرخت» قائلًا بفرح: «لقد انتهى هتلر»، بعدما سمع دويَّ الانفجار في غرفة الاجتماع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢٤)
ساعة الإدراك

اجتمع الناجون الآن حول «هتلر» فاقد الوعي، وهرول آخرون من أجل إنقاذ المصابين في ذلك الحادث، الذي كان القدر فيه رحيمًا بسبب قلة الخسائر..

عاد المغتال «شتاوفنبرج» إلى برلين للاحتفال بنجاحه، إلا إنهم صُعقوا جميعًا عندما علموا بأن الفوهرر نجا، بل وجروحه خفيفة سيتعافى منها في غضون أيام، مما دفع البعض إلى وصف «شتاوفنبرج» بالرجل التعس.

في هذه الأيام أدرك «هتلر» أن أيامه في الحياة أصبحت معدودة، فإن لم يتم قتله من الخارج سيتم من الداخل، فالحلفاء يحاولون غزو بلاده من الغرب، والجيش الأحمر يتقدم من الشرق، أما الداخل فقد زادت فيه المؤامرات.. جلس وهو يتأمل حالته وجراحه، محاولًا عمل تعداد لأعدائه الذين حاولوا قتله على مرِّ سنواته السياسية فوجدهم ألوفًا، فمحاولات الخصوم لقتل «هتلر» وصلت لـ٤٢ محاولة، نعم هذا الرقم صحيح، ٤٢ محاولة، لكن لم تكن منهم محاولات خطيرة سوى ٤ أو ٥ فقط..

كانت البداية في عام ١٩٢١، قبل نحو ١٨عامًا على انطلاق الحرب، عندما كان ظهور الحزب النازي الذي انبهر «هتلر» بأفكاره، يمثل عداوة بغيضة للديمقراطيين والشيوعيين وأنصار الملكية، وكان الاجتماع المنعقد في أحد النوادي قد أثار غضبهم؛ بسبب شعاراتهم العدائية، لتتوقف الخطبة؛ بسبب حدوث شجارٍ كبير، وفجأة تم إطلاق نار على المنصة من مجهول نحو قيادات الحزب وقتها، في المكان الذي يقف «هتلر» فيه، حيث كان من ضمن الموجودين على المنصة، ولحسن حظه نجا من القتل هو ورفاقه.

استرجع «هتلر» محاولة اغتيال أخرى قد تمت في عام ١٩٣٨، أي في عز سلطته ونفوذه، والتي سُميت باسم «مؤامرة موريس»، و«موريس بافاود» كان طالبًا سويسريًّا كارهًا لـ«هتلر» بعدما أقدم على فعل سياساته العنصرية ضد الكنيسة الكاثوليكية.. همَّ بشراء مسدسٍ صغير، وبدأ يتعقب خطوات «أدولف» رغم معرفته بأن حراسته مشددة، وفي يوم ٩ نوفمبر رأى «موريس» أن الفرصة سانحة لقتل «هتلر» أثناء احتفاله مع قياداته النازية في ميونيخ، جلس وسط الجماهير في المدرجات، وعندما قام «هتلر» لإلقاء خطبته على الحضور، همَّ كل الحاضرين برفع أيديهم لأداء تحية «هتلر» الشهيرة، وتسبب ذلك في حجب الرؤية وعدم التمكن من اقتناص رأس

«هتلر»، لينتبه إليه الحضور، ويتم اعتقاله في الحال، وبعدما تم إلقاء القبض عليه قام بالاعتراف، وتم إعدامه لاحقًا.

وأثناء تنفيذ سياسات «هتلر» نحو إقصاء الشيوعيين وسحقهم، جاءت محاولة أخرى في عام ١٩٣٩، من قِبل نجار ألماني شيوعي الهوية يُدعى «جورج إلسار»، والذي حمل في نفسه حقدًا وغلًّا وعداوة لأفكار الحزب النازي، بعد توقعه بأنهم سيجلبون على بلاده الخراب.. بالفعل أحضر قنبلة بمؤقت، وقام بضبطه على موعد وجود «هتلر» لإلقاء خطابه بميونيخ، والمقرر قيامه في الساعة الثامنة من مساء يوم ٨ نوفمبر ١٩٣٩، وتسلل في وقتٍ باكر، وقام بدسِّ القنبلة خلف المنصة، لكن لسوء حظه حدث ما هو غير متوقع، فظروف الحرب أجبرت «هتلر» على تقديم موعد الخطاب ساعة.. حضر «هتلر» وأنهى خطابه في وقتٍ قصير ثم انصرف، ووقع التفجير في تمام الساعة ٩:٢٠ مساءً بعد مغادرة «هتلر» بدقائق، مات بسبب التفجير ٨ أشخاص ممن تبقوا بعد الخطاب، ونجا «هتلر».

تذكر «هتلر» محاولة أخرى قد وقعت في ١٣ مارس من العام الماضي ١٩٤٣، من أحد رجاله المخلصين الجنرال «هينينغ فون»، حينما قام هو وأخوه بتسليم زجاجة تحتوي على «حلوى البراندي» للوفد المرافق لـ«هتلر»، كأنها خدمة خاصة لهما يتطلب توصيلها إلى أحد أصدقائهم في برلين.. حلّقت طائرة «هتلر» ووفده وعلى متنها الحلوى التي كانت في الحقيقة عبارة عن زجاجة تحتوي على قنابل متفجرة صغيرة، ستنفجر فور بعد نصف ساعة من الإقلاع، ولحسن الحظ لم تنفجر الزجاجة؛ بسبب أن الفتيل تالف!، اعتقد الأخوان أن أمرهما قد انكشف، لكن المحاولة مرَّت على الجميع دون انتباه، واستمر «هينينغ» الخائن في خدمته للجيش، حيث سافر بعدها إلى شرق أوروبا؛ لإكمال المواجهة مع الجيش السوفياتي، ونال ميدالية «صليب الفرسان» لبسالته، لكنه انتحر اليوم بعد علمه بفشل محاولة الاغتيال الأخيرة، ونجاة «هتلر»، واعترافه بقصة حلوى البراندي خطيًّا.

أصبح الفوهرر الآن مدركًا أن الجيش الألماني أصبح ممتلئًا بالكثير من الخونة، غير مدرك أن لديهم إيمانًا شخصيًّا بوطنيتهم، التي رأوا أنها تقتضي بوجوب إنقاذ ألمانيا من يده المخربة.. وفي الماضي القريب كان هناك محاولة اغتيال أخرى لم يعلم بها «هتلر» حتى هذه اللحظة، والتي كانت قد وقعت منذ أربعة شهور فقط، ففي يوم ٢١ مارس ١٩٤٣، حاول الضابط «رودولف فون جيرت»، القيام بعملية انتحارية والتضحية بنفسه، بعدما خطط هو ومناصروه لاغتيال «هتلر» في معرض «برلين العسكري» المخصص لضمِّ الأسلحة والرايات السوفياتية التي وقعت في الأسر.. كان «رودولف» مرشدًا في تلك المعرض يقوم بشرح نوع ومواصفة كل سلاح موجود، وقام بوضع قنبلة تحت

سترته قبل وصول «هتلر» مباشرةً، وعندما وصل وفد الفوهرر ألصق نفسه به وبدأ في شرح المعدات، لكنه تفاجأ بانصراف «هتلر» مسرعًا بعد دقائق معدودة، فذهب «رودولف» إلى الحمامات وقام بإبطالها، والآن أيضًا قد انتحر مثله مثل العديد من المتآمرين الخائفين من انتقام «هتلر» بعدما كشف جبهتهم.

كان «هتلر» يتوقَّع موته غدرًا منذ اليوم الأول لدخوله في السياسة، وكان دائمًا يتوهم أن أعداءه سيقومون بالتخلص منه بالسمّ، وهذا التوهم كان سببًا كفيلًا في تعيين السيدة «مارجوت فولك»، بمهنة تذوُّق طعام «هتلر» قبل تناوله له؛ بغرض التأكد من عدم وجود أي سمٍ فيه، كانت تعرِّض نفسها للخطر في هذه المهنة الخطيرة، علاوةً على أنها كانت تكره ذلك الطعام الذي يحبه هذا الرجل، فطعام «هتلر» كان نباتيًّا بشكلٍ دائم، وبالذات في الفترة الأخيرة؛ بسبب الشائعات المستمرة حول رغبة الإنجليز في قتله بالسمِّ، ليقرر الابتعاد عن اللحوم بشكلٍ تام.. والسيدة «فولك» كانت واحدة من ضمن ١٥ فتاة شابة، كن يعملن في حراسة مشددة بخدمة «هتلر» في وكر الذئب في هذه الفترة، دون أن يلتقين به شخصيًّا أو يرينه، وقد شغلت هذه الوظيفة قسرًا عن طريق الصدفة، عندما لجأت لإحدى البلدات البروسية؛ بسبب تجنيد زوجها بالجيش، فأجبرها رئيس البلدية على شغل هذه الوظيفة.

رغم إدراك «هتلر» في هذه الساعة أن موته ربما يكون قد اقترب، قرر ألا يستسلم لأعداء الخارج والداخل، وازدادت الرعشة الموجودة في يده بشكلٍ واضح، وأصبح الفوهرر أكثر غرابةً وتخبطًا.. بعد قليل استفاق «هتلر» واستعاد صلابته فجأة، وأصدر أوامره بشن عملية انتقام وحشية، وملاحقة كل الخونة والمتآمرين داخل جيش الاحتياط، وجاء عقاب الخائنين بالحكم على «شتاوفنبرج» الذي فجَّر القنبلة بالإعدام رميًا بالرصاص، والحكم على ٢٢ جنرالًا بالإعدام شنقًا، علاوةً على انتحار ٥٨ جنرالًا آخرين قبل تمكين «هتلر» للنيل منهم أمثال من سبقوا.. كان من ضمن المتهمين ثعلب الصحراء «إرفين رومل»، الذي تم اعتقاله بعد العودة لبلاده بتهمة التآمر على حياة «هتلر» بعد أن ثبت ضلوعه في مؤامرة ٢٠ يوليو، وخيَّره الزعيم النازي بين أكثر من خيار؛ نظرًا لمنصبه الحساس، أول خيار: تناول السم والموت منتحرًا، والإعلان عن وفاته متأثرًا بجراحه ليحتفظ بشرفه العسكري، والخيار الثاني: أن يظل حيًّا ويقدَّم إلى محكمة الشعب بتهمة الخيانة، فاختار الأولى، وانتحر في ١٤ أكتوبر ١٩٤٤ بابتلاع حبة سيانيد سامة.

واستمرَّت حملة الانتقام في التوسع؛ لتنال من كل الأصوات التي ظهرت للمعارضة مؤخرًا، ليقوموا بإعدام أربعة آلاف وتسعمائة شخص، وإعدامهم تم

بالطريقة النازية الخاصة، وهي الاختناق بالغاز السام، أو الحرمان من غاز الأكسجين، أو عن طريق التجويع الحاد.. في نفس الوقت أمر «هتلر» بالتكثيف في عملية «الحل الأخير» و«معسكرات الإبادة»، وعدم التوقف عنهما برغم تقدم الحلفاء والسوفيات لتحرير المناطق التي وُضعت لتنفيذ تلك العمليات، لم تكن هذه العمليات قائمةً لإبادة المعارضين ولا حتى اليهود فحسب، بل تمثلت في الإبادة الجماعية لشعب الغجر الروم، والأسرى، وغيرهم من مختلف الأطياف والأسلاف، وجاءت هذه العمليات كإضافة لعملية «القتل الرحيم» أو (T.R) التي استهدفت المعاقين وغير الأسوياء.

كان قد بدأ النازيون بالتخطيط لعملية الحل الأخير منذ عام ١٩٣٣، حينما شنَّت الحكومة هجماتها على المتاجر والمخازن اليهودية، وأطلقت دعاية لمقاطعة اليهود (كما ذكرنا فيما سبق عدد الخسائر والنتائج)، وحينها كان اليهود قد بلغ تعدادهم نحو تسعة ملايين مواطن في أوروبا كلها، ومع بداية الحرب العالمية أو تحديد بداية غزو «هتلر» لبولندا، بدأت عمليات الإبادة ضدهم في كل مدينة يدخلها الألمان، بالإضافة لما يحدث بداخل ألمانيا، وبرغم أن اليهود كانوا هم المقصودين من العنصرية النازية منذ بدايتها حتى المراحل الأخيرة، والتي سُميت تاريخيًّا بـ«الهولوكوست» إلا أن النازيين قاموا بإبادة ما يقارب ٢٠٠ ألف غجري وفقًا لسياسة الحل الأخير، بالإضافة إلى ٩٠٪ من يهود بولندا، وترحيل أكثر من ثلثي السكان اليهود الأوروبيين الذين نفذوا فيهم خطة الترحيل القسري المنظم إلى معسكرات الأعمال الشاقة؛ بهدف القضاء عليهم وإبادتهم، كان غالبية هذه المعسكرات في بولندا، أشهرهم «معسكر أوشفيتز»، و«معسكر بلزاك»، و«معسكر جيلمنو»، و«معسكر ماجدانيك»، و«معسكر سوبيبور»، وهناك مصادر قد أوضحت أن عدد الضحايا اليهود فقط في تلك المعسكرات والمحارق بلغ ٦ ملايين إنسان، وهناك مصادر أخرى قد شككت في مصداقية العدد، إلا أن الهولوكوست نفسه أصبح حدثًا حقيقيًّا تم إثباته، وأضف إلى ضحايا الهولوكوست نحو ٢٠٠ ألف آخرين من المعاقين ذهنيًّا وفق لسياسة «القتل الرحيم»، التي تم إيقافها رسميًّا بأمر من «هتلر» في ٢٤ أغسطس عام ١٩٤١؛ بسبب النقد الشعبي المتزايد عليها، لكنها لم تنتهِ، بل استمرت بشكلٍ سري.

ومشروع خطة الحل النهائي كان قد تم تنفيذه بشكل ممنهج وتنظيمي منذ يوم ٢٠ يناير ١٩٤٢ على عكس ما كان يتم قبل ذلك من عشوائية، وكانت خطة التنفيذ الفعلية قد وُضعت في ذلك اليوم بناءً على التوصيات التي خرجت من مؤتمر الحزب النازي، الذي انعقد في «وانسي» غرب برلين، بعدما تم النقاش حول البحث عن آليه تمكِّنهم من إبادة يهود أوروبا بشكلٍ منظم، ووفق لسياسة وخطة موضوعة، بدلًا من سياستهم القديمة التي كانت

تحثَّ اليهود على مغادرة ألمانيا فقط، خصوصًا بعد إلغاء «خطة مدغشقر»، ففي هذه الأثناء كان الألمان متقدمين ناحية غزو أوروبا كلها، فإلى أين سيغادر اليهود؟ خصوصًا أن جيش المحور فقد السيطرة على شمال إفريقيا والشرق الأوسط، فمن الأحرى إبادتهم، وخطة مدغشقر كانت عبارة عن مقترح قديم كان قد وضعه الألمان في يونيو عام ١٩٤٠ بغرض نقل السكان اليهود من أوروبا إلى جزيرة مدغشقر، باقتراح من «فرانز راديماخر» رئيس قسم اليهود في وزارة العلاقات الخارجية في الحكومة النازية.

خرج هذا المؤتمر ليبرر أن تلك البنود الخاصة بعملية الحل الأخير، تعتبر فلسفة نازية راقية ومتحضرة؛ للتخلص ممن اعتبرتهم تحت البشر، وكرروا مرة أخرى شعاراتهم التي تبرز أن عرقهم الآري أسمى من الأعراق الأوروبية كلها كالغجر واليهود والسلافيين، وأن عرقهم النقي وحده يستحق أن يحكم العالم، كما أضافوا في بنودهم أن الأشخاص الملوثين في العرق الآري نفسه يجب التخلص منهم، كالمعاقين والشيوعيين والديمقراطيين والمعارضين، علاوةً على المثليين جنسيًّا، وبموجب هذه البنود في السنوات الماضية تمكنوا من قتل ١٠٠ ألف شيوعي ونحو ٢٠ ألف مثلي، ونحو ألفي شخص من «شهود يهوه» (هي طائفة مسيحية لاثالوثية، لا تعترف بالطوائف المسيحية الأخرى)، و ٢٠٠ ألف غجري، بالتوازي مع تنفيذ عملية «القتل الرحيم» التي نفذت الإبادة في نحو ٣٠٠ ألف شخص من المعاقين والمرضى نفسيًا وأصحاب العاهات المستديمة.

أدرك «هتلر» في هذه الساعة أن نهايته أصبحت وشيكة، خصوصًا مع نهايات هذا العام ١٩٤٤، حيث تداعت عليه الأكلة، بعدما فقد الجيش الألماني ما بين يونيو وسبتمبر ١٩٤٤ الكثير من خيرة الرجال، والذين وصل عددهم إلى أكثر من مليون جندي، بالإضافة إلى نفاد الوقود والتموين والذخيرة بشكلٍ تام، ولكن «هتلر» قرر بقاء القوات على الجبهة، على الرغم من نصائح مستشاريه والتماساتهم، والآن قد وصلته تقارير مرعبة بأن الجبهة الغربية على حافة الهاوية، بعدما تمكَّنت قوات الحلفاء المستمرة في القتال الذي موَّلته أمريكا بحسم الموقف في المعارك الواقعة على شواطئ الأطلسي، منذ نحو ستة أشهر في الجبهة الغربية بعد بداية عملية إنزال النورماندي، وكان الطقس عاملًا سلبيًّا كبيرًا في تغير مجريات الحرب ضد الحلفاء، وفي محاولاتهم لتحدي الظروف كثف الأمريكان هجماتهم في معركة «غابة هورتجين» من سبتمبر ١٩٤٤ حتى فبراير ١٩٤٥، ولكن دون جدوى؛ فقد عجزوا عن التقدم بعد أن صمد الألمان بشكلٍ بارز، ولكن عندما قامت القوات الألمانية بشنِّ هجوم مضاد في ١٦ ديسمبر عام ١٩٤٤ وهي «معركة الثغرة» انكشف خط الدفاع الألماني، برغم استسلام بعض الوحدات الأمريكية في البداية.. بعد قليل تمكَّن الحلفاء من تغيير مجريات الأمور، لتكون هي آخر حرب رسمية

بينهما في ٢٧ يناير عام ١٩٤٥، وبعدها استطاع الحلفاء الانتصار عند نهر الراين، والذي تم تجاوزه في مارس عام ١٩٤٥، ثم تم فتح الطريق إلى قلب ألمانيا بعد محاصرة آخر القوات الألمانية في «روهر».. الآن وبعض تحقيق انتصاراتهم هناك قرروا تقدم واجهاتهم صوب ألمانيا، بالإضافة إلى روما، أما من الناحية الشرقية فقد طغى عليها التقدم الخطير للجيش السوفياتي، الذي تمكَّن من حسم انتصاراتٍ كبيرة في معركة الشرق، وتمكَّن من إجبار الألمان على التراجع إلى أوروبا الوسطى.

بعد كسب المعارك الأخيرة، بدأ الجيش الأحمر نحو خطوةٍ جديدة، كان هدفها ردَّ الغزو بغزو، وأصبح لا يحوله شيء الآن عن سحق ألمانيا.. بدأ في شن هجوم منظم منذ يوم ١٢ يناير، أطلق عليه اسم عملية «فيستولا - الأودر»، والذي تم تجهيزه من «وارسو» في قلب بولندا عابر نهر «ناريف»، وبدأ الزحف لمدة ثلاثة أيام دون وجود قوات هناك؛ للتمكَّن من صدِّ هذا الهجوم العريض المكون من ٤ جيوش محملة بالمعدات الثقيلة، ثم بدأ الجيش الأحمر بالتحرك غربًا بسرعة ٣٠ إلى ٤٠ كيلومترًا في اليوم تقريبًا، ليمر من دول البلطيق وشرق بروسيا، زاحفًا على خط يبعد ٦٠ كم عن شرق العاصمة برلين، في هذا الأثناء وصلت الأخبار لـ«هتلر»، لتصيبه حالة هلع في انتكاسةٍ جديدة، وأدرك في هذه الساعة أن نهايته ونهاية بلاده في غضون أسابيع قليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢٥)
ساعة السقوط

الآن ومع الساعات الأولى من صباح ٢٩ إبريل ١٩٤٥، كان «هتلر» على موعدٍ مع انتكاسة جديدة، حيث عاد زمن الانتكاسات، لكن هذه المرة ربما تكون هذه أسوأ انتكاسة في تاريخه، فلقد حاصر السوفيات العاصمة برلين، والآن هو مختبئ في قبوه، وأصوات القصف تصله من كل اتجاه.. كان هذا نتاجًا متوقعًا لنجاح الغزو السوفياتي المنظم البادئ منذ ١٢ يناير.

في الماضي أثناء زحف السوفيات من الشرق والحلفاء من الغرب، كان «هتلر» يحثُّ قواته المتراجعة على الصمود، وعلَّق أماله على مجموعة الجيوش المتحدة حديثًا من نخبة القوات الألمانية، تحت قيادة المخضرم «هاينريش هيملر»، والتي تقاتل من أجل صد حملة «فيستولا - أودر» السوفياتية والطامعة في غزو ألمانيا.

كانت الحملة السوفياتية مكونة من ثلاثة جيوش تضمّ ٢.٥ مليون رجل، و٦.٢٥٠ دبابة و٧.٥٠٠ طائرة و٤١.٦٠٠ قطعة مدفعية ومدافع مورتر، و٣.٢٥٥ عربة تحمل منصات إطلاق «صواريخ كاتيوشا»، بالإضافة إلى ٩٥.٣٨٣ عربة عسكرية، وكان «ستالين» قد وضع خطة تعتمد على الهجوم على وسط ألمانيا (ألمانيا الشرقية حاليًا) وليس الأطراف؛ بهدف السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي، وكان الهدف الأهم هو السيطرة على العاصمة برلين نفسها، تيقن منه أن مؤسسات الرايخ تحتوي على وثائق سرية بخصوص «برنامج ألمانيا النووي»، حيث كانوا قد قرروا تصنيع القنبلة الذرية.. قام «هتلر» بوضع مجموعة تغيرات جديدة للقادة العسكريين من أجل التحضير لصد الغزو، واستدعى اللواء «غوتهارد هاينريكي» لقيادة مجموعة جيوش فيستولا، وذلك بسبب أنه كان من أعظم المخططين الدفاعيين في الجيش الألماني.

كان «هاينركي» قد أقام مجموعة خطط دفاعية مميزة، وكان من توقعاته أن الهجوم السوفياتي سيتم من ناحية نهر الأودر، وعلى طول الطريق الرابط بين شرق وغرب ألمانيا (وهو ما خطط له «ستالين» بالفعل)، وقام «هاينريكي» بوضع خطة للدفاع عنوانها «عدم الدفاع عن ضفاف نهر الأودر»، وترك هناك مجموعة صغيرة من القوات لعمل مناورات ومناوشات، وأبدل الدفاع عن النهر بعمل تعلية كبيرة لمرتفعات سيلو المشرفة على النهر، في موقع يعبره الطريق السريع على بعد ٩٠ كم من شرق برلين، وأمر بوجود

القوات الدفاعية بشكل تحصيني على هذه المرتفعات، ثم أمر المهندسين ببناء ثلاثة حصون دفاعية مترابطة على شكل حزام خلف النهر، وصل طول هذه التحصينات إلى أطراف برلين، وحُفرت شبكة من الخنادق بداخل هذه التحصينات تم تدعيمها بمدافع مضادة للدبابات، وبعد كل ذلك أمر المهندسين بتحويل نهر الأودر إلى مستنقع لا يمكن تخطيه، بعد تصفية مياهه وتحويلها في خزان مائي بعيد.. تمت كل هذه الأفعال الإعجازية في وقتٍ قياسي، ولكن أثناء الانشغال سقطت «كونغسبيرغ» بشرق بروسيا في يد السوفيات في يوم ٩ إبريل، وحينها تحركت الجيوش السوفياتية غربًا ناحية نهر الأودر، وتم التعامل مع كل القوات الألمانية على طول نهر الأودر من فرانكفورت جنوبًا إلى بحر البلطيق أمام مرتفعات سيلو.. عند الوصول للمرتفعات توقفت القوات السوفياتية من أجل تجميع الثلاثة جيوش، وحينها تمكنت القوات الباقية في الجيش الألماني من خلق ثغور بينهم والتمكن من الفرار والتجمع قرب دلتا الفيستولا؛ استعدادًا للانضمام لقوات الدفاع خلف المرتفعات.

في هذه الأثناء تجددت الآمال بالصمود عندما علم «هتلر» بوفاة الرئيس الأمريكي «فرانكلين روزفلت» (الذي كان إضافة حقيقية لجبهة الحلفاء) في ١٢ إبريل، ليُمني نفسه بأن رحيل فرانكلين المخطط الرئيسي للزحف الغربي ربما سيُحدث انشقاقًا محتملًا في صفوف الحلفاء، مما يعطيه أملًا جديدًا في نجاة بلاده، يُطلق على هذا الأمل «معجزة البراندينبرغ».. بعد انتعاش معنوياته أعطى «هتلر» أمرًا لقوات «هيملر» بقطع الزحف السوفياتي، وشنِّ هجوم مضاد من أجل إيقافهم في يوم ٢٤ إبريل، ولكن فشل الهجوم، وتمكَّن الجيش الأحمر من الوصول إلى «بوميرانيا» على الحدود الألمانية، بعد تأمين الضفة اليمنى لنهر الأودر ووصولًا إلى «سيليزيا» كاختراقٍ رسمي للحدود الألمانية.

تمكَّنت القوات السوفياتية من ضرب ضواحي مدينة برلين، حينها استشعر النازيون اقتراب الخطر، وعرضوا على «هتلر» الفرار إلى جبال بافاريا، حيث تجمعت هناك القوات الفارَّة من أجل إعادة الترتيب، لكنه رفض الطلب، وصمَّم على المكوث في بلده حتى لو استدعى الأمر موته.. في هذه الأثناء توقف بالفعل الحلفاء عن الزحف قليلًا، وليس السبب موت «فرانكلين»، ولكنهم قد استشعروا أن الدب الروسي يُعتبر قد تمكَّن من دخول ألمانيا، فلا داعي للتضحية بأرواح الأمريكان، أو التشتت وضرب القوات الغازية بعضها للبعض بالخطأ، لكنهم قرروا مساعدة السوفيات بسلاح الجو البريطاني والأمريكي فقط، لتُشنّ الغارات الليلية العنيفة، والتي توقفت في يوم ٢٠ إبريل عندما بدأ السوفيات في إدخال قواتهم البرية، ٢٠ إبريل هو عيد ميلاد «هتلر» السادس والخمسين، والذي احتفل به في «القبو»، وهو المقر الخاص والأخير للفوهرر، والذي سكنه منذ يوم ١٦ يناير عندما علم بزحف السوفييت والحلفاء، كان القبو حصنًا وملجًا صُمِّم خصيصًا كمركز قيادة لجيوشه، وكان

ضمن المجمع المحصن الواقع تحت سطح الأرض قُرب حديقة مكتب مستشارية الرايخ في برلين.

قام قائد «حصن بريسلو» الجنرال «هيرمان نيهوف»، بتوزيع الشيكولاته على القوات المحاصرة؛ احتفالً بذكرى ميلاد الفوهرر، وفي هذه الأثناء قرر الجيش السوفياتي المشاركة في الاحتفال، فقامت الجبهة البيلاروسية الأولى في الجيوش السوفياتية بقصف وسط برلين، ولم يهدأ القصف إلا بعد أن أعلنت المدينة استسلامها بالفعل.

وفي اليوم التالي، تمكَّنت القوات البيلاروسية الأولى من دكِّ الدفاعات والتحصينات العسكرية عند مرتفعات «سيلو» التي وضعها اللواء «هاينريكي» بالكامل، ليقرروا الدخول إلى برلين ومبنى الاستشارية والبحث عن «هتلر».. أصدر «هتلر» قرارًا متخبطًا جديدًا، وأمر القوات التي يقودها الجنرال «فليكس شتاينر» بالتحرك للنجدة، ومهاجمة الاختراق الذي وقع في الجناح الشمالي من خط الدفاع الألماني الذي نجحت القوات السوفياتية في اختراقه، وكانت قوات هذا الجيش محدودة جدًّا وتعتبر بمثابة فيلق غير قادر على تنفيذ هذه المهمة الخطيرة، ثم أصدر «هتلر» أمرًا إلى الجيش التاسع الألماني بالتحرك من جنوب منطقة الاشتباك هناك، إلى مهاجمة الشمال؛ طمعًا في تنفيذ خطة الكماشة، ولكن بالنسبة للقادة المقاتلين رأوا أن هذه الخطة ساذجة، وستؤدي للتضحية بالقوات، وكشف جميع الخطوط أمام العدو، وأجرى «هاينريكي» قائد القوات الدفاعية اتصالًا مع «هانز كربس» قائد القيادة العليا للجيش، لكي يشرح له خطورة هذه الخطة، وإعلانه بأنها غير قابلة للتنفيذ، وطلب منه أن يتحدث إلى «هتلر»، ولكن «كربس» ردَّ عليه قائلًا: إن الفوهرر مشغول للغاية، ولا يستطيع أن يتلقى أي اتصالات الآن.

في صباح اليوم التالي ٢٢ إبريل، اجتمعت القادة مع «هتلر» في القبو لتقييم الأوضاع العسكرية، وعندما أخبروه بفشل المقاومة في اليوم السابق، ظهر الفوهرر في أسوأ حالاته على الإطلاق، كان عصبيًّا صارخًا، أنفاسه متقطعة، عيونه دامعة، وأعلن أنه لن يستسلم، وسيظل هنا حتى موته.. صمت الجميع كتعبير عن عجزهم عن تقديم أي حلول للأزمة، حتى تلفَّظ اللواء «ألفريد يودل» فجأة، وأخبرهم بأنه يملك حلًّا، وبعدما انتبه إليه «هتلر» قال إنه يقترح سحب الجيش الثاني عشر الألماني من الغرب للقدوم إلى برلين والدفاع عنها، وقال: ما الفائدة من بقائهم هناك بعدما ظهر أن الأمريكان لن يتقدموا أكثر من مواقعهم التي امتلكوها على «نهر الألبه».. وافق «هتلر» على هذا المقترح الذي ظهر بمثابة نجاة، وأعطى أوامره للجبهة الغربية القابع فيها الجيش الثاني عشر بفك الاشتباك هناك، وتحريك الجيش كله للتوجه إلى

برلين؛ ليكون مددًا يُعزز موقف الجيش التاسع بشرط اتجاهه جهة الغرب لكي يلتحموا سويًا.

في الحقيقة الألمان كانوا يجتمعون، والسوفيات يتقدمون، محققين في كل دقيقة انتصارًا فعليًّا، ففي هذه الأثناء تمكَّن الجيش البيلاروسي الثاني من إنشاء جسرٍ على الضفة الشرقية لنهر الأودر، واستطاع عبور مسافة ١٥ كم في وقتٍ سريع، لتبدأ معركة جديدة مع المتبقي من جيش الدبابات الثالث انتصر هو فيها، ومن ثم انتصر على الجيش التاسع بعد اختراقه من الناحية الشرقية، ثم زحفت الدبابات السوفياتية إلى الداخل متجهةً إلى شرق برلين، وبعد الاشتباك تمكَّنت من اختراق الدبابات الواقفة لتحصين برلين من الداخل.

مع صباح اليوم التالي ٢٣ إبريل، حاصر الجيش السوفياتي برلين، وضيَّق عليها الخناق، وقطع الاتصال بين الجيش التاسع (الذي انتظر تعزيزات الجيش الثاني عشر القادم من الغرب) والعاصمة، وبعد كشف الخطة تحركت قوات من الجيش البيلاروسي الأول ناحية الغرب، لقطع الطريق على الجيش الثاني عشر القادم لبرلين من أجل التعزيز، واستطاعت قطع اتصالاته بعدما اشتبكت معه، ومع حلول صباح اليوم التالي ٢٤ إبريل تدفقت أعداد غفيرة من القوات البيلاروسية الثانية بعدما التحمت مع القوات الأوكرانية الأولى التي حققت نجاحات واضحة خلال الأيام التسع الأولى للمعركة، حيث تمكنت فيهم من احتلال مساحات واسعة جنوب وجنوب غرب برلين، ثم التحمت معهم في نفس الأثناء عناصر الجبهة البيلاروسية الأولى غرب برلين، بعدما انتصرت على الجيش الثاني عشر الألماني القادم من الجبهة الغربية، لتكتمل حلقة حصار المدينة في سيناريو محكم.

في هذه الأثناء، كان «هتلر» على موعدٍ جديد لتلقي خيانة جديدة، جاءت من رجله الأول، والرجل الثاني في حكومة الرايخ الثالث وقائد القوات الجوية «هيرمان جورينج»، والذي فرَّ مع فلول القوات الهاربة إلى منطقة «بيرتشتيسغادين» في جبال بافاريا، حيث كانت مجمعًا للقوات الفارة، وأرسل برقية قال فيها: «إنه بعد أن تم حصار «هتلر» في برلين، فإنني أطالب بتولي حكم ألمانيا خلفًا له، بموجب أنه كان قد اختارني لتولي هذا المنصب خلفًا له من قبل»، وأوضح «جورينج» أنه «بعد وقتٍ بسيط سيُعتبر «هتلر» غير مؤهل للبقاء في الحكم».. أصيب «هتلر» باختناق شديد بعد هذا الخطاب، وقال في حنقٍ تام: «أصدرت قرارًا بالقبض على جورينج»، وقرر «هتلر» إعفاء «جورينج» من أي مناصب إن تم قتله فرضًا، وقرر أن يكتب هذا في وصيته.

عند بزوغ فجر اليوم التالي ٢٥ إبريل، كان السوفيات قد تمكنوا فعلًا من السيطرة على مداخل ومخارج العاصمة شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، وبدأوا في ضرب الدفاعات الألمانية الأساسية بها، ومحطات القطار والأنفاق، وقاموا بشل المدينة كليًّا.. استمرت مجموعات متبقية بسيطة تدافع عن المدينة، في محاولة بسيطة لتأجيل اقتحامها رغم استحالة الصمود، فجميع المعارك الحاسمة قد ربحها السوفيات بالخارج.

وفي اليوم التالي ٢٦ إبريل، أعلن «هتلر» عدم الاستسلام، وقام بإعفاء اللواء «غوتهارد هاينريكي» قائد مجموعة جيوش فيستولا من منصبه؛ بسبب عصيانه لأوامر «هتلر» بعدم التراجع، والدفاع عن برلين بأي ثمن، وتم إبداله باللواء «كورت شتودنت»، ثم قام «هتلر» بتعيين لواء المدفعية «هيلموت فايدلينغ» كقائد لمنطقة برلين الدفاعية، الذي بدأ في محاولة لمِّ شتات القوات، واستدعاهم للحشد في برلين، لم يستطع سوى القليل من القادمين دخول المدينة، بالإضافة إلى مجموعة من القوات الأجنبية على رأسهم القوات الفرنسية التابعة لحكومة فيشي التابعة للألمان، وكانت هذه الوحدات الأجنبية تقاتل بشراسة بجانب الألمان؛ لأنها كانت ذات عقيدة ومبدأ، وفي نفس الوقت كان يجب عليهم المقاومة لتفادي الوقوع في الأسر.. تسلم «فايدلينغ» قيادة كل القوات المتبقية والوافدة، حتى بلغ عدد قوته نحو ٤٥ ألف رجل، مدعومين بقوات الشرطة والصبيان الصغار التابعين لـ«منظمة

تجمَّع حولهم الناس وانهالوا عليهم بالسباب والبصق والرمي بالقاذورات، لدرجة أن المواطنين أحضروا بعض الأسلحة النارية، وقاموا بإطلاق النيران عليهم وركلوهم بالأقدام.. أما في باقي المدن فقد تلقى الفاشيون نفس المصير، وبعد القتل وُضِعت جثثهم في سيارات نقل، وتجولت بهم في شوارع ميلانو.. عندما وصلت هذه الأخبار لـ«هتلر»، زاد تصميمه على عدم الاستسلام؛ حتى لا يقع في الأسر، ويواجه نفس عاقبة «موسوليني»، وبعد الانتهاء من التوقيع على وصيته الأخيرة انصرف هو وزوجته الجديدة إلى غرفة نومهما.

في هذه الساعة من فجر يوم ٣٠ إبريل كثف السوفيات هجماتهم من الجنوب الشرقي، واستمروا في الاشتباك مع قوات المقاومة العنيفة، حتى تمكنوا من اقتحام مبنى «الجيستابو» (البوليس السري الألماني)، ولكن بعدها اشتدت المقاومة من قبل فرقة النخبة النازية، فتراجع السوفيات، وتركوا المبنى.. في نفس الوقت تمكَّن السوفيات من إعادة بناء الجسور المحطمة، لتتسلل المدفعية لشوارع برلين في مشهدٍ مخيف ومهيب للمواطنين.

في نفس اليوم وفي تمام الساعة السادسة صباح بدأ السوفيات في محاولة احتلال مبنى «الرايخستاج» (مبنى البرلمان القديم) الذي لم يُستخدم منذ

حريقه في عام ١٩٣٤، ودارت معركة احتلاله طوال النهار؛ بسبب الخنادق والحصون الموجودة حول المبنى، بالإضافة إلى مقاومة النخبة النازية المستمرة في المقاومة، وبسبب مساعدة ما تبقى من المدافع الألمانية المضادة للطيران المثبتة في حديقة حيوان برلين على بعد ٢ كم، دخلت القوات السوفياتية للمبنى بصعوبة، واشتبكت مع قوات المقاومة الألمانية داخل هذا المبنى المهجور من غـرفة إلـى غرفـة، في حـرب شوارع (ستستمر ليومين كاملين)، أما باقي القوات السوفياتية فقد تدفقت داخل المدينة بعد اقتحامهم لخطوط المقاومة الدفاعية، وتراجع المدافعون الذين لم يبقَ منهم غير نحو ١٠ آلاف مقاتل، وتمركزوا في منطقة صغيرة في وسط المدينة، ثم تمت مهاجمتهم من جميع الجهات في حالة تشبه بسيناريو النهاية..

زحف السوفيات وأصبحوا على بُعد ٥٠٠ متر من قبو الفوهرر، في هذا الوقت كان «هتلر» قد أنهى مقابلته مع «فايدلينغ» قائد منطقة برلين الدفاعية الذي أعرب عن أسفه؛ بسبب أن حامية برلين ستنفد ذخيرتها هذه الليلة، وطلب من «هتلر» السماح له بالهرب، فلم يجبه «هتلر»، وتركه وانصرف، فانصرف «فايدلينغ» إلى مقر القيادة، ومع قدوم الساعة الواحدة ظهرًا تلقى اتصالًا من «هتلر» يسمح له بالهرب هذه الليلة.

تناول «هتلر» حينها غداءً خفيفًا مكون من مكرونة إسباجتي، ثم لفَّ على سكان القبو (المكون من عائلة «جوبلز»، وعائلة «بورنان»، والعديد من ضباط الجيش وعائلاتهم) وقال لهم في هدوء: «أتمنى لكم حظًّا سعيدًا»، ثم في تمام الساعة الثانية والنصف بعد الظهر دخل مع زوجته «إيفا» مكتب القيادة، وبعد مرور ساعة سمع سكان القبو صوت طلقة مسدس في تمام الساعة الثالثة والنصف.

هرول «هاينز لينغه» ومعه «بورمان» نحو باب المكتب، ووجدا الزوجين جالسين على أريكة صغيرة كان «هتلر» ناحية اليمين وتحت قدميه مسدسه «فالتر عيار ٧.٦٥ مل»، ومن ناحية اليسار كانت زوجته مائلة في الاتجاه المعاكس، ووجدوا رصاصة في الجانب الأيمن من رأس «هتلر»، مع وجود جرحٍ ناتج من خروج الرصاصة من يسار رأسه مائلًا ناحية الأعلى، بالإضافة لوجود بقايا كبسولة سيانيد خارجة من فمه، كانت دماء الفوهرر تسيل من جانب رأسه، وقد غطت الأريكة ووصلت إلى أرضية الغرفة، بينما لم يجدوا أي جروح لدى «إيفا» التي بدا أنها ماتت بعد ما سممت نفسها.

حمل «لينغه» خادم «هتلر» الوفي ومعه بعض رجال الحرس الخاص جثة الفوهرر، واتجهوا نحو مخرج الطوارئ، الذي يطل على حديقة صغيرة وراء

مبنى المستشارية، والتي وصلتها نيران القصف السوفياتي في هذه اللحظة، ورش لينغه والحراس الزوجين بالنفط، وقاموا بإشعال النار في جثتيهما، وفي هذه اللحظة بالضبط وصلت القوات السوفياتية للمكان قبل أن تشتعل النيران في الجثتين تمامًا، فأطفأ «لينغه» النيران فجأة ليحاول إخفاء الجثتين؛ حتى لا يتمكن السوفيات من أخذهما والتمثيل بهما، وبالكاد قاموا بإخفائهم في فجوة أرضية صغيرة ناتجة عن قذيفة استهدفت الحديقة سابقًا، وقاما بتغطية بقايا الجثتين.

في تمام الساعة الحادية عشرة مساء تمكنت القوات السوفياتية من فرض حصارها على مبنى المستشارية، لتقوم بتمشيط المنطقة كخطوة تمهيدية لمحاولة اقتحام المبنى بعد نحو سبع ساعات ونصف من انتحار الفوهرر.. من ناحية أخرى تمكنت المدفعية السوفياتية من دكّ مبنى وزارة الطيران تمامًا، وتعاملت القوات مع من تبقى من كتيبة الدبابات الألمانية الموجودة ناحية الشرق، والتي حاولت التسلل للدفاع عن وسط المدينة، بعدما قامت القوات السوفياتية بتقسيم المنطقة التي تشبه الهلال، والمسيطر عليها المقاومة إلى نصفين، وجعلوا الهروب إلى الغرب أكثر صعوبة، ومن ثم تم الانقضاض عليهم وتصفيتهم.. ومع مرور صباح اليوم التالي ١ مايو اتصل «كريبس» بقائد الحرس الثامن السوفياتي، وقال له: إن «هتلر» قد مات، محاولًا التوصل معه لإجراء مفاوضات للاستسلام النهائي للمدينة، إلا أنهما اختلفا في التفاوض؛ بسبب رغبة السوفيات في أن يكون الاستسلام الألماني غير مشروط، وفشلت المحاولة.

بدأت ملامح النصر تظهر على الجانب السوفياتي بقيادة «غيورغي جوكوف» القائد العسكري صاحب الفضل الأول في تحقيق هذه الإنتصارات العسكرية وتحرير الإتحاد السوفياتي وباقي الدول المحتلة، حتى مكن جنوده من الدخول إلى هنا في قلب برلين، فجوكوف كان أكثر القادة نجاحاً من حيث عدد الإنتصارات، وهو القائد الوحيد الذي يخلو سجله من الهزائم، موهبته في القيادة العملية والاستراتيجية اعترف بها كثير من قادة الحلفاء، تم تسميته بـ «عراب النصر السوفييتي»، وقال عنه آخرون أنه أعظم قائد عسكري في القرن العشرين عند قدوم الساعة الثالثة أقدم وزير الدعاية «جوبلز» وعائلته على الانتحار، وكان «جوبلز» من أنصار عدم الاستسلام مهما حدث، ولآخر لحظة كان يحث الجميع على المقاومة، وكان بمثابة عقبة كبرى أمام قائد القوات الدفاعية «فايدلينغ» في إعلانه الاستسلام غير المشروط.. ومع نهاية اليوم كان المشهد الذي خيم على الأجواء هو محاولة هروب الجنود الألمان ومعهم المواطنون خارج المدينة، أضف إلى ذلك سلسلة الانتحارات الموسعة التي نفذها المواطنين الألمان في أنفسهم؛ خوفًا من الأسر.. كانت خطوط

الهروب كلها مغلقة ما عدا الخط الغربي المؤدي لتسليم الهاربين أنفسهم لخطوط الحلفاء، وبرغم ذلك لم ينجح غير قلة قد عبرت أولًا بعد اكتشاف السوفيات لهذه الثغرة، والتي قامت بقتل وأسر من مر منها فيما بعدُ.

وفي الصباح الباكر ليوم ٢ مايو، كانت القوات السوفياتية قد تمكنت من احتلال مقر المستشارية، وسيطرت عليه بسهولة بالغة، على عكس ما تم أثناء احتلال مبنى الرايخستاج؛ لأن غالبية جنود المقاومة قد قُتلوا أو هربوا أو يحاولون الهرب والتخفي في هذه الأثناء، ومع دخول الساعة السادسة صباحًا أعلن اللواء «فايدلينغ» وقادة أركانه في الدفاع الاستسلام، وأجبره السوفيات على إصدار أمرٍ للقوات المتبقية بالاستسلام، على رأسهم حامية المدفعية العنيدة المضادة للطيران المرابطة في حديقة برلين، والمكونة من ٣٥٠ رجلًا، وبرغم ذلك لم يصغِ عدد قليل من بعض رجال المقاومة لأمر الاستسلام، واستمرت الاشتباكات الخفيفة موجودةً في بعض البنايات، قبل قيام القوات الروسية بدكِّ المباني بمن فيها، وبعد ذلك لم يُسمع صوت طلقات النار في هدوءٍ تام، لقد انتهى كل شيء، وأحكم السوفيات قبضتهم على كل الاتجاهات، ثم قاموا بالقبض على أي شخص يرتدي أي لباس رسمي، مثل رجال الإطفاء وعمال السكك الحديدية من داخل بيوتهم، ورحَّلوهم للاتحاد السوفياتي كسجناء حرب، وجارٍ البحث عن «هتلر».

كان الفيلق المنوط بالبحث عن «هتلر» هو الفيلق التاسع والسبعين مندمجًا مع وحدة من المخابرات المضادة، وأثناء البحث عثر بالصدفة «إيفان تشوراكوف» من الفيلق التاسع والسبعين على جثتين محترقتين في حفرة ضيقة، واشتبه في أن تكون إحداهما جثة «هتلر».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما بعد النهاية

أعلنت ألمانيا إستسلام غير مشروط في يوم ٨ مايو ١٩٤٥ بعد إنتحار هتلر، وتعين «كارل دونتز» والذي تولى إدارة البلاد لسبعة أيام فقط تنفيذاً لوصية هتلر، وكارل كان مقاتلاً شجاعاً وقائداً لسلاح الغواصات الألماني في الحرب العالمية الثانية، الذي تمكن من خلال أسطوله من الغواصات اليوبوت من إلحاق خسائر رهيبة بأسطول الحلفاء البحري وتهديد إمداد القارة الأوروبية بشكل كبير عبر الأطلسي قبل الهزيمة، وإبتكر أسلوباً جديد في الهجوم البحري أسماه «قطيع الذئاب»، ولكن ما الفائدة منه الآن.

إستسلم معه من تبقى في ألمانيا على قيد الحياة، بعدما ما إنتحر العديد من المدنيين والمسؤولين الحكوميين والعسكريين في جميع أنحاء ألمانيا، ففي هذه الأحداث إنتحر ما لا يقل عن ١٠٠٠ مواطن ومواطنة في غضون ٧٢ ساعة عندما إقترب الجيش الأحمر من مدينة «دمين» الألمانية الشرقية قبل القدوم لبرلين، وعندما جاء حصار برلين تم الإبلاغ عن أكثر من ٧٠٠٠ حالة انتحار معظمهم من النساء اللاتي خفن من الإغتصاب.

بعد ذلك:

جاءت تقارير التشريح الخاصة بجثة «هتلر»، توضح وجود تدمير في جمجمته ناتج عن رصاصة، بالإضافة إلى العثور على بعض من القطع الزجاجية أسفل الوجه، والجدير بالذكر أن وحدة المخابرات المضادة السوفياتية قامت بدفن الجثتين وإخراجهما أكثر من مرة، خلال انتقال الوحدة من برلين إلى منشأة جديدة في «ماجديبورغ» عاصمة ولاية ساكسونيا، وهناك تم دفنهما نهائيًّا بصحبة البقايا المتفحمة لـ«جوبلز» وزوجته وأطفاله الستة، وكلاب «هتلر» في قبر واحد لا يحتوي على شاهد في فناء المنشأة هناك، دون إخبار أي شخصٍ بمكان القبر، وللعلم كانت هذه الرفات خالية من بقايا جمجمتي «هتلر» و«براون» المُهلكين، حيث تم ترحيلهما في وقتٍ سابق من عام ١٩٤٤ إلى موسكو؛ للاحتفاظ بهما والتأكد منها، عندما ظهرت أصوات تدَّعي هروب «هتلر».

وبعد مرور سنوات ومجيء عام ١٩٧٠، اتفق الاتحاد السوفياتي مع حكومة ألمانيا الشرقية على تسليم المبنى وإخلائه لهم، وحينها أمر مدير «الكي جي بي» بتدمير رفات الجثث؛ خوفًا من جعل قبر «هتلر» مزارًا للنازيين الجدد، وفي يوم ٤ إبريل من عام ١٩٧٠ قام فريق خاص بإخراج الجثث سرًّا، وتم إحراق المتبقي منها، ثم ألقوا بالرماد في نهر ألبة.

والجدير بالذكر أن هناك نظريات عديدة تتحدث عن نظرية المؤامرة حول موت «هتلر»، وأنه هرب هو وزوجته «إيفا» من برلين، ستجد هذه النظريات ظاهرةً بوضوح في الثقافة الشعبية لأنصار النازيين، وفي بعض الكتب التي تناولت هذه النظرية مثل كتاب «هروب أدولف هتلر» وكتاب «الذئب الرمادي»، والعديد من الوثائق الموجودة في مكتب التحقيقات الفدرالي التي اتَّسمت بالسرية، وفي وقتٍ لاحق، بعد البحث في تلك الوثائق، قالت المباحثات الفيدرالية الأمريكية إن المعلومات الواردة في تلك الوثائق المتعلقة بالهروب المزعوم ورؤية «هتلر» لم يتم إثبات صحتها.. أما الجمجمة الموجودة في موسكو التي أثبت معمل الحمض النووي الخاص بجامعة كونيتيكت أنها لم تكن خاصة به بعد اختبار العينة الخاصة بها في عام ٢٠٠٩، قيل إنها ربما تكون واحدة من ضمن عشرات الجماجم التي احتفظ بها الجنود، وقد تم تبديلها بالخطأ، وجاء الردُّ من المسئولين السوفيات السابقين بتقديم عظم الفك وجسور الأسنان الخاصة بالزوجين كأدلة أهم من وجهة نظرهم، بالفعل تم عرض الأدلة على طبيب أسنان «هتلر» «هوجو بلاشك»، بصحبة نخبة من أطباء الأسنان، وجاء التقرير بأن بقايا الأسنان هي خاصة بـ«هتلر» و«براون».

على كل حال في السنوات التي أعقبت الحرب، تضاربت الكثير من المعلومات التي وردت في التقارير عن مصير ما تبقى من رفات «هتلر»، وشهد هذا الأمر العديد محاولات التشكيك التي وقعت بين الجانبين الروسي والأمريكي خصوصًا في فترة الحرب الباردة، فعلى مرور فترات كان يخرج من هنا فريق بحث أمريكي ليشكك، ثم يرد من هناك فريق بحث روسي ليؤكد وهكذا... ولكن في النهاية سواء كانت الجمجمة الموجودة خاصة بـ«هتلر» أم لا، وكذلك عظام الفك والأسنان، فقد اعتبر المؤرخون إجماعًا أن «هتلر» قد انتحر قبل القبض عليه، واعتبرت هذه النظريات الخاصة بهروبه وجهات نظر ثبُت بطلانها.

لم تنتهِ هذه الحرب العنيفة بهذا الشكل، بل استمرت حتى استسلام اليابان التي كانت آخر دولة هُزمت في الحرب العالمية الثانية، بعد كارثة إلقاء القنبلتين الذريتين على «ناجازاكي» و«هيروشيما»، ورفعها للراية البيضاء، ومن ثم تسلّق علم الولايات المتحدة الأمريكية فوق مدينة طوكيو، ليُسدل الستار عن أكبر حروب الأرض في يوم ٢ سبتمبر من عام ١٩٤٥.

انتهت الحرب التي اعتُبِرت أكبر حروب التاريخ، حيث شارك فيها أكثر من ١٠٠ مليون شخص من أكثر من ٣٠ بلدًا.. انتهت أكثر حروب التاريخ دموية، والتي شهدت ما بين ٦٥ إلى ٨٥ مليون قتيل، أي ما يعادل ٢٪ من سكان العالم وقتها، ونحو نصفهم كانوا مدنيين.. كان للاتحاد السوفياتي وبولندا

وألمانيا النصيب الأكبر من الضرر.. أضف إلى ذلك عشرات الملايين من الجرحى والمشوهين والمفقودين.. أضف إلى ذلك الملايين الذين قُتلوا في معسكرات الإبادة والتعذيب.. لقد كانت حربًا قاسية استُعمل فيها السلاح الكيماوي والذري، وأباد الإنسان أخاه الأنسان بمنتهى الوحشية.

انتهت الحرب التي أحدثت ارتباكًا في تعداد المواليد في العالم، فبسبب انشغال الأزواج في الحرب الشاملة، انخفضت نسبة المواليد مقابل ارتفاعٍ كبير في نسبة الوفيات، أضف إلى ذلك زيادة عدد الإناث دون الذكور الذين ماتوا في الحرب.

انتهت الحرب التي شهدت حروبًا داخلية اتسمت بالدهاء، بفضل استخدام سلاح الجاسوسية الذي حسم مواقف عديدة داخل الحرب.

انتهت الحرب التي ولَّدت للبشرية سلوكًا عنيفًا انتشر كالفيروس في نفوس الناجين، وبسبب تفشي المرض والفقر والبطالة وارتفاع الأسعار وانخفاض قيمة العملات، أصيب الرجال بحالات نفسية مكتئبة دفعتهم لتبرير الجريمة.. أضف إلى ذلك خوف البشر من العلماء وأصحاب الأفكار المتقدمة ونفورهم منهم؛ بسبب استخدام العلم والتكنولوجيا في إزهاق أرواح الأبرياء في الحرب، فالناجون وقتها عاشوا في رعبٍ كبير من المستقبل الغامض.

انتهت الحرب التي أفقرت دول العالم باستثناء أمريكا، فالأراضي التي وقعت عليها الحرب أصبحت رمادًا قاحلًا لا زراعة ولا تجارة ولا صناعة ولا حتى بنى تحتية، ولذلك اقترضت معظم دول أوروبا بعد إعلانهم للإفلاس، ومن وقتها أصبحت أمريكا الدولة الاقتصادية العظمى، والتي جعلت الدولار هو العملة الأولى بعد استحواذها على نسبة ٨٠٪ من إجمالي الذهب العالمي.

انتهت الحرب التي أدَّت إلى:

- تأسيس هيئة الأمم المتحدة باقتراحٍ من أمريكا.

- تفتيت ألمانيا وتقسيمها إلى أربع أقسام (بريطاني - فرنسي - أمريكي - سوفيتي).

- انهيار الإمبراطورية الإيطالية.

- أفول نجم القوى العظمى التي كانت سائدة كبريطانيا وفرنسا.

- انقسام دول الحلفاء على بعضهم، والاختلاف فيما بينهم بعد ظهور فكريين متضادين، فكر رأسمالي ليبرالي غربي تقوده أمريكا، وشيوعي اشتراكي شرقي يقوده الاتحاد السوفياتي؛ ليتسبب ذلك في نشوب الحرب الباردة بينهما.

انتهت أكبر الحروب شرًّا، انتهت أسوأ فترات التاريخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المراجع والمصادر

• كتاب أدولف هتلر - الكاتب: لويس ل. سنيدر.

• كتاب أدولف هتلر في الميزان – الكاتب: محمود عباس العقاد.

• كتاب الوجه الآخر لأدولف هتلر – الكاتبان: فريد الفالوجي وحسن حمدي.

• كتاب ألمانيا النازية: دراسة في التاريخ الأوروبي المعاصر (١٩٣٩–١٩٤٥) – الكاتب محمد فؤاد شكري

• كتاب الرجل الذي أراد عملياً احتلال العالم الكاتب: لويس سنيدر.

• كتاب أدولف هتلر: السيرة النهائية – الكاتب: تولاند جون.

• كتاب عشرة أيام بين هتلر والموت – الكاتب: القاضي ميكائيل موسمانو

• كتاب اليوم الأخير لأدولف هتلر - الكاتب: ديفيد سولار.

• كتاب كفاحي – الكاتب: أدولف هتلر.

• كتاب هتلر الثاني – الكاتب: أدولف هتلر.

• كتاب صعود وسقوط الرايخ الثالث – الكاتب: وليام لورانس شيرر.

• كتاب من داروين إلى هتلر – الكاتب: ريتشار فيكارت.

• كتاب السياسة الخارجية لثورة هتلر الدبلوماسية الألمانية في أوروبا ١٩٣٣-١٩٣٦ الكاتب: وينبرغ جيرهارد

• كتاب ألمانيا وهتلر والحرب العالمية الثانية – الكاتب: جيرهارد وينبرج

• كتاب تاريخ ألمانيا الهتلرية – الكاتب: وليام شيرر

• كتاب شرح هتلر: البحث عن أصول الشر - الكاتب: رون روزنباون

• كتاب الرايخ الثالث في السلطة – الكاتب: ريتشارد ايفانز

• كتاب الديكتاتوريون: ألمانيا هتلر ، روسيا ستالين – الكاتب: أوفيري ريتشارد

• كتاب هتلر والحرب العالمية الأولى – الكاتب: توماس ويبر.

• كتاب ١٩١٥ وفاة البراءة – الكاتب: لين ماكدونالد

• كتاب صيف أوروبا الأخير: من بدأ الحرب العالمية في ١٩١٤؟ - الكاتب: ديفيد فرومكين.

• كتاب الحرب العالمية الأولى: لا نهاية تلوح في الأفق – الكاتب: فرانك فوريدي.
• كتاب بنادق أغسطس - الكاتب: باربرا توكمان.
• كتاب داخل الرايخ الثالث - الكاتب: سبير ألبرت
• موسوعة الحرب العالمية الأولى والثانية – الكاتب: الحسيني معدي
• كتاب ٢١٩٤ يوم من أيام الحرب العالمية الثانية – الكاتب: نخبة من القادة العسكريين الفرنسين.
• كتاب الحرب العالمية الثانية - مشاهدات علمية – الكاتب: سايمون أدمز.
• كتاب الحرب العالمية الثانية الجزء الأول – الكاتب: ريمون كارتييه
• كتاب الحرب العالمية الثانية الجزء الثاني – الكاتب: ريمون كارتييه
• كتاب الجيش الألماني ١٩٣٩ – ١٩٤٥ – الكاتب: نايجل توماس
• المنصة الوثائقية https://www.imdb.com/name/nm0386944
• المنصة الوثائقية

https://www.abc.net.au/religion/hitlers-faith-the-debate-over-nazism-and-religion/10100614

• المنصة الوثائقية

https://www.ne.se/uppslagsverk/encyklopedi/l%C3%A5ng/adolf-hitler
• المنصة الوثائقية http://www.ngalarabiya.com • المنصة الوثائقية
للتواصل مع الكاتب http://natgeotv.com/ae/videos

- facebook/ sherif.samy.92 -

المفتش - شريف سامي /facebook -

المفتش - شريف سامي.youtube/ -

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ - goodreads/sherif samy - www.sherifsamy.com

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

إهداءٌ..

مقدمة..

تمهيد

(١)
ساعة التمرد
(٢)
ساعة التحول
(٣)
ساعة العمى
(٤)
ساعة الذل
(٥)
ساعة الطموح
(٦)
ساعة العفو
(٧)
ساعة التقنين
(٨)
ساعة السلطة
(١٠)
ساعة التسلح
(١١)
ساعة الظهور
(١٢)
ساعة التحالف
(١٣)
ساعة العناد
(١٤)
ساعة التوسع
(١٥)

ساعة الإحجام
(١٧)
ساعة الغزو
(١٨)
ساعة الاستدراج
(١٩)
ساعة المقامرة
(٢٠)
ساعة الانتقام
(٢١)
ساعة باريا روسا
(٢٢)
ساعة التخبط
(٢٣)
ساعة المؤامرة
(٢٤)
ساعة الإدراك
(٢٥)
ساعة السقوط
ما بعد النهاية
المراجع والمصادر